ليندا برنت

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحداث في حياة أمة

في مطلع القرن التاسع عشر

ترجمة: مرح طربين

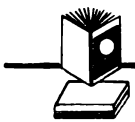

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩١

روايات عالمية

« ٢٩ »

احداث في حياة أمة

في مطلع القرن التاسع عشر

العنوان الاصلي للكتاب :

Linda Brent

Incidents in the Life of

A Slave Girl

In The beginning of Nineteenth Century

Translated By : Marah TARABEIN

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحداث في حياة أمة في مطلع القرن التاسع عشر =
Incidents in the life of a Slave girl ...
/ تأليف ليندا برنت ؛ ترجمة مرح طربين . ـ دمشق وزارة الثقافة ، ١٩٩٠ . ـ ٢٩٦ ص. ؛ ٢٤ سم . ـ (روايات عالمية ؛ ٢٩) .

١ ـ ٩٢٠ برنت ، ليندا ب ٢ ـ العنوان ٣ ـ برنت
٤ ـ طربين ٥ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني ع ـ ١٩٩٠/٣/١٧٩

المقدّمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

تحكي هذه القصة حياة فتاة عاشت في العبودية التي كان يرزح تحت عبئها الزنوج في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية بين أعوام ١٨٢٠ و ١٨٤٠ .

وهي تقص بأسلوب واقعي حساس ومؤثر وصادق ، وبصورة متتابعة سنوات طفولتها ومراهقتها وشبابها وجزءاً من بقية عمرها ، كل ما حدث لها مما يشد القارىء إلى المشاركة العاطفية بهذه المأساة الإنسانية . وتبدأ القصة بأن جاءها ترك والدتها وثلاثة من إخوتها أحراراً بعد أن اشترى حريتهم بالمال ولكن أثناء عودتهم إلى بلدة مجاورة ليلتقوا مع أقارب لهم ، قبض عليهم البيض الجنوبيون وأرغموهم على العبودية . وكانت أم الكاتبة عبدة في بيت للبيض ، وكانت خارقة الذكاء ، تعمل بشكل دائب بدون كلل أو ملل . وعندما توفي رب البيت الأبيض قُسمت ثروته بما فيها العبيد بين أولاده وأرملته .

وهكذا بقيت الجدة السوداء عند الأرملة وتوزع أولادها الخمسة بين الورثة وبيع أحد الأولاد وهو أصغرهم بمبلغ سبعمائة وعشرين دولاراً مما سبب ضربة قاسية للجدة التي كانت تأمل في شرائه واسترجاعه وقد اقتصدت مبلغ ثلاثمائة دولار لهذه الغاية . ولكن سيدتها البيضاء استدانت منها هذا المبلغ واعدة إياها باعادته رغم أن قانون الجنوب

كان يعتبر العبد غير مالك لشيء وأنه لا ملكية له مطلقاً . إلا أن الجدة المسكينة صدقت وعد سيدتها ولا سيما وأنها أقسمت بشرفها .

وكانت الكاتبة وأخوها مصدر اهتمام الجدة وعنايتها . وعندما صار عمرها ست سنوات ماتت أمها وعندها عرفت ولأول مرة أنها عبدة . فقد كانت سيدة والدتها هي ابنة سيدة جدتها وكانت سيدة والدتها هذه صديقة لأمها ومحبة لها لأنهما تربيا معاً ولذلك كانت معاملتها جيدة وعندما ماتت أمها صارت هي سيدتها . وقضت الكاتبة الفتاة الصغيرة والطفلة البريئة أوقاتاً لطيفة وهي تجلس ساعات تخيط الثياب قربها وعندما تشعر هذه السيدة بأن الطفلة تعبت كانت تتركها تذهب لتلعب وتقطف الورود والثمار . وعندما أصبحت في الثانية عشرة من عمرها ماتت سيدتها اللطيفة وأصبحت الفتاة السوداء عبدة لاحدى بنات أخت المتوفاة .

وعندما تزوج الطبيب الدكتور فلنت أخت السيدة التي ورثت الفتاة أصبحت الأخيرة ملكاً لابنتهم الصغيرة وقد صدف في يوم من الأيام وكانت في بيت سيدتها أن زارتها جدتها وأعلمتها بوفاة والدها . تلك الوفاة التي هزت كيانها وخاصة وأن ذلك كان مفاجأة لها باعتبار أنها لم تسمع قط بمرضه قبلاً . وفي اليوم التالي ، وكان من المفترض أن يتركها سادتها تذهب إلى بيت والدها المسجى لتنظر إليه النظرة الأخيرة ، فانهم على العكس منعوها من الذهاب وأرسلوها كي تقطف الزهور وتنسقها من أجل حفلة يقيمونها في المساء . وكأن موت والدها لا يعني شيئاً لهم .

وكان أخو الفتاة تعساً ، حزيناً ولا سيما حين يقول لها : سنمضي أيامنا في الرق حتى آخر العمر .

لقد كانت الفتاة تحب زيارة جدتها التي كانت تعمل لدى سيدة بيضاء ولكن السادة كانوا يعاقبون الفتاة إذا توقفت عند جدتها « وكثيراً ما كانت جدتي تعمل على الوقوف أمام الباب ومعها بعض الطعام لكي تقدمه لي خفية عن أسيادها لأن ما يقدمونه لها كان لايفي بالضرورات المعيشية » .

ورغم أن جدتها كانت تسعى لتوفر النقود عاملة جاهدة ، إلا أن الثلاثمائة دولار التي استدانتها سيدتها سابقاً اختفت إلى الأبد ، وعندما ماتت هذه السيدة ، وصار الطبيب فلنت وصياً ، طلبت جدتي منه اعادة المبلغ ولكنه رفض بقسوة بحجة ان القانون يمنع الدفع إلى العبيد . «كما أن تلك السيدة كانت وعدت جدتي بتحريرها وذلك في وصيتها بعد الوفاة» .

ولكن السيد فلنت FLINT أعلن أنها لن تتحرر وأنه سيبيعها للغير . ولكنه خوفاً من الرأي العام فقد تم بيعها في مزايدة محدودة .

وتصف الكاتبة حياة الاستعباد وأن العبد هو مملوك بشكل كامل لسيده بحيث أن نفسه وجسمه كانا ملكاً للسيد وكم مرة ماتت الأمهات السود وهنّ يلدن أطفالاً بيضاً من جراء اغتصابهن من قبل السادة البيض .

وتتطرق الكاتبة إلى الحديث عن سيدتها العديمة الشفقة والتي أمرتها مرة بالسير ساعات طويلة على الأرض الموحلة بالثلج لأنها آذت سمعها

عندما سارت بحذائها الجديد الذي اشترته لها جدتها وصدر عن الحذاء صوت حاد أزعج أذن السيدة المرهفة .

وكان الأسياد يعاملون عبيدهم كالكلاب تماماً ولهذا فان الحرية كانت بالنسبة لهؤلاء كالسراب أو الحلم . وكانت القيود الحديدية تثقل أجسامهم إذا أذنبوا كما حدث لأخ الفتاة وهو بنيامين حين حاول الهرب من تعسف السادة وظلمهم فقد قبض عليه وأعيد إلى سيده وصفدت يداه ورجلاه بالقيود بحضور أمه .

ولم يك هناك أقسى من تلك الحوادث والمناظر المتكررة .

وعندما بلغت الفتاة الخامسة عشرة من عمرها بدأت أنوثتها تبرز للعيان وهنا بدأ سيدها يفكر فيها تفكيراً آخر وباعتبارها ملكه كلية فقد كان يحق له كل شيء . وبدأ يراودها عن نفسها بينما أرادت سيدتها المتغطرسة أن تبدي غضبها ليس من قبيل حماية الفتاة ولكن غيرة منها .

وتصف الفتاة تعلقها بشاب أسود من الجوار وكيف أن سيدها رفض تزويجها وهددها بقتله وقتلها وأبعده عنها .

وتخاطب الكاتبة قلب القارىء وعواطفه عندما تقول : أيها القارىء إنك لن تعرف أبداً ماذا تعني أن يكون الإنسان عبداً ، وأن يكون مملوكاً بكامله بقوة القانون أو العرف .

لقد كان سيدها رجلاً طبيباً ، وكان المفترض فيه أن يكون إنساناً كاملاً ، ولكنه كان وحشاً مفترساً حيث حملت ووصلت حالتها من التعاسة أنها كانت تتمنى الموت نظراً لشدة تعسف أسيادها .

وعندما وضعت مولودها نظر إليها السيد الأبيض بخبث وهو

يبتسم وقال : إن هذا المولد سوف يعطيني في يوم من الأيام مبلغاً من المال عندما أقوم ببيعه في سوق النخاسة .

وقد حاولت التخلص من عبوديتها ولكن أسيادها كانوا ينتقمون من أقاربها وأصدقائها .

وقد هربت وعاشت سنوات سبعاً في مكان أشبه بحفرة مظلمة لا نور فيها في بيت جدتها مختفية عن الأنظار وبعذاب نفسي وجسدي لا يوصف .

وأخيراً استطاعت الهروب على مركب إلى حيث الحرية . وقد وصفت بشكل دقيق ومؤثر هروبها إلى الشمال ووصولها إلى نيويورك وبوسطن حيث عاشت مع ابنتها التي كانت بيعت فيما مضى . وظفرت أوصافها المؤثرة للسنتين اللتين عاشتا فيها مع ابنتها بأعذب الألفاظ . وقد سافرت إلى لندن وعادت إلى نيويورك وماتت جدتها في هذه الأثناء .

وأخيراً خاطبت الكاتبة القارىء بقولها بأن قصتها الحقيقية قد انتهت بالحرية فهي الآن حرة هي وأولادها وهي حرّة من العبودية مثل حرية الشعب الأبيض في الشمال .

إنها قصة مؤثرة واقعية امتدت جذورها إلى العواطف البشرية وخاطبت القلوب ، وشدت القارىء في كل صفحة من صفحاتها الخالدة .

* *

١
طفولـة

لم أدرك أنني ولدت أَمَةْ إلا بعد أن انقضت السنة السادسة من عمري شعرت بعدها أن فترة الطفولة السعيدة قد ولت .

كان والدي يعمل نجاراً ماهراً وقد عرف بذكائه الحاد ومهارته في مهنته وذوقه الرفيع ، فاذا ما أراد أحد أن ينشيء أبنية حديثة ومبتكرة ، كان يطلب إليه القدوم ولو من مسافات بعيدة ، ليكون رئيساً للعمال ، على أن يدفع لسيدته مائتي دولار سنوياً ، وأن يعمل على إعالة نفسه ، وقد سمح له بالعمل في مهنته وتدبير أموره ، إلا أن رغبته الأقوى تكمن في شراء أطفاله ، وقد عرض الكثير من دخله في سبيل ذلك ، ولكنه لم يفلح .

لقد دُعي والداي « مولدين » حيث غلب عليهما اللون الأصفر المائل للسمرة وقد ضمهما بيت مريح ، ولم يمنع كونهما عبيداً من أن يمنحاني الحب والحنان حتى أنني لم أكن أتصور بأنني جزء من تجارة مودعة لديهما للمحافظة عليها وأني معرضة للطلب منهما في أية لحظة .

لم يكن لي سوى أخ واحد يدعى « وليام » يصغرني بسنتين ، كان طفلاً لامعاً ودوداً ، كما أني حظيت بكنز ثمين متمثلاً بشخص جدتي لأمي ، كانت امرأة عظيمة في عدة نواحٍ وكان والدها فلاحاً من جنوب

كارولينا ، وقد توفي تاركاً أمها وثلاثة أطفال أحراراً ، وترك لهم مالاً للسفر إلى « سانت اوغستين » لملاقاة أقاربهم هنـــاك ، إلا أن الحرب الثورية كانت دائرة ، فقد تم احتجازهم أثناء سفرهم ، فأعيدوا وبيعوا إلى مشترين مختلفين ... تلك هي قصة جدتي التي اعتادت أن ترويها لي دائماً إلا أنني لا أذكر جميع تفاصيلها ، كانت فتاة صغيرة عندما اعتقلت وبيعت إلى صاحب فندق كبير ، وسمعتها تروي لي مراراً مدى الصعوبات التي واجهتها في طفولتها ، ولكن ما إن كبرت وشبت حتى ظهرت عليها علائم الذكاء الحاد ، والإخلاص الشديد ؛ حتى أن سيدها وسيدتها ، وجدا أن من مصلحتهما أن يعتنيا بهذه القطعة الثمينة من ممتلكاتهما الشخصية ، حتى أصبح لا غنى عنها في المنزل تؤدي واجباتها في كافة المجالات ، كطباخة وممرضة عطوفة وخياطة ، وقد أثني عليها كثيراً لحسن طهوها ، والبسكويت الرقيق الذي نال شهرة واسعة بين الجوار ، حتى أن الكثير من الناس كانوا يرغبون في الحصول عليه ، ونتيجة لازدياد الطلب عليه فقد استاذنت من سيدتها أن تصنع البسكويت في الليل بعد الانتهاء من أعمال المنزل ، وقد نالت الموافقة على ذلك على أن تكسو نفسها وأطفالها من الأرباح . وضمن هذه الشروط وبعد أن تتم عملها الشاق لسيدتها ، كانت تبدأ في صنع البسكويت بعد منتصف الليل ، بمساعدة طفليها الكبيرين ، وقد در عليها العمل ربحاً وفيراً ، ولهذا عزمت على شراء أطفالها بالمال القليل الذي تدخره في كل سنة .

مات سيدها ، وتم توزيع الممتلكات بين ورثته ، وكان الفندق من نصيب الأرملة التي استمرت في إدارته ، وبقيت جدتي في خدمتها

كأمة ، لكن أطفالها تم توزيعهم بين أطفال سيدها ، وبما أن لديها خمسة أطفال فان « بنيامين » الطفل الأصغر ، قد بيع ليصبح كل وريث له جزء مساوٍ من الدولارات والسنتات .

لم يكن هنالك فرق كبير في أعمارنا ، حتى أنه بدا أكثر شبهاً بأخي من خالي ، وقد كان فتىً وسيماً ، لامعاً ورث البشرة المائلة إلى البياض من جدتي لأمي ، والتي اكتسبتها بدورها من أسلافهم « الانكلو ساكسون » وكان ضربة موجعة لجدتي عندما بيع بمبلغ ٧٢٠ دولاراً ، مع أنه بلغ العاشرة من عمره ، وكانت تأمل في استعادته ، فزادت من طاقتها متأملة شراء بعض أولادها مع مرور الوقت .... ولكنها أعطت سيدتها «٣٠٠» دولار طلبتها منها على سبيل القرض ووعدتها أن تعيدها إليها فوراً . وكما هو معروف ، وحسب قوانين الجنوب ، أنه لا وعد ، ولا كتابة تعطى إلى العبد لهما صفة قانونية ، لأن العبد يعتبر من الممتلكات ، ولا يستطيع أن يمتلك ... وعندما أقرضت جدتي سيدتها من مدخراتها ، وثقت بشرفها فقط ... شرف ممتلك الرقيق بالنسبة للعبد .

كنت مدينة لهذه الجدة الطيبة بالكثير من الحب والسعادة وغالباً ما كنت وأخي نتلقى أجزاء البسكويت والكعك والمعلبات التي كانت تصنعها للبيع ، وبعد أن شببنا عن الطوق ، كنا مدينين لها بخدمات هامة أخرى .

تلك هي طفولتي المبكرة ، بأيامها السعيدة ، ولكن ما إن بلغت السادسة من عمري حتى توفيت والدتي ، وعندها علمت ومن الحديث الذي دار حولي بأنني كنت أمة .

كانت سيدة والدتي ، ابنة سيدة جدتي ، وكانت الأخت غير الشقيقة لأمي « أخت رضاعة » حيث رضعتا معاً من ثدي جدتي ، وقد فطمت أمي في الشهر الثالث من عمرها وذلك لكي تحصل طفلة السيدة على الطعام الكافي ... وقد لعبتا معاً كطفلتين صغيرتين ، وعندما شبتا كانت والدتي الخادم المخلصة لشقيقتها البيضاء ، وعلى فراش موتها وعدت سيدتها بأن أطفالها لن يعانوا من أي شيء ... وقد صدقت بوعدها أثناء حياتها ... كانوا يتحدثون بلطف عن والدتي المتوفاة التي كانت أمة بالاسم فقط ، ولكن في طبيعتها كانت امرأة نبيلة .

كان حزني عليها كبيراً ، وفكرت كثيراً فيمن سيعتني بي وبشقيقي الصغير ، ثم أُخبرت بأني سأقيم مع سيدتها ، وقد وجدته منزلاً سعيداً ، وكنت مسرورة دائماً ، لم تفرض علي واجبات مرهقة أو غير مألوفة ، وكانت سيدتي لطيفة جداً معي ، وكنت أحب أن ألبي طلباتها ، وفخورة بأن أعمل من أجلها بقدر ما تسمح به طفولتي . كنت أجلس إلى جوارها أخيط الثياب لساعات طويلة شعرت معها كأنني « ولد أبيض وُلدَ حراً » وعندما تشعر بأنني تعبت كانت ترسلني إلى الخارج للركض والقفز حيث أجمع التوت والأزهار لتزيين غرفتها ... نعم كانت تلك أياماً سعيدة .. سعيدة جداً عندما لا تدري الطفلة الأمة ما يخبئه لها المستقبل ... ولكن أتى ذلك اليوم الذي ينتظره بالتأكيد كل إنسان ولد ليكون أثاثاً منقولاً

ما إن بلغت الثانية عشرة من العمر حتى مرضت سيدتي وتوفيت ، وعندما رأيت خدها شاحباً ، وعينها كامدة ، رحت أصلي من كل قلبي على أمل أن تعيش .

لقد أحببتها كثيراً ، لأنها كانت كأم لي ، على أن صلواتي لم تستجب . وماتت ودفنت في باحة صغيرة للكنيسة ، حيث كانت دموعي تنهال يوماً بعد يوم على قبرها .

أرسلت بعدها لقضاء أسبوع مع جدتي ، وأصبحت الآن في سن تمكنني من التفكير في مستقبلي . ومرة بعد أخرى سألت نفسي : ماذا سيحل بي ؟ وشعرت بالتأكيد أنني لن أجد سيدة تتمتع باللطف الذي كانت تتمتع به تلك التي رحلت ... لقد وعدت أمي وهي على فراش الموت ، أن أطفالها لن يعانوا من أي شيء ، وعندما تذكرت ذلك واستذكرت براهينها العديدة ، لم أستطع إلا أن أحمل بعض الأمل في أنها قد تتركني حرة . . . وكان أصدقائي متأكدين من ذلك ، وواثقين بسبب حب والدتي وخدمتها المخلصة ولكن ... واأسفاه ! ! فكلنا يعرف أن ذكرى أمة مخلصة لا تفيد كثيراً في إنقاذ أولادها من عقبة المزاد .

وبعد مدة قصيرة ، قرئت وصية سيدتي ، وعرفنا بأنها أوصت بي إلى ابنة أختها حيث كانت طفلة في الخامسة من العمر ... وهكذا تلاشت آمالنا .

ولقد علمتني سيدتي مبادىء كلمة «الله» « إنك سوف تحبين جارتك كما تحبين نفسك وما يفعله الرجال تجاهك فافعلي تجاههم مثله ...» . ولكني كنت أمتها وأعرف أنها لن تعترف بي جارة لها ، ولقد أفعل الكثير لأمحو من ذاكرتي تلك الغلطة الكبرى ... ولكن الطفلة أحبت سيدتها وعندما أستعرض الماضي بأيامه السعيدة التي قضيتها معها ، كنت أحاول أن أخفف من مرارة ذلك العمل الظالم ... فقد علمتني القراءة

والتهجئة ، ولهذا الامتياز الذي كان نادراً ما يمنح للعديد من العبيد تجدني أبارك ذكراها .

كانت تملك القليل من الإماء وعند وفاتها تم وزيعهم بين أقاربها الذين كان خمسة منهم أطفالاً ، شاركن بنفس الحليب الذي غذى أطفال أمهـــا . ورغم خدمة جدتي الطويلة والمخلصة لمالكيها فلم ينج أحد منهن من عقدة المزاد... ان هذه الآلات التي فيها نفخة عن روح الله ليست في نظر أسيادها أكثر من القطن الذي يزرعونه أو الخيول التي يركبونها .

* * *

٢

السيد والسيدة الجديدان

الدكتور « فلنت » طبيب يقطن في الجوار ، تزوج أخت سيدتي ، وأصبحت أنا ملكاً لابنتها الصغيرة ، ولم أك قد رتبت نفسي للسكن الجديد ، ومما زاد من شقائي ، هو شراء العائلة نفسها لأخي وليام ، أما والدي فمن طبيعته أنه ماهر بابرام صفقات العمل كميكانيكي ، ولديه الكثير من مشاعر الرجل الحر أكثر مما هو شائع بين العبيد ، وكذلك أخي حيث كان ولداً روحياً ، ربي تحت نفوذ مماثل ، فكره منذ حداثة سنه اسم السيد والسيدة .

وذات يوم حدث أن ناداه والده وسيدته في الوقت نفسه ، إلا أنه تردد بين الاثنين وحار في أيهما له الادعاء الأقوى ليقدم له طاعته ، وأخيراً أزمع على تلبية نداء سيدته ، وعندما عنفه والدي لذلك قال « كلاكما دعاني فلم أدر لمن أذهب أولاً » .

أجاب والدي : « أنت طفلي ، ويجب عليك أن تحضر فوراً عندما أدعوك إن كان عليك أن تمر بين النار والماء . » .

مسكين « ويلي » كان عليه الآن أن يتعلم الدرس الأول في الطاعة لسيده ... ولقد حاولت جدتي أن تسري عنا بكلمات مليئة بالأمل وجدت صدى في قلوب الفتيان السذج

عندما دخلنا منزلنا الجديد ، فوجئنا بنظرات باردة وحادة وبكلمات ومعاملة أشد برودة ، وكم فرحت بحلول الليل لأبوح لسريري الضيق بشعور الوحشة والضيق والوحدة يكاد يغمرني البكاء والنحيب .

أمضيت هناك قرابة سنة عندما دفنت صديقتي الصغيرة العزيزة ، وسمعت والدتها تتنهد عندما أهيل التراب على تابوت طفلتها الوحيدة ، وتحولت أنا عن القبر شاعرة بأن الله ترك لي شيئاً من الحب ... ولمحت جدتي تناديني « تعالي معي ياليندا » وشعرت من لهجتها أن شيئاً ما قد حدث ، ثم قادتني الى ناحية منعزلة وقالت : « يا طفلتي ... لقد توفي والدك ... » توفي ؟ ! كيف يمكنني أن أصدق ذلك ؟ لقد مات فجأة حتى أني لم أسمع أنه كان مريضاً . وذهبت إلى المنزل بصحبة جدتي يغمرني الحزن لأن الله قد أخذ مني والدي ووالدتي وسيدتي وصديقتي ، وحاولت جدتي الطيبة أن تعزيني قائلة « من يدري مشيئة الله ؟ قد يخفف الله عنك ما ستلاقينه من شر في الأيام القادمة . » .

مضت السنوات ، وغالباً ما كنت أفكر بهذا ، لقد وعدت جدتي أن تكون أماً لأحفادها بقدر ما يسمح لها بفعل ذلك ... وعدت الى منزل سيدتي متسلحة بحب جدتي . ومتأملة أن يسمح لي بالذهاب إلى منزل والدي في صباح اليوم التالي ولكن أمرت بأن أذهب لقطف الزهور لتزيين بيت سيدتي الذي ستقام فيه حفلة مسائية ... وأمضيت اليوم أجمع الأزهار ناسجة منها حبالاً بينما كان جثمان والدي مسجى على بعد ميل واحد مني... ولكن ماذا يهم مالكي من ذلك،فلم يكنوالديأكثر من قطعة من الممتلكات وفوق ذلك فقد اعتبروه مفسداً لأطفاله بتعليمهم الشعور بأنهم بشر ... كان هذا مبدأ التجديف ، إن تعليم العبد وقاحة منه وخطر على أسياده .

وفي اليوم التالي تبعت بقاياه إلى قبر متواضع ، يقع إلى جواره قبر والدتي . ولكن ما يعزيني أن هنالك الكثير ممن يعرفون قدر والدي ويحترمون ذكراه

بدأ منزلي الآن أكثر وحشة من ذي قبل ، وبدت ضحكات العبيد الصغار فظة وقاسية وكان من الأنانية أن أظهر شعوري هذا أمام سرور الآخرين، ولمحت أخي بوجهه المكتئب . فحاولت أن أسري عنه بقولي : « كن شجاعاً يا ويلي فالأيام الجميلة سوف تأتي شيئاً فشيئاً » . . ولكنه أجاب : « أنت لا تعرفين شيئاً منها ياليندا ... علينا أن نبقى هنا طيلة أيامنا ، ولن نكون أحراراً أبداً ... » إلا أنني ناقشته بأننا نزداد نمواً وقوةً ، وربما يسمح لنا قبل مضي فترة طويلة بأن نعيش ايامنا الخاصة ، وعند ذلك نستطيع أن نجني الأموال من أجل شراء حريتنا ... وأوقف وليام تأملاتي بقوله إن ذلك من السهل قوله أكثر من فعله وفوق ذلك فانه لم يكن ينوي شراء حريته ... وكثيرة كانت المناقشات التي كنا نعقدها حول هذا الموضوع

أما في منزل الدكتور « فلنت » فلم يكن العبيد يتلقون الطعام الكافي ، ولم يكن هناك اهتمام كافٍ بوجباتهم اليومية ، فان استطاع أحد العبيد أن يمسك بقطعة من الخبز ، فذلك يعتبر أمراً جيداً ، أما أنا فلم أكن أجشم نفسي عناء الحصول على الطعام ، لأنني في مهامي المتعددة كنت أمر بمنزل جدتي حيث أجد دائماً ما هو متوفر لي ... ولكني هددت بالعقوبة عدة مرات إذا ما توقفت هناك ، كيلا أحتجز كانت جدتي الحبيبة تتوقف بشكل دائم على البوابة تحمل شيئاً ما لفطوري أو غذائي ... كنت مدينة لها بكل تسلياتي ، سواء منها الروحية أو المؤقتة ، وقد عملت ما بوسعها لكي تزودني السيدة « فلنت » بالملابس القليلة بالإضافة إلى

الملابس القطنية والصوفية ، وكم كنت أكره ذلك لأنه كان أحد شعارات العبودية .

ومع أن جدتي كانت تساعد في إعالتي مما تكسبه بشق الأنفس ، إلا أنها لم تسترد مبلغ الثلاثمائة دولار التي أقرضتها لسيدتها ، وعندما توفيت سيدتها عين صهرها الدكتور « فلنت » منفذاً لوصيتها ، وحاولت جدتي أن تطالبه بالمبلغ ولكنه أجابها بأن العقار في حالة إفلاس والقانون يحرم الدفع.وعلى أية حال لم يمنعه ذلك من احتجاز الشمعدان الفضي الذي تم شراؤه بذلك القرض ، وافترض أنها ستسلم إلى العائلة من جيل إلى جيل .

أما جدتي فقد كانت سيدتها تعدها دائماً بأنها سوف تهبها حريتها عند موتها ، وقيل أنها قد برت بوعدها في وصيتها ، ولكن عندما تمت تسوية العقار أخبر الدكتور « فلنت » الخادم العجوز المخلصة أنه نظراً للظروف الحاضرة فقد كان من الضروري بيعها .

وفي اليوم المعين ظهر الاعلان المألوف مبيناً أنه سيكون هنالك بيع عام للزنوج والخيول ، وأتى الدكتور « فلنت » يعلم جدتي بأنه لم يكن راغباً بجرح مشاعرها بوضعها في المزاد ، وأنه يفضل التخلص منها في مبيع خاص ، وقد أدركت جدتي نفاقه ، وفهمت تماماً أنه كان خجلاً من العملية ... لقد كانت امرأة روحانية وكان هو سافلاً بما فيه الكفاية لبيعها ، بينما كانت غاية سيدتها أن تحررها من العبودية ، ولذلك كانت جدتي مصممة على أن تعرف الرأي العام بهذا الأمر .

وقد زودت « العمة مارتا » كما كانت تدعى جدتي ... عائلات عدة بالبسكويت والمعلبات ولذلك فقد كانت معروفة وكل من يعرفها

كان يحترم ذكاءها وخلقها القويم ، وكذلك خدمتها الطويلة والمخلصة للعائلة ، كما عرفت نية سيدتها في منحها حريتها .

وجاء يوم البيع ، وأخذت جدتي مكانها بين « الممتلكات المنقولة » وعند أول نداء قفزت على عقدة المزاد فتعالت أصوات عديدة ... « يا للعار ، يا للعار ، من ينوي بيعك يا عمة مارتا ؟ لا تقفي هنالك ، ذلك ليس مكانك ..» ودون أن تتلفظ بكلمة انتظرت مصيرها ولكن لم يتقدم أحد للمزاودة عليها ... وأخيراً انطلق صوت ضعيف يقول : « خمسون دولاراً » « أتى ذلك الصوت من سيدة عذراء يناهز عمرها السبعين عاماً ، وهي شقيقة سيدة جدتي المتوفاة ... لقد عاشت أربعين عاماً مع جدتي تحت سقف واحد ، وعرفت خدمتها واخلاصها لمالكيها ، وكيف حرمت من حقوقها بقسوة ، وصممت على حمايتها ... وانتظر الدلال سعراً أعلى ولكن رغباتها احترمت ولم يزاود أحد عليها .

لم تكن جدتي تقرأ أو تكتب ، وعندما جهزت فاتورة البيع وقعت عليها بصليب ، كان من نتيجة ذلك أن أعطيت الخادم العجوز حريتها .

كان عمر جدتي في ذلك الوقت يناهز الخمسين ومضت سنوات طويلة من العمل منذ ذلك الوقت وغدونا أنا وأخي « وليام » عبدين للرجل الذي حرمها من نقودها وحاول حرمانها من حريتها .

« العمة نانسي » هي إحدى شقيقات والدتي وهي أمة في عائلة الدكتور «فلنت» . كانت عمة لطيفة وطيبة لي ، حلت محل ربة المنزل والخادم لسيدتها ، وكانت في الحق بداية ونهاية لكل شيء .

ومثل العديد من السيدات الجنوبيات كانت السيدة « فلنت »

ضعيفة البنية ، لدرجة أنها لم يكن لديها القوة الكافية لمراقبة شؤون منزلها ، إلا أنها كانت تتمتع بقوة الأعصاب ، فكانت تجلس على كرسيها المريح لترى امرأة تضرب بالسوط حتى يقطر منها الدم بعد كل ضربة ... وكانت تلك السيدة عضواً في الكنيسة ، ولكن مشاركة عشاء الرب لم يبد أنه وضعها في إطار مسيحي من العقل ... فاذا لم يهيأ العشاء في الوقت المحدد في ذلك الأحد بالذات فانها تذهب إلى المطبخ ، وتنتظر حتى يسكب الطعام في الأطباق ، ثم تبصق في كافة الصحونِ المستخدمة في الطهي ، وكانت تفعل ذلك من أجل حرمان الطاهية وأطفالها من ذلك الجزء الضئيل من البقايا والنفايات .

ولم يكن العبيد يحصلون على شيء للأكل خلا ما كانت قد اختارته لهم ، وكانت الأغذية والمؤن توزن بالرطل والأوقية ثلاث مرات في اليوم ، وأؤكد لكم أنها لم تعطهم أية فرصة لكي يأكلوا خبز القمح من برميل طحينها ... وهي تعرف عدد قطع البسكويت التي تضمها ربع غالون من الطحين ، وتعرف بالتحديد الحجم الذي يجب أن تكون عليه .

وكان الدكتور « فلنت » ذواقة طعام بحيث لم ترسل الطاهية الغذاء إلى طاولته مرة دون أن ترتجف وتتملكها الخشية ، لأنه لو أحضرت طبقاً مخالفاً لرغبته ، فانه كان يأمر بجلدها أو يجبرها على أن تأكل كل لقمة منه بحضوره ، وكان بامكان المخلوقة المسكينة الجائعة ألا تعترض على الأكل ، ولكن سيدها كان يحشر الطعام في حلقها حتى الإختناق .

وكان لديهم كلب مدلل وكان مصدر ازعاج في البيت ، وقد أمرت الطاهية بتهيئة بعض دقيق الذرة الهندي له ، إلا أن الكلب رفض أكله

وبدأ الزبد يتصاعد من فمه إلى الحوض ، ثم مات بعد ذلك ببضع دقائق ... وعند حضور الدكتور « فلنت » قال إن الدقيق لم يطبخ بشكل جيد ولذلك لم يتناوله الحيوان ، وبعث في طلب الطاهية وأجبرها على أكل الدقيق ... كان يظن أن معدة المرأة أقوى من معدة الكلب ، إلا أن معاناتها فيما بعد أثبتت أنه كان على خطأ .. وتحملت تلك المسكينة قسوة كبيرة من سيدها وسيدتها ، حتى أنه في بعض الأحيان كانت تحتجز بعيدة عن رعاية أطفالها طيلة النهار والليل .

وبعدما أمضيت بضعة أسابيع في خدمة العائلة ... أحضر أحد عبيد المزارع إلى البلدة بأمر من سيده ، وكان الوقت ليلاً تقريباً عندما وصل ، وأمر الدكتور « فلنت » أن يؤخذ به إلى بيت العمل ويوثق إلى عارضة بحيث تبعد قدماه قليلاً عن الأرض ، وفي تلك الحال كان عليه أن يبقى ريثما يتناول الدكتور كوب الشاي ... لن أنسى تلك الليلة ... إذ لم أشاهد في حياتي قبل ذلك ولم أسمع مئات الضربات تنهال على كائن بشري بالتتابع ... كنت أسمع أنينه وتوسلاته التي لم يأبه بها أحد ... « أرجوك يا سيدي يكفي ... » كل ذلك ظل يرن في أذني أشهراً بعد ذلك اليوم وتعددت التساؤلات حول سبب ذلك العقاب المفزع .. قال البعض أن السيد اتهمه بسرقة القمح ، بينما قال آخرون أن العبد قد تشاجر مع زوجته بحضور مراقب العمال ، واتهم سيده بأنه كان والد طفلها فكلاهما كانا أسودين بينما كان الطفل أشقر جداً .

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى مكان العمل ، وشاهدت جلد البقرة ندياً بالدم ، كما أن الألواح كانت مغطاة بالدم ... وعاش الرجل المسكين إلا أنه كان دائم الشجار مع زوجته .. ومضت بضعة أشهر على ذلك سلمهما بعدها الدكتور «فلنت» إلى تاجر رقيق ودس ذلك الرجل

الخاطىء ثمنهما في جيبه شاعراً بالرضى لبعدهما عن نظره وسمعه .. وعندما سلمت الأم إلى تاجر الرقيق نظرت إلى الدكتور « فلنت » وقالت « لقد وعدت أن تعاملني بشكل أحسن » إلا أنه أجابها : « لقد سمحت للسانك أن يذهب بعيداً جداً ، عليك اللعنة لقد نسيت أنه كان جريمة من الأمة أن تذكر من كان والد طفلها »

لم يكن الاضطهاد قاصراً على السيد بل هناك آخرون غيره ... أذكر مرة أنني رأيت أمة شابة في نزاع الموت عقب وضعها طفلاً أبيض تقريباً وكانت تصرخ في ألم : « يا إلهي تعال وخذني » وكانت سيدتها تقف إلى جانبها كشيطان متجسد وهي تهتف « أنت تعانين أليس كذلك ؟ أنا مسرورة لذلك فأنت تستحقين ذلك بل وتستحقين أكثر منه ... » وتنهدت والدة البنت قائلة « لقد ماتت المولودة .. شكراً لله وآمل أن تغدو طفلتي حالاً في الجنة أيضاً » .

فأجابت السيدة على الفور « الجنة ؟ ! » ثم أردفت قائلة « ليس هنالك مثل هذا المكان لزانية وابنتها » وأشاحت الأم المسكينة بوجهها وهي تتنهد حيث نادتها ابنتها التي تعاني سكرات الموت بصوت ضعيف ، وعندما انحنت عليها سمعتها تقول : « لا تحزني كثيراً يا أمي فالله عالم بكل شيء وسوف يرحمني » .

واشتدت معاناتها حتى أن سيدتها شعرت بأنها غير قادرة على البقاء ، فغادرت الغرفة ولكن ابتسامة السخرية مازالت مرتسمة على شفتيها ... كان لديها سبعة أطفال ينادونها أمي أما تلك المرأة السوداء فلم يكن لديها إلا طفلة واحدة رأتها تفقد نور الحياة بينما راحت هي تشكر الله لأنه أبعدها عن مرارة الحياة الكبيرة .

* * *

٣

أول يوم في السنة الجديدة للعبيد

كان الدكتور « فلنت » يمتلك منزلاً جميلاً في البلدة ، ومزارع عديدة ، وحوالي خمسين عبداً بالإضافة إلى استئجار عدد منهم خلال السنة .

وكان الموعد المحدد للاستئجار في الجنوب هو الأول من كانون الثاني ، وفي اليوم الثاني يتوقع من العبيد أن يذهبوا إلى أسيادهم الجدد حيث يعملون في مزارعهم ، فيحصدون القطن والقمح وعند ذلك يكافؤون بعيد ولمدة يومين يقدم فيه بعض الأسياد غذاء جيداً تحت الأشجار ، وإذا ما انتهى ذلك عادوا إلى العمل حتى عشية الميلاد ، وقد يعطون عطلة مدتها أربعة أو خمسة أيام ، على أن لا توجه إليهم تهم كبيرة في غضون ذلك ، وكما يراه السيد أو المراقب مناسباً ... ثم تأتي عشية رأس السنة الجديدة ويجتمعون كلهم معاً أو بصورة أدق يجمعون أشياءهم الصغيرة وينتظرون بقلق بزوغ فجر اليوم التالي . وفي الساعة المعينة تكتظ الأرض بالرجال والنساء والأطفال وهم ينتظرون كالمجرمين سماع اعلان الدينونة .. ويعرف العبد من هو السيد الأكثر انسانية أو الأكثر قسوة على بعد أربعين ميلاً منه .

ومن السهل معرفة هذا الأمر في ذلك اليوم ، أي معرفة من يكسو

ويغذي عبيده جيداً . لأنه يكون محاطاً بحشد يتوسل إليه قائلاً : « رجاء أيها السيد استأجرني هذه السنة ، سوف أعمل بجد يا سيدي » .

وإذا لم يشأ العبد أن يذهب مع سيده فانه يضرب بالسياط أو يغلق عليه في السجن حتى يرضى بالذهاب ويعد بأنه لن يهرب أثناء السنة ، وإذا ما حدث وغير رأيه معتقداً أن من حقه أن يخرق الوعد الذي انتزع منه بالقوة فالويل له إذا ما ألقي القبض عليه ، وعندئذ يجلد بالسوط حتى يسيل الدم على قدميه وأطرافه المتيبسة الموضوعة في السلاسل ويتم جره في الحقل أياماً وأيام ... وإذا ما عاش حتى السنة المقبلة فاربما يستأجره الرجل نفسه مرة أخرى دون إعطائه فرصة الذهاب إلى أرض الاستئجار . وبعد أن ينتهي التخلص من أولئك المعروضين للاستئجار تبدأ المناداة على أولئك المعروضين للبيع ... فيا أيتها المرأة الحرة ، السعيدة ، قارني يوم رأس السنة لديك برأس سنة الأمة المسكينة ... إنه يوم بهيج معك ولا شك وضوء النهار فيه مبارك ، حيث تقابلك رغبات ودية في كل مكان وتنهال عليك الهدايا من كل اتجاه وحتى القلب الذي ابتعد عنك يرق في هذا اليوم والشفاه التي كانت صامتة أخذت ترجع الصدى ، أتمنى لك سنة جديدة سعيدة ، وحيث يجلب الأطفال الأحرار قرابينهم الصغيرة ، محركين شفاههم الوردية بشكل لطيف ، إنهم ملكك ولا أحد يستطيع أخذهم منك إلا بالموت ... ولكن الأم الأمة فان رأس السنة لديها يأتي محملاً بأحزان غريبة فهي تجلس على أرض كوخها البارد تراقب أطفالها الذين يمكن أن يقتلعوا منهـــا في الصباح التـــالي ، وهي على الأغلب تتمنى لو أنها تموت مع أطفالها قبل أن يبزغ فجر اليوم ... ويمكن أن تكون مخلوقاً جاهلاً حط من قدرها النظام الذي حرمها وبقسوة من الطفولة ولكن لها غرائز وشعور الأم بالآلام

وفي يوم من أيام البيع هذه ، رأيت أماً تقود سبعة أطفال إلى سوق المزاد ، وكانت تعلم أن بعضهم يمكن أن يؤخذ منها ، إلا أنهم أخذوا جميعاً ... لقد بيع الأطفال إلى تاجر الرقيق بينما اشترى أمهم رجل من بلدتها ، وقبل حلول الليل كان أطفالها جميعاً قد رحلوا عنها بعيداً ولم يأبه إليها التاجر رغم توسلاتها في أن يخبرها عن المكان الذي سيأخذهم إليه وحيث يحصل على السعر الأعلى .

قابلت تلك الأم في الشارع ، ولم تبرح ذهني حتى اليوم صورة وجهها المنهك الجامح ... كانت تعصر يديها في ألم مبرح قائلة : «ذهبوا .. ذهبوا كلهم فلماذا لا يقتلني الله ؟ ...» تمنيت أن تكون لدي كلمات تدخل السرور والبهجة إلى قلب تلك المرأة المسكينة ولكن . . هيهات .. إن أمثلة من هذا النوع كانت تحدث يومياً ، بل وفي كل ساعة ...

إن لدى مالكي العبيد أسلوباً غريباً في التخلص من العبيد الكهول . الذين أفنوا حياتهم في خدمتهم . . عرفت امرأة عجوزاً خدمت سيدها باخلاص طيلة سبعين عاماً ، وقد غدت عاجزة تقريباً من جراء العمل الشاق والمرض ، وقد انتقل مالكوها إلى « الأباما » بينما ظلت تلك العجوز عرضة للبيع لأي شخص يدفع عشرين دولاراً ثمناً لها .

مكتبة
t.me/soramnqraa

*

٤

العبد الذي تجرأ على الشعور كرجل

مضت سنتان على التحاقي بعائلة الدكتور « فلنت » مما أكسبني ذلك معرفة وخبرة واسعتين ولو أنها قدمت القليل من الفرص لأية معرفة أخرى .

كانت جدتي تحاول بقدر استطاعتها أن تكون أماً لأحفادها اليتامى . وبدأبها المتواصل على العمل أصبحت الآن سيدة لبيت صغير تتوفر فيه وسائل الراحة ، وكان بامكانها أن تكون سعيدة لو أن أطفالها شاركوها ذلك . كان هناك ثلاثة أطفال وحفيدان فقط وكلهم عبيد ، إلا أنها كافحت وبجد لتجعلنا نشعر أنها إرادة الله وأن الله وضعنا في مثل هذه الظروف لأنها الأفضل لنا ، ومع أنها بدت صعبة إلا أن علينا أن نصلي من أجل القناعة .

كان إيماناً جميلاً نابعاً من أم لم تستطع أن تسمي أطفالها لها ولكنني و« بنيامين » ولدها الأصغر شجبنا ذلك وجادلنا بأن إرادة الله أن توضع حيث وضعت ... لقد تقنا إلى بيت مثل بيتها هناك كنا نجد دائماً البلسم الشافي لمتاعبنا ... كانت ودودة ومتعاطفة جداً ، تلقانا دائماً بابتسامة ، مصغية بصبر لكافة مآسينا ... وتكلمت بأمل كبير كي يتيح للغيوم المتراكمة على حياتنا أن تزول وتخلي مكانها لأشعة الشمس وكان

هناك فرن كبير أيضاً يخبز الخبز والأشياء اللذيذة للبلدة وكنا نعرف تماماً أن هنالك بعض الشيء مختزناً لنا .

ولكن واأسفاه حتى الفرن القديم فقد سحره في ملاءمتنا مع حظنا القاسي ... لقد أصبح « بنيامين » الآن طويلاً ووسيماً ، قوياً ، رشيق البنية ، ويتمتع بروح جريئة جداً بالنسبة لعبد مثله . أما أخي «وليام» فقد بلغ الثانية عشرة من عمره وهو يمقت أيضاً كلمة « سيد » . وقد كنت موضع ثقته منذ أن كان صغيراً في السابعة حيث كان يبثني كل متاعبه ، وأتذكر مثلاً واحداً على الخصوص .... ذات صباح ربيعي لطيف وعندما رأيت أشعة الشمس تتراقص هنا وهناك بدا لي وكأن جمال الطبيعة يسخر من حزني لأن سيدي بطبيعته الشريرة كان يحوم ليلاً ونهاراً بحثاً عن شخص يفترسه ، وقد غادرني للتو بعد أن تفوه بكلمات قارصة لاذعة ، كلمات تثقب الأذن والدماغ كالنار ... آه كم احتقره . وفكرت كم سأكون سعيدة لو أن الأرض التي يمشي عليها تنشق وتبتلعه وتريح العالم من هذا الطاعون .

وعندما أخبرني بأنني قد خلقت من أجله ولإطاعة أمره في كل شيء ، وأنني لم أكن إلا مجرد أمة عليها أن تستسلم له بمحض إرادتها ، ولم تشعر ذراعي الضعيفة قبل ذلك بأنها نصف قوية جداً ... لقد سيطرت علي الآلام لدرجة أني لم أر ولم أسمع دخول أي شخص حتى رن صوت « وليام » قريباً مني قائلاً : « ليندا ... ما الذي يجعلك تبدين حزينة جداً ؟ إنني أحبك ياليندا أليس هذا عالماً غريباً ؟ .. إن كل شخص يبدو مضطرباً وغير سعيد .. أتمنى لو أنني مت عندما مات والدي المسكين » وأجبته بأنه «ليس كل انسان في هذه الحياة قلقاً أو مضطرباً أو غير سعيد

وإن أولئك الذين لهم منازل بهيجة وأصدقاء لطفاء ، والذين وثقوا من حب الناس لهم كانوا سعداء ، ولكننا نحن الذين كنا أطفالاً أرقاء دون أب أو أم لم نتوقع أن نجد سعادة . ولكن يجب أن نكون طيبين إذ ربما حقق ذلك لنا الرضى ..» وقال هو « نعم إنني أحاول أن أكون طيباً ولكن ما الفائدة إنهم يزعجونني طيلة الوقت » ثم استمر في حديثه عن مضايقة السيد الشاب « نيقولا » له إذ يبدو أن شقيق السيد « نيقولا» قد سر باختلاق قصص حول « وليام » وقال السيد « نيقولا» أنه سيكون من الضروري جلده وهو مصر على فعل ذلك وهكذا ذهب إلى العمل إلا أن « وليام » قاتل بشجاعة حتى تغلب على سيده ، فما كان من السيد إلا أن أمر بتقييد يديه خلفه ، ولكنه فشل في ذلك أيضاً . وقد خرج « وليام » من المشاجرة ببعض الخدوش فقط بفضل قوته وشجاعته .

وظل « وليام » يتحدث عن حقارة سيده الشاب وكيف كان يجلد الصبية الصغار ، إلا انه كان جباناً تماماً عندما ينشب الصراع بينه وبين الأطفال البيض في مثل سنه ... وفي مثل هذه المناسبات كان يلجأ إلى قدميه ... وكان لدى « وليام » تهم أخرى ضده ، أحدها أن كان يمسح البنسات بفضة سريعة ويحولها إلى أرباع الدولار ، حيث يصرفها لدى بائع عجوز له كوخ فاكهة ... وكثيراً ما كان يرسل « وليام » لكي يشتريها له وكان « وليام » يستفسر عما يمكنه صنعه تحت ظروف كهذه وأخبرته أن ذلك كان خطأ بالتأكيد في أن يخدع رجلاً عجوزاً وأن من واجبه أن يخبره بالحيل التي كان يستخدمها سيده الشاب ، وأكدت له بأن العجوز سوف يدرك هذا الأمر سريعاً وعندئذ تنتهي القضية ، وظن « وليام » أن القضية يمكن أن تنتهي مع الرجل العجوز ولكن ليس معه هو وقال « إن ألم السوط لن يهمه ، إنما لا يحب فكرة كونه

خاضعاً للسياط » وبينما كنت أنصحه أن يكون طيباً ومتسامحاً ، لم أكن أشعر بالإشراقة في عيني ، لقد كانت معرفة مواطن الضعف لدي هي التي استحثتني أن أحتجز ـ لو كان ذلك ممكناً ـ بعض اشراقات الطبيعة التي حباها الله لأخي . إنني لم أعش أربع عشرة سنة من العبودية لقاء لا شيء . لقد شعرت ورأيت وسمعت بما فيه الكفاية لأقرأ الأخلاق وأعرف بواعث أولئك الذين هم من حولي ... لقد بدأت حرب حياتي ، ومع أني كنت إحدى مخلوقات الله الضعيفة إلا أنني صممت على ألا أهزم ... ولكن واأسفاه

لو كان هناك بقعة مشرقة لي فانني أعتقد أنها في قلب « بنيامين » وفي قلب شاب آخر أحببته بكل حرارة الحب الأول للفتاة ، وقد عرف سيدي بذلك وحاول بكل ما يملك أن يحولني إلى بائسة ، ولم يلجأ إلى العقاب البدني بل إلى كافة الأساليب الظالمة الحقيرة التي استطاعت النفس البشرية أن تستنبطها

أذكر المرة الأولى التي عوقبت فيها ، كان ذلك في شهر شباط ، حيث استبدلت جدتي بحذائي القديم حذاء جديداً ، وقد احتجت إليه لأن الثلج قد ارتفع عدة بوصات ومازال يندف ، وعندما مشيت إلى غرفة السيدة « فلنت » أحدث حذائي الجديد صوت قرقعة أزعج أعصابها المصقولة فاستدعتني إليها وسألت عن سبب ذلك الصوت المزعج ، فأخبرتها أنه الحذاء الجديد ، فقالت : « اخلعيه وإذا لبسته مرة أخرى سألقي به في النار . » .

وخلعته وكذلك الجوارب ثم أرسلتني في مهمة إلى مسافة طويلة وعندما مشيت على الثلج شعرت بوخز الثلج على قدمي العاريتين ،

وفي تلك الليلة أصبت ببحة شديدة وذهبت إلى فراشي وأنا واثقة بأني ساغدو مريضة في الصباح التالي أو ربما ميتة ولكن ما أحزنني أني عندما استيقظت وجدت نفسي معافاة تماماً

وتصورت أني لو مت أو اضطجعت لبعض الوقت ، فان سيدتي ستشعر بالألم لأنها كرهت جداً « تلك العفريتة الصغيرة » كما كانت تلقبني وقد كان جهلي بتلك السيدة هو الذي جعلني ألجأ إلى أمثال هذه التخيلات المتهورة .

وأحياناً كان يُدفع للدكتور « فلنت » أثمانٌ عالية من أجلي إلا أنه كان دائماً يقول : « إنها لا تخصني لأنها ملك لابنتي وليس لي حق بيعها » ... رجل طيب وشهم . وكانت سيدتي ما تزال طفلة ولم أكن أتطلع إلى أية حماية من جانبها ، لقد أحببتها وبادلتني هي المودة ، وسمعت والدها يلمح إلى تعلقها بي ، وأجابته زوجته على الفور أن ذلك كان منبعثاً من الخوف وهذا ما جعلني أشك بحزن : هل تتظاهر الطفلة بما لا تشعر به ؟ ؟ أم أن والدتها كانت تغار من نعمة الحب التي منحتني إياها تلك الطفلة ، واستنتجت أنه الأمر الأخير مؤكدة أن الأطفال الصغار صادقون .

وفي ظهر أحد الأيام جلست للخياطة وأنا أشعر بضيق في نفسي غير عادي ... إن سيدتي تتهمني بجرم مع أني أكدت لها بأني بريئة منه تماماً ، ولكني رأيت ومن خلال ملامح الازدراء على وجهها أنها تعتقد بأني كاذبة ، وتساءلت لأي سبب وجيه كان الله يدفعني للسير في هذه الطريق الشائكة ، وما سيكون عليه مصيري في الأيام القادمة ... وعندما جلست أفكر بهذا فتح الباب بنعومة ودخل «وليام» فبادرته قائلة :

« حسناً يا أخي ما المسألة هذه المرة ؟ » أجابني : « آه ياليندا إن « بنيامين » وسيده مر بهما وقت رهيب » . وقد تبادر إلى ذهني أن « بنيامين » قد قتل فقال وليام : « لا تفزعي ياليندا فسوف أخبرك بكل شيء ... » .

بدا أن سيد « بنيامين » قد بعث في طلبه وهو لم يطع على الفور وعندما فعل كان سيده غاضباً وأخذ يجلده بالسوط وقاوم وتشاجر السيد مع عبده وأخيراً سقط السيد وهذا ما سبب الارتجاف « لبنيامين » لأنه طرح سيده أرضاً وهو واحد من أغنى الرجال في البلدة .. وانتظرت بقلق النتيجة .

وفي تلك الليلة تسللت إلى بيت جدتي كما تسلل أيضاً « بنيامين » وكانت جدتي قد ذهبت لقضاء يوم أو يومين عند صديقة لها تقطن في الريف

قال بنيامين : « لقد أتيت لأقول لك وداعاً ، فأنا راحل ... » وتساءلت : « إلى أين » .. قال : « إلى الشمال » ... ونظرت إليه لأرى ما إذا كان جاداً وتأكدت من تعابيره وثباته وتوسلت إليه ألا يذهب ولكنه لم يكترث لكلماتي وقال إنه لم يعد صبياً وكل يوم نيره أكثر مرارة ... لقد رفع يده على سيده وسوف يجلد علناً لهذا الأذى ، وذكرته بالمصاعب والفقر والمتاعب التي سيجابهها بين الأغراب وقلت له أنه يمكن أن يعتقل ويسترجع وكان ذلك من المفزع حتى التفكير فيه ... واستشاط غضباً ، وتساءل ما إذا كان الفقر والمصاعب مع الحرية ليس أفضل من المعاملة القاسية مع العبودية ، وأضاف : « ليندا إننا كلاب هنا ، كرات قدم ، قطيع .. وكل شيء حقير .. كلا لن أبقى ، دعيهم يعيدوني ، إننا لن نموت إلا مرة واحدة » .

كان على حق ولكن كان من الصعب التخلي عنه ، قلت له اذهب وحطم قلب والدتك » وقد ندمت قبل أن أتلفظ بكلماتي وتحدث كما م أسمعه يتحدث من قبل « كيف تقولين ذلك ؟ مسكينة والدتي كوني رؤوفة بها ياليندا وأنت أيضاً يا ابن العم « فاني » .

كان ابن العم « فاني » صديقاً عاش معنا بضع سنوات ، ثم تبادلنا كلمات الوداع وابتعد عن ناظرينا ، ذلك الولد اللطيف ، الذكي ، العزيز علينا .

ليس من الضروري أن أبين كيف دبر هروبه إنما يكفي القول أنه كان في طريقه إلى نيويورك عندما هبت عاصفة على السفينة ، وقال القبطان أن عليه اللجوء إلى أقرب ميناء مما أثار رعب « بنيامين » الذي كان على علم بأنه سيعلن عنه في كل ميناء قريب من بلدته ، ولاحظ القبطان ارتباكه وعندما ذهبا إلى الميناء وقعت عين القبطان على الاعلان حيث تطابقت أوصاف « بنيامين » عليه تماماً فاعتقله القبطان وقيده بالسلاسل . . . وعندما انتهت العاصفة تابعوا إبحارهم إلى نيويورك وقبل الوصول إلى الميناء رتب « بنيامين » أمر التخلص من السلاسل وألقى بها على ظهر السفينة واستطاع الهرب من السفينة إلا أنه لوحق واعتقل وأعيد إلى سيده .

وعندما عادت جدتي إلى المنزل ووجدت أن طفلها الأصغر قد هرب ، حزنت لذلك حزناً شديداً ولكنها قالت في ورع وتقى : « هذه إرادة الله ... » وقد كانت تسأل في كل صباح ما إذا كانت هناك أخبار عن ولدها ... أجل لقد سمعت الأخبار فقد كان السيد يستمتع برسالة تعلن القبض على ملكه الإنساني المنقول .

وبدا ذلك اليوم كالأمس تماماً ، وها أنذا أتذكر تماماً كيف رأيته في الشارع مكبلاً بالأغلال وهو في طريقه إلى السجن ، كان وجهه شاحباً إلى حدكبير إلا أن قسماته تعبر عن التصميم والإرادة .لقد توسل إلى أحد البحارة أن يذهب إلى منزل والدته ويطلب إليها ألا تقابله كي لا يتأثر ويضعف إذا ما رآها يغمى عليها ... وتاقت جدتي لرؤيته ولكنها زجت نفسها بين الجموع حتى تنسجم مع ما قاله طفلها ... ولم يسمح لنا بزيارته ، ولكننا كنا نعرف السجان لسنوات كان رجلاً طيب القلب ، وقد كان يفتح باب السجن بقرف لندخل أنا وجدتي ، وعندما كنا ندخل الزنزانة لم يكن يخرق السكون أي صوت ، وهمست جدتي : « بنيامين ، بنيامين ... » ولكن لا جواب وتلعثمت مرة أخرى وهي تنادي : « بنيامين » وسمعنا قعقعة السلاسل ، وبزغ القمر للتو فطرح شعاعاً مضطرباً على قضبان النافذة ، وانحنينا وأخذنا بيدي بنيامين الباردتين بين أيدينا دون أن نتكلم بينما سمعت التنهدات وشفتا «بنيامين» انفرجتا لأن والدته كانت تبكي وهي مستندة إلى رقبته ... كم تعيد الذاكرة وبصورة مؤثرة أحداث تلك الليلة الحزينة .

تحادثت الأم وولدها فطلب عفوها لما سببه لها من ألم ومعاناة ، فقالت إنها لا تملك شيئاً للمسامحة ، ولم تستطع لومه في سعيه إلى الحرية ، وأخبرها أنه عندما اعتقل كان على وشك إلقاء نفسه في النهر ، إلا أن تفكيره فيها جعله يكف عن ذلك ، وسألته : « هل مازلت تفكر في الله ؟ » وتخيلت اني رأيت وجهه قد تغير بقسوة في ضوء القمر وأجاب : « كلا لم أفكر فيه فعندما يجري اصطياد الرجل كوحش مفترس فانه ينسى أن هناك إلهاً وجنة وهو ينسى كل شيء في كفاحه من أجل الابتعاد عن كلاب الدم . » .

قالت : « لا تقل هذا يا بنيامين بل ضع ثقتك بالله ، وكن متواضعاً يا طفلي وسوف يسامحك سيدك » ورد « بنيامين » : « يسامحني ؟ على م ذا يا أمي ؟ لعدم تمكنه من معاملتي ككلب ؟ لن أسمح لنفسي أن تذل ثانية ، لقد عملت من أجله طيلة حياتي مقابل لا شيء ، ومع ذلك أقابل بالسياط والسجن ... سوف أمكث هنا حتى أموت أو حتى يبيعني ... » وارتعدت الأم المسكينة لكلماته ، وأظنه شعر بذلك لأن صوته قد هدأ عندما تكلم ثانية قائلاً : « لا تقلقي يا أمي فاني لا أستحق ذلك ، أود لو كانت لي بعض طيبتك ، فانك تتحملين كل شيء بصبر تام وكأنك تفكرين أن ذلك كان صحيحاً ، أود لو استطعت ذلك » .. وأخبرته أنها لم تكن دائماً هكذا ، لقد كانت مثله ولكن عندما أنهكتها المتاعب ولم تجد المعين ولا الرحيم تعلمت أن تناجي الله ، وقد خفف ذلك من أعبائها ... وكنا قد استنفدنا وقتنا وأصبحنا مضطرين لأن نغادر السجن بسرعة .

وبعد أن أمضى « بنيامين » ثلاثة أسابيع في السجن ، ذهبت جدتي لأجل التوسط له مع سيده ولكنه لم يتحرك وأجاب إن « بنيامين » يجب أن يكون عبرة لباقي عبيده ، وأنه ينبغي أن يبقى في السجن حتى يخضع ، أو يباع إذا ما دفع له دولار كثمن له ، وعلى كل حال فقد لان قلبه بعد ذلك فنزعت السلاسل وسمح لنا بزيارته ، وبما أن طعامه كان من نوع رديء ، فقد حملنا له بقدر المستطاع عشاءً ساخناً مع بعض وسائل الترفيه للسجان .

ومضت ثلاثة أشهر ، ولم يكن هناك أمل في اخلاء سبيله ، أو من يشتريه ، وذات يوم سُمِعَ وهو يغني ويضحك ، وبُلِّغ سيده بما أبداه من وقاحة واستهتار ، وأمر المراقب أن يعيد تكبيله بالأغلال ،

وقد احتجز الآن في شقة مع سجناء آخرين ، تغطيهم أسمال قذرة وقد قيد « بنيامين » قربهم وغطي فوراً بالحشرات ، ولكنه استطاع أن يتخلص من السلاسل فبعث بها عبر النافذة مع رجاء أخذها إلى سيده واعلامه أنه كان مغطى بالهوام ... وكانت عقوبة هذه « الوقاحة » سلاسل أقوى وحرماناً من الزيارات .

أما جدتي فقد استمرت في إرسال غيارات من الملابس الداخلية له ، وكانت الملابس القديمة تحرق . وفي الليلة الأخيرة رأيت جدتي في السجن ما تزال تتوسل إليه أن يبعث إلى سيده طالباً العفو ، ولكن لم يثنه الاغراء أو المناقشة عن عزمه ، وأجابها بهدوء : « إنني أنتظر وقته » . وكان لهذه السلاسل وقع حزين في أذني .

ومرت ثلاثة أشهر أخرى ، وغادر « بنيامين » سجنه وانتظرنا لنودعه وداعاً طويلاً ، فقد اشتراه أخيراً تاجر رقيق ، ولعلي أتذكر أي سعر دفع به عندما كان في العاشرة من عمره ، أما الآن وقد جاوز العشرين من عمره فقد بيع بثلاثمائة دولار ... وكانت مصلحة السيد أهم شيء ، وقد حرمه الاحتجاز الطويل من حيويته ، فبدأ شاحباً جداً وشكله نحيلاً وفوق ذلك فلم يعجب التاجر ما سمعه من أخلاقه ، ولم يستسغه بالنسبة لعبد وقال : إنه سوف يعطي أي سعر لو كان الفتى الوسيم فتاة ، وشكرنا الله على أنه لم يكن كذلك .

آه لو رأيت شدة تعلق تلك الأم بطفلها ، عندما ثبتوا الحديد حول رسغه كان من الممكن أن تسمع أنات قلبها ، وترى عينيها المحتقنتين دماً وهي تتحرك بشكل جامح ومن وجه إلى وجه تتوسل عبثاً وهي تطلب الرحمة ، لو استطعت مشاهدة ذلك المشهد كما رأيته لقلت إن العبودية لعنة .

إن « بنيامين » طفلها الأصغر المدلل ذهب إلى الأبد ولم تستطع إدراك ذلك ، وقد حاولت لقاء التاجر عسى أن يكون بامكانها شراء « بنيامين » وأعلمت أن ذلك مستحيل لأن التاجر أعطى تعهداً بعدم بيعه حتى يصبح خارج الولاية وحتى يصل إلى « نيو اورليانز » .

وبذراع قوية ، وثقة لا تتزعزع ، بدأت جدتي عملها بالمحبة ، إن « بنيامين » يجب أن يكون حراً وإذا لم تنجح فهي تعلم حق العلم أنهما سوف يظلان مفترقين ، وهانت التضحية من أجله وعملت ليل ونهار وهي تعلم أن التاجر سوف يضاعف الثمن الذي دفعه بل ويمكن أن يكون ثلاثة أضعاف ومع ذلك لم تيأس .

وأوكلت الأمر إلى أحد المحامين ليتصل بالرجل الذي تعرفه في (اورليانز) وتوسلت إليه أن يبدي الإهتمام في « بنيامين » وقد استجاب طواعية لتوسلاتها ، وعندما رأى « بنيامين » وذكر أمره شكره ولكنه قال إنه يفضل الإنتظار فترة قبل أن يقدم عرضاً للتاجر . لقد عرف أن التاجر حاول أن يحصل على ثمن غال له ولكنه فشل في ذلك تماماً وهذا ما شجعه على بذل مجهود آخر من أجل الحرية .

وذات صباح وقبل أن يطلع النهار افتقد بنيامين ... كان يركب الموجة الزرقاء متوجهاً إلى (بلتيمور) ... إن وجهه الأبيض أدى له خدمة طيبة ، ولم يُشك أبداً أن هذا الوجه يخص عبداً ، وإلا فان القانون سينفذ بحذافيره ويعاد ذلك الشيء إلى العبودية ... والسموات الصافية غالباً ما تغشاها غيوم سوداء ... فقد سقط بنيامين مريضاً ، واضطر إلى البقاء في بلتيمور ثلاثة أسابيع حيث كان شفاؤه بطيئاً ، وأخذت رغبته في متابعة طريقه تعيق شفاءه فكيف يستطيع استعادة

القوة دون هواء وتمارين ؟ وعزم على المجازفة بنزهة قصيرة ، واختار لذلك شارعاً فرعياً حيث ظن نفسه آمناً من مقابلة أي شخص يعرفه ... ولكن صوتاً ناداه : مرحباً « بن » يا ولدي ما الذي تفعله هنا ؟؟ ... وكان أول باعث له أن يهرب ، ولكن رجليه ارتجفتا حتى أنه لم يستطع التحرك ... فاستدار لمجابهة خصمه ونظر فاذا به أمام جار سيده القديم ... لقد ظن أن كل شيء قد انتهى الآن ولكن ثبت العكس ... كان الرجل معجزة ، يمتلك عدداً كبيراً من العبيد ومع ذلك لم يكن أصم تماماً عن تلك الساعة الصوفية التي قليلاً ما تسمع دقاتها في صدر مالك العبيد .

قال الرجل : « يا بن أنت مريض ، بل إنك تبدو كالشبح ، وأظن أنني سببت لك خوفاً في البداية ولكن لابأس عليك يا بن فلن ألمسك فقد عانيت وقتاً صعباً ويمكنك أن تستمر في طريقك لتسعدني وتسعد الآخرين ، ولكنني أنصحك أن تخرج من هذا المكان بسرعة لأن هنالك رجالاً عديدين من بلدتك»ثم بين له أقرب وأسلم طريق إلى نيويورك وأضاف قائلاً : « سيسرني اعلام والدتك أنني رأيتك وداعاً يا بن » واستدار بنيامين وقد امتلاء غبطة وعرفاناً بالجميل ودهش أن البلدة التي كرهها قد احتوت على مثل هذه الجوهرة التي تستحق مكاناً أنقى ... كان هذا الرجل شمالياً منذ الولادة وقد تزوج سيدة جنوبية ، وفي عودته أخبر جدتي بأنه قد رأى ابنها وتحدث عن الخدمة التي أسداها إليه .

ووصل بنيامين إلى نيويورك سالماً وقرر التوقف هناك حتى يستعيد قوته على السفر ، وحدث أن الولد الوحيد لجدتي والباقي لها قد أبحر إلى نفس المدينة في عمل لسيدته ، وبعناية الله تقابل الأخوان وبالتأكيد كان هذا اللقاء سعيداً وقال بنيامين « آه يا فيل إنني هنا أخيراً»وأخبره كيف شارف على الموت مراراً بالقرب من الأرض الحرة وكيف توسل من أجل أن يعيش ليتنفس هواء الحرية ... وقال إن الحياة أصبح لها معنى

الآن وأنه كان من العسير عليه أن يموت في السجن القديم . فلم تكن الحياة لها قيمة لديه ومرة كاد أن ينتحر ولكن شيئاً ما لم يدركه منعه من تحقيق غايته وربما كان ذلك هو الخوف ... وقد سمع أولئك الذين يعترفون بأنهم (دينيون) ومع ذلك كانوا يصرحون بعدم وجود فردوس لقاتلي أنفسهم ، وبما أن حياته قد تجددت وأصبحت أكثر حيوية فهو لا يرغب في الاستمرار كذلك في العالم الآخر وقال « إذا مت الآن فشكراً لله لأني سأموت رجلاً حراً » . وتوسل إلى خالي « فيليب » ألا يعود إلى الجنوب وأن يبقى ويعمل معه حتى يكسبا مالاً يساعدهما في شراء من في المنزل ، وأخبره أخوه أنه إذا هجر أمه وهي على هذه الحال من المتاعب فسوف يكون ذلك سبباً في قتلها ، لقد تعهدت منزلها وبصعوبة جمعت المال لتشتريه ، فهل سيشترى ؟ .

أجاب « كلا أبداً .. هل تفترض يا فيل أنني عندما وصلت إلى هذا الحد متخلصاً من قبضاتهم سوف أعطيهم سنتاً واحداً أحمر ؟ كلا ! وهل تفترض أنني سوف أطرد والدتي خارج منزلها في أواخر أيامها ؟ وأنني سوف أدعها تدفع كل هذه الدولارات التي جمعتها بصعوبة من أجلي ولا تراني أبداً ؟ لأنك تعرف أنها لن تغادر الجنوب طالما بقي أطفالها عبيداً ... أية أم طيبة هذه ... أخبرها أن تشتريك يا فيل .. أنت كنت مصدر تسلية لها أما أنا فكنت مصدر ازعاج . وليندا .. ليندا المسكينة ماذا سيحل بها ؟ فيل إنك لا تعرف أية حياة يعيشونها .. لقد أخبرتني شيئاً عنها .. كم أتمنى لو أن « فلنت » العجوز يموت ... عندما كنت في السجن سألها ما إذا كانت تريده أن يذهب ويطلب لى سيدي أن يسامحني ويعيدني ثانية إلى المنزل إلا أنها قالت له : لا إنني لا أريد أن أعود . فثار وقال « إننا كلنا سواء » إنني احتقره

أضعاف ما احتقر سيدي .. نعم هناك مالكو عبيد أسوأ من سيدي ومع ذلك فلن أكون عبده .

وعندما كان بنيامين مريضاً تخلص تقريباً من كافة ملابسه من أجل دفع المصاريف الضرورية إلا أنه لم يتخلص من دبوس صغير ثبته في صدره عندما فارقناه ... كان أثمن شيء في حوزتي ولم أفكر بأحد يستحقه سواه وهو ما زال يحتفظ به وقد زوده أخوه بملابس وأعطاه ما كان لديه من مال وافترقا والدمع يملأ أعينهما ، ولما استدار بنيامين قال : « فيل إنني ارتحل عن كل عشيرتي » وهكذا كان فانه لم يسمع عنه شيء مرة أخرى ...

وعاد الخال « فيليب » إلى المنزل وكانت أولى الكلمات التي تلفظ بها عند دخوله المنزل هي :«يا والدتي إن بن حر ، لقد رأيته في نيويورك» ووقفت تنظر إليه بحيرة وهو يقول : « يا والدتي ألا تصدقين ذلك ؟ » قالها وهو يضع يده برفق على كتفها فرفعت يديه وقالت : « الشكر لله ، دعنا نشكره » ثم ركعت على ركبتيها تسكب قلبها في صلاة خاشعة ، ثم كان على فيليب أن يجلس ويكرر كل كلمة قالها « بنيامين » أخبرها بكل شيء عنه إلا أنه اقلع عن اعلامها بأن حبيبها كان مريضاً شاحباً ، ولماذا يحزنها وهي لا تستطيع عمل شيء من أجله ؟ ...

وظلت المرأة الشجاعة العجوز تكد على أمل أن تنقذ بعضاً من أطفالها الآخرين.وبعد فترة وجيزة نجحت في شراء فيليب ودفعت لقاء ذلك ثمانمائة دولار وأتى إلى المنزل حاملاً المستند الثمين الذي ضمن حريته وجلست الأم والولد السعيدان معاً قرب الموقد الحجري في تلك الليلة يفخر كل واحد منهم بالآخر وأنهما سوف يعتنيان بنفسيهما كما اعتنيا طويلاً بالآخرين . وانتهينا جميعنا إلى القول : إن من يريد أن يكون عبداً فليكن عبداً .

٥

محاكمة المراهقة

أثناء السنوات الأولى التي قضيتها في خدمة عائلة الدكتور « فلنت » تعودت أن أشترك ببعض التسامح مع أطفال سيدتي ومع ذلك لم يبد لي أكثر من حق إلا أنني كنت شاكرة له . وحاولت أن أكافىء اللطف بالإخلاص في اداء واجباتي . ولكني الآن دخلت في العام الخامس عشر من عمري (وهو عهد حزين في حياة أمة) وبدأ سيدي يهمس في أذني بكلمات فاحشة ، وأنا الصبية لم أستطع أن أظل جاهلة بأهميتها ، وحاولت معالجتها باللا مبالاة تارة أو الازدراء تارة أخرى ... إن عمر سيدي وشبابي المتطرف والخوف من أن ينقل سلوكه إلى جدتي جعله يتحمل هذه المعاملة شهوراً عديدة ، لقد كان رجلاً ماكراً . فلجأ إلى وسائل عديدة لإنجاز أغراضه وفي بعض الأحيان كانت لديه طرق عاصفة مفزعة تجعل ضحاياه يرتجفون ، وأحياناً أخرى كان يلجأ إلى اللطف اعتقاداً منه أنه سيؤدي إلى الخضوع ، إلا أنني فضلت الطريقة العاصفة من بين الطريقتين مع أنها كانت تتركني مرتجفة ، وقد حاول جهده أن يفسد المبادىء النقية التي كانت جدتي قد غرستها ، وملأ دماغي بصور غير نظيفة لا يفكر فيها إلا وحش دنيء .

تحولت عنه باشمئزاز وكراهية ، ولكنه كان سيدي وكنت مضطرة

للعيش معه تحت سقف واحد فأرى رجلاً يكبرني بأربعين سنة ، خارقاً وصايا الطبيعة المقدسة .

أخبرني أنني ملك له وأنني يجب أن أخضع له ولارادته في كافة الأمور ... وثارت روحي على الطغيان الدنيء ولكن أين أذهب ؟ ومن يحميني ؟ .

بغض النظر عن أن تكون الأمة سوداء كالابنوس أو شقراء كسيدتها ، في كلا الحالين ليس هناك أثر لقانون يحميها من الإهانة ومن الاغتصاب بل ومن الموت كل هذه عقوبات ينفذها من يحملون شكل الرجال والسيدة التي ينبغي لها أن تحمي الضحية التي لا نصير لها لا تحمل لها إلا مشاعر الغيرة والغضب .

إن الخزي والإضرار والعيوب والألم الذي تنتج عن العبودية لهي أكثر مما استطيع وصفه إنها أكثر مما يمكن تصديقه وبالتأكيد فانكم لو صدقتم نصف الحقائق التي تصلكم حول ملايين البائسين الذين يعانون هذه العبودية القاسية ، فانكم يا من في الشمال سوف لا تجدون مناصاً عن تشديد النير ، سوف ترفضون حتماً أن تعملوا للسيد فوق أرضكم نفسها العمل الدنيء والقاسي الذي تقوم به كلاب الدم المدربة والدرجة الدنيا من البيض في الجنوب .

في كل مكان تجلب السنون ما فيه الكفاية من الأثم والأسى ، لكن العبودية تسودها هذه الظلال منذ فجر الحياة ، وحتى الطفلة الصغيرة التي اعتادت أن تخدم سيدتها وأطفالها ، سوف تتعلم وقبل أن تصبح في الثانية عشرة لماذا تكره سيدتها هذا النوع من العبيد ، وربما كانت أمها أيضاً من بين هؤلاء المكروهين ... هي تصغي لاندلاع

عاصفة الغيرة العنيفة . ولا تستطيع إلا أن تفهم ما هو السبب ، سوف تصبح وقبل النضج على علم بالأشياء الفاسدة ، وسوف ترتجف فوراً عندما تسمع وقع أقدام سيدها وعندها ستدرك أنها لم تعد طفلة .

إذا كان الله قد حباها جمالاً ، فسوف يبرهن ذلك على لعنة كبرى عليها ، ذلك الحسن الذي يقود إلى الإستحسان في المرأة البيضاء سرعان ما يجلب الخزي على الأمة الأنثى ، وأنا أعرف أن البعض قد عانوا من قسوة العبودية دون أن يشعروا بمهانة وضعهم ، إلا أن الكثير من العبيد يشعرون بذلك وبشكل كبير ويجفلون من تذكره .... لا أستطيع أن أخبركم كم قاسيت بوجود هذه الخطايا ولا كم ظللت تألم نتيجة استعادة الأحداث . كان سيدي يقابلني في كل اتجاه يذكرني بأنني أخصه ، مقسماً بالسماء والأرض أنه سوف يضطرني إلى الخضوع له ، وإذا خرجت لأتنفس هواءً نقياً بعد يوم من العمل المضني فان خطواته تطاردني ، وإذا انحنيت أمام قبر أمي سقط خياله الأسود علي حتى هناك .

إن القلب الخفيف الذي منحتني إياه الطبيعة أصبح مثقلاً بالجوانب الحزينة ، وقد لاحظ العبيد الآخرون الكثير من التغيير في منزل سيدي ، والكثير منهم رثوا لحالي.إلا أن أحدهم لم يجرؤ على استعلام السبب . لم تكن بهم حاجة للسؤال فقد عرفوا الممارسات الخاطئة تحت ذلك السقف وكانوا على علم تماماً بأن الكلام عنها تهمة لا تمضي دون عقوبة .

واشتقت إلى أحدهم أئتمنه على سري ... إني لأعطي العالم مقابل أن أضع رأسي على صدر جدتي المخلصة وأخبرها عن كافة متاعبي ،

ولكن الدكتور « فلنت » أقسم بأن يقتلني إن لم أكن صامتة كالقبر . وبالرغم من أن جدتي كانت كل شيء في حياتي إلا أنني خشيتها وفي نفس الوقت أحببتها ، لقد اعتدت أن أنظر إليها باحترام ممزوج بالخوف ، كنت فتية جداً وشعرت بالخجل حول إعلامها بأشياء غير نقية كهذه وخاصة وأنا أعرف مدى تشددها في مثل هذه المواضيع وفوق ذلك كانت امرأة ذات معنويات عالية . وهادئة جداً في سلوكها ولكنها إذا ما استنفزت لم يكن من السهل تهدئتها ، وقد علمت أنها طاردت رجلاً أبيض بمسدس محشو لأنه شتم إحدى بناتها ... خشيت نتائج الانفجار العنيف ، وقد جعلني الكبرياء والخوف أصمت ومع أني لم أبح بسري لجدتي وبالرغم من تجنبي لمراقبتها اليقظة لي واستفسارها عني إلا أن وجودها في الجوار كان نوعاً من الحماية لي ، ومع أنها كانت أمة إلا أن الدكتور « فلنت » كان يخافها ويفزع من توبيخاتها اللاذعة ، وفوق ذلك فانها كانت معروفة ويناصرها عدد كبير من الناس . ولم يشأ هو أن تفشى نذالته ، ومن حسن حظي أن المزرعة التي أسكن فيها لم تكن نائية وإنما هي في بلدة صغيرة لدرجة أن السكان كانوا يعلمون بأمور بعضهم البعض ، ولكون القوانين والعادات رديئة بين جماعة ملاك العبيد فان الدكتور كرجل مهنة محترف رأى أن من الفطنة الاحتفاظ ببعض مظاهر الحشمة .

واهاً ... أية أيام وليال من الخوف والأسى سببها لي ذلك الرجل ، وأنا لا أهدف إلى استثارة عواطفك نحوي أيها القارىء عندما أخبرك بحقيقة ماعانيته في العبودية ، إنما أفعل ذلك لأضرم لهب الحنو في قلوبكم من أجل شقيقاتي اللواتي مازلن في أسر العبودية يعانين ماعانيته ذات يوم ...

رأيت مرة طفلتين تلعبان معاً . إحداهما كانت طفلة شقراء بيضاء والأخرى كانت أمتها وهي شقيقتها أيضاً . وعندما رأيتهما تتعانقان وسمعت ضحكتيهما المرحتين ، استدرت بحزن عن المنظر الحبيب . لقد تنبأت بالألم الذي سوف يحل في قلب الأمة الصغيرة ، وعلمت أن هذه الضحكة سرعان ما تتحول إلى تنهدات ... وكبرت الطفلة الشقراء لتصبح امرأة جميلة ، فمنذ طفولتها حتى شبابها كانت طرقها مفروشة بالزهور ومكللة بسماء مشمسة ونادراً ما كان يوم من أيام حياتها غائماً ، عندما كانت تشرق الشمس على صباحها الزفافي السعيد .

ولكن ماذا فعلت هذه السنوات بشقيقتها الأمة ، رفيقة لهوها الصغيرة منذ الطفولة . كانت أيضاً جميلة جداً ولكن الأزهار وشروق شمس الحب لم تكن لها ... لقد تجرعت كأس الخطيئة والعار والبؤس التي كان على بني جنسها أن يشربها .

وبالنظر إلى هذه الأشياء ، لماذا تظلون صامتين ، أنتم أيها النساء والرجال الأحرار في الشمال لماذا تتلعثم ألسنتكم في صيانة الحق ؟ هل سبب ذلك أن لدي قدرة أكبر ، ولكن فؤادي ممتلىء ، وقلمي ضعيف جداً ، هناك نساء ورجال نبلاء يدافعون عنا ويكافحون لمساعدة أولئك الذين لا يستطيعون مساعدة أنفسهم ، فبارك الله فيهم ، وأعطاهم القوة والشجاعة للاستمرار في ذلك .

بارك الله فيهم ، هؤلاء الذين يجهدون أنفسهم لقضية الإنسانية .

* * *

٦
السـيدة الغيرى

أتمنى عشرة آلاف مرة أن يكون أطفالي معوزين ونصف جائعين في ايرلندا من أن يكونوا في شبع زائد بين عبيد أمريكا ... أتمنى أن أكدح في حياتي في مزرعة قطن حتى يفتح القبر ليعطيني الراحة من أن أحيا مع سيد لا مبادىء له وسيدة غيرى ... إن بيت المجرم في السجن لهو مفضل عندي لأنه يمكن أن يتوب ويبتعد عن الأخطاء في طريقه وبذلك يجد السلام . ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لعبدة أسيرة غير مسموح لها أن تكون ذات كبرياء . إن ذلك يعتبر جريمة منها أن تصبو إلى أن تكون ذات فضيلة

لقد عرفت السيدة فلنت طبائع زوجها من قبل أن أولد ، وكان بوسعها استخدام هذه المعرفة لعزل وغربلة الأبرياء من بين عبيدها إلا أنها لم تكن تحمل لهم أية عاطفة ، بل كانوا مجرد أدوات لشكها المستمر وحقدها عليهم ، كانت تراقب زوجها بيقظة مستمرة ولكنه كان يعرف تماماً كيف يتجنبها . وما لم يستطع إيجاد فرصة لقوله بالكلمات كان يظهره بالرسائل والاشارات التي تفوق ما يتعلمه العاجز في مأوى الأصم الأبكم ، وتركت ذلك يمر وكأني لم أفهم ماعناه . وكثيرة كانت اللعنات والتهديدات الممنوحة لي على بلادتي .

وذات يوم فاجأني وأنا أعلم نفسي الكتابة ، فعبس ودل ذلك على عدم سروره ، إلا أنني أحسست أنه كان يحبذ ذلك لأنه يساعده على دفع

خطته المحببة ، وقبل مضي وقت كبير غدت الإشارات الكتابية تنزلق إلى يدي وكنت أعيدها إليه قائلة « لا أستطيع قراءتها يا سيدي » وكان يجيب « ألا تستطيعين ، إذاً يجب أن أقرأها لك » وكان دائماً ينهي القراءة بالقول « هل فهمت ؟ » وفي بعض الأحيان كان يشكو من حرارة غرفة الشاي فيأمر بعشائه أن يوضع على طاولة صغيرة في الشرفة ، ثم يجلس وعلى شفتيه ابتسامة الرضى ، ويأكل ببطء متوقفاً بين اللقمة والأخرى ... هذه الفترات كانت تستخدم في شرح السعادة التي كنت أطرحها بعيداً لأنني كما يعتقدني غبية ، وفي تهديدي بالعقوبة التي تنتظر عنادي أخيراً وعدم طاعتي . ويفاخر كثيراً بالصبر الذي تذرع به تجاهي ، وكم ذكرني بأن لصبره حدوداً . وعندما نجحت في تجنب الحديث معه في المنزل ، كان يأمرني بالذهاب إلى المكتبة للقيام ببعض المهام ، وعند ذهابي إلى هناك كنت مضطرة إلى الوقوف والإصغاء للغته التي كان يراها مناسبة لمخاطبتي بها ، وكنت في بعض الأحيان أعلن وبصراحة ازدرائي له حتى يصبح مغتاظاً بشكل عنيف ، وكنت أتعجب لماذا لم يضربني ... في هذه الظروف ربما كان يفكر أن الاحتمال كان أفضل سياسة ولكن حالة الأشياء كانت تسير من سيء إلى أسوأ يومياً ، وفي يأس ذكرت له أنني يجب أن أتصل بجدتي من أجل الحماية ، فهددني بالموت وما هو أسوأ من الموت فيما لو قدمت لها أية شكوى ، ولعل من الغرابة القول بأنني لم أيأس وكنت بالطبع في نشاط وفير ، وكان لدي الأمل دائماً في التخلص من قبضته بأي حال ، ومثل العديد من الفقراء والعبيد البسطاء أمامي ، كنت على ثقة أن بعض خيوط المرح كانت مع ذلك تنسج من خلال مصيري المظلم .

دخلت عامي السادس عشر ، ويوماً بعد يوم ازداد وضوحاً أن وجودي لم يكن مما تحتمله السيدة « فلنت » وكثيراً ما تبادلت الكلمات الغاضبة بينها وبين زوجها ، وهو لم يعاقبني ولم يسمح لأي شخص آخر بمعاقبتي مما جعلها غير راضية أبداً ، ورغم مزاجها الغاضب لم تكن تضفي علي صفات فاحشة ومع ذلك كانت تكرهني بمرارة ، وكنت أشعر بالرثاء لها أكثر مما شعر زوجها فقد كانت مهمته أن يجعل حياتها سعيدة ، وأنا لم أسيء إليها أبداً ، ولا رغبت في الإساءة إليها ، حتى أن كلمة لطيفة من جانبها يمكن أن تجعلني أجثو على قدميها .

وبعد مشاجرات متكررة بين الدكتور وزوجته ، أعلن عن نيته في أخذ ابنته الصغرى التي كانت آنذاك في الرابعة من عمرها لتنام في شقته وكان من الضروري أن تنام معها خادم في الغرفة نفسها لتكون تحت الطلب إذا ما انزعجت الطفلة ... وقد تم اختياري لتلك المهمة ، وفهمت لأي سبب تم هذا الترتيب ، وقد حاولت البقاء أمام أعين الناس بقدر المستطاع أثناء النهار ونجحت في التخلص من سيدي ، ولو أن الموسى ما تزال مشرعة على حلقي لاجباري على تغيير هذا الخط من السياسة ، أما في الليل فقد كنت أنام إلى جانب عمتي الكبيرة حيث كنت أشعر بالأمان ، وكان هو على جانب من الفطنة تمنعه من دخول غرفتها ، فقد كانت امرأة عجوزاً مضى على خدمتها للعائلة سنون عديدة ، وفوق ذلك وبصفته رجلاً متزوجاً ومحترفاً رأى من المناسب أن يتوارى عن الأنظار إلى حد ما ، إلا أنه صمم على إزالة تلك العقبة في طريق خطته ، وحسب أنه خطط لكي يتجنب الشبهة ، وكان يدرك جيداً كم كان لجوئي إلى جانب عمتي العجوز ذا قيمة هامة ، ولكنه صمم على حرماني منه .

وفي الليلة الأولى وضع الدكتور الطفلة الصغيرة في غرفته وحدها ، وأمرني في الصباح التالي أن آخذ مكاني كممرضة في الليلة التالية ، إلا أن العناية الإلهية كانت إلى جـــانبي حيث سمعت السيدة « فلنت » بهذا الترتيب الجديد ، وتبع ذلك عاصفة ابتهجتُ لسماع تأججها .

وبعد قليل أرسلت سيدتي في طلبي إلى غرفتها ، وكان أول سؤال لها :

ـ هل عرفت أنك ستنامين في غرفة الدكتور ؟

ـ نعم يا سيدتي .

ـ من أخبرك ؟

ـ سيدي .

ـ هل تجيبين صدقاً عن كل الأسئلة التي أوجهها لك ؟

ـ نعم يا سيدتي .

ـ أخبريني إذاً كي أسامحك ، هل أنت بريئة مما اتهمتك به ؟

ـ نعم .... ثم ناولتني الكتاب المقدس وقالت :

ـ ضعي يدك على قلبك ، وقبلي هذا الكتاب المقدس ، وأقسمي أمام الإله أنك تقولين الحق .

وأقسمت اليمين التي طلبتها وفعلت ذلك بضمير نقي فقالت :

ـ لقد أخذت كلمة الله لتؤكدي براءتك ، وإذا كنت قد خدعتني فاحذري . والآن خذي هذا الكرسي واجلسي عليه وانظري إلى وجهي مباشرة ، واخبريني كل ما دار بينك وبين سيدك ... وفعلت ذلك كما أمرت ، وعندما كنت مستمرة في سردي امتقع لونها مراراً وبكت

وفي بعض الأحيان أنّت ... لقد تحدثت بلهجة حزينة جداً ، حتى أنني تأثرت لحزنها وانهمرت الدموع من عيني ، ولكنني اقتنعت فوراً أن عواطفها نتجت عن الغضب والكبرياء الجريحة ، وشعرت أن زواجها قد دنس ، وأن كرامتها قد أهينت ولكن لم تكن لديها رحمة للضحية المسكينة لزوجها الخائن . رثت لنفسها كشهيدة ، ولكنها لم تكن قادرة على الشعور بحال العار والبؤس اللذين كللا أمتها اليائسة .

ومع ذلك فربما كانت لديها لمسة شعور نحوي ، فبعد انتهاء الاجتماع تحدثت بلطف ووعدت بحمايتي ، وكان من الممكن أن أرتاح لهذا التأكيد لو كان لدي ثقة به ، ولكن تجاربي في العبودية جعلت مني فتاة عديمة الثقة بالغير ، فلم تكن سيدتي امرأة صافية جداً ، ولم يكن لها سيطرة كبيرة على عواطفها ، فقد كنت مصدر غيرتها وبالتالي كراهيتها وعرفت أنني لم أك لأتوقع لطفاً أو ثقة من جانبها تحت الظروف التي وضعت فيها ... لم أستطع لومها فان زوجات مالكي العبيد كالنساء الأخريات تحت نفس الظروف التي وضعت فيها . وإن نار مزاجها التهبت جراء شرارات صغيرة ، والآن أصبح اللهب كثيفاً حتى أن الدكتور اضطر للتخلي عن ترتيبه المقصود .

أعرف أني أشعلت الفتيل ، وتوقعت أن أعاني بسبب ذلك فيما بعد ، ولكني شعرت أيضاً بالشكر لسيدتي للمساعدة المؤقتة التي قدمتها لي . لقد أخذتني الآن للنوم في غرفة ملحقة بها ونلت هناك شيئاً من عنايتها الخاصة ، ولو أنه ليس من راحتها الخاصة لأنها كانت تقضي معظم الليالي مستيقظة متنبهة لي ... وفي بعض الأحيان كنت أستيقظ لأجدها منحنية علي ، ومرات أخرى كانت تهمس في أذني كما لو أن زوجها

هو الذي يتحدث إلي ، وكانت تصغي لما يمكن أن أجيب ، وإذا ما أفزعتني في مناسبات كهذه ، كانت تنسل خلسة وفي الصباح التالي تخبرني أنني كنت أتحدث أثناء نومي ، وتسألني إلى من كنت أتحدث ، وأخيراً بدأت أخشى على حياتي ، كنت غالباً مهددة .. وتستطيع أن تتخيل أفضل مما أصف أي حس كئيب تشعر به عندما تستيقظ في سكون الليل لتجد امرأة غيرى منحنية فوقك ، والفزع من تجربة كهذه كان يخلق لدي المخاوف من فزع آخر .

وبرمت سيدتي بمراقبتها لأن هذه المراقبات لم تثبت جدواها ، فغيرت أسلوبها وحاولت اتهام سيدي بالجريمة أثناء حضوري ، وأعطت اسمي كمؤلفة للاتهام ، ولدهشتي المطلقة فقد أجاب ، « أنا لا أصدق هذا ، ولكن إذا اعترفت به فقد تكونين قد عذبتها لكي تكشفني » عذبت لكشفه ؟ في الحق إن الشيطان لا يجد صعوبة في تمييز لون روحه ، وقد فهمت غرضه من اعطاء هذا البيان الكاذب ، لقد كان الهدف إفهامي أنني لن أكسب شيئاً من تلمس حماية سيدتي ، وأن القوة كلها ما تزال في يديه ... رثيت للسيدة « فلنت » فقد كانت زوجة ثانية تصغر زوجها بسنين كثيرة ، وكان يكفي هذا الوغد الأشيب الشعر امرأة صابرة أحكم وأفضل ... لقد هزمت تماماً ولم تعد تعرف كيف تتصرف ، لقد كان من دواعي سرورها أن أجلد بسبب يميني المفترضة أنها كاذبة ، ولكن كما ذكرت لم يسمح الدكتور لأي شخص أن يجلدني .

إن الخاطىء العجوز كان « لبقاً » بحيث يعلم أن تطبيق الجلد كان يمكن أن يؤدي إلى ملاحظات قد تكشفه في أعين أطفاله وأحفاده ،

وكم كنت سعيدة لأني أسكن في بلدة يعرف كافة السكان بعضهم بعضاً ، فلو كنت في مزرعة نائية أو ضعت بين جماهير مدينة حاشدة، لما كنت على قيد الحياة حتى الآن .

إن أسرار العبودية مكتومة تماماً مثل أسرار محكمة التفتيش ، وأنا على علم بأن سيدي كان والداً لأحد عشر عبداً . ولكن هل جرؤت الأمهات على البوح بمن يكون والد أطفالهن ؟ هل جرؤ العبيد الآخرون على التلميح بذلك سوى بالهمس فيما بينهم ؟ في الحق كلا ، فهم يعرفون تماماً العواقب الرهيبة .

لم تستطع جدتي تجنب رؤية الأشياء التي أثارت شبهاتها ، وكانت قلقة حولي وحاولت شرائي بشتى الطرق ، ولكن الجواب الذي لا يتغير يكرر دائماً : « ليندا لا تخصني ، إنها ملك ابنتي ، وأنا ليس لي حق قانوني في بيعها» . يا للرجل صاحب الضمير الحي ، فقد كان كثير الشكوك لدرجة أنه لم يبعني ، وإن لم تك له شكوك حول ارتكاب أفظع فاحشة مع فتاة يائسة وضعت تحت حراسته كملك لابنته ، وفي بعض الأحيان كان الذي يضطهدني يتساءل ما إذا كنت أود أن أباع ، وأخبرته أنني أفضل أن أباع لأي شخص على أن أعيش الحياة التي أحياها ، وفي مناسبات كهذه كان يتصنع هيئة الشخص المجروح ويعنفني بسبب نكراني للجميل قائلاً : « ألم آخذك إلى المنزل ، وأجعلك رفيقة أطفالي بالذات ؟ هل عاملتك كزنجية طيلة حياتي ؟ إنني لم أسمح أبداً أن تعاقبي ولو إرضاءً لسيدتك ، وهذا هو الجزاء الذي أحصل عليه منك ؟ أيتها الفتاة ناكرة الجميل ، وكنت أجيب بأن لديه أسبابه الخاصة من أجل منع العقوبة عني وأن الطريق التي اتبعها جعلت سيدتي تكرهني وتضطهدني ،

وإذا ما بكيت كان يقول لي : « أيتها الطفلة المسكينة لاتبك ، لا تبك سوف أصالحك مع سيدتك ، فقط دعيني أرتب الأمور بطريقتي الخاصة ، يا أيتها الطفلة المسكينة والغبية ، إنك لا تعرفين ما هو صالحك ، سوف أرفع من شأنك وأجعل منك سيدة . اذهبي الآن وفكري فيما أعدك به » .

أيها القارىء : إنني لا أرسم صوراً خيالية عن البيوت الجنوبية ، بل أقص عليك الحقيقة بسيطة ، ومع ذلك فعندما يهرب الضحايا من وحش العبودية المخيف فان الشماليين يقبلون بتمثيل دور كلاب الدم فيصطادون الهارب المسكين ليعيدوه إلى وكره المليء بعظام الموتى وكل ما هو غير نظيف . . كلا بل أكثر إنهم ليسوا فقط راغبين ، بل فخورين باعطاء بناتهم زوجات لمالكي العبيد وللفتيات المسكينات تصورات خيالية حول الطقس المشمس والكرمة المزهرة التي تظلل البيت السعيد طيلة العام ... لأي خيبة يقودهن المصير ؟ فالزوجة الشابة سرعان ما تدرك أن زوجها الذي وضعت سعادتها بين يديه لا يكترث بنذور زواجه وأن الأطفال من كل درجة من ألوان البشرة يلعبون مع أطفالها الشقر ، كما تدرك تماماً أنهم كلهم ولدوا بقربه ومن أهل بيته وتدخل الغيرة والكراهية المنزل المزهر ، فيفقد جماله وأناقته .

إن المرأة الجنوبية تتزوج من رجل وهي على علم بأنه والد العديد من أطفال العبيد ، وهي لا تجشم نفسها مؤونة البحث حول ذلك ، لأنها تعتبر هؤلاء الأطفال ممتلكات يجري تسويقهم كما تُسَوق الخنازير في المزرعة ، نادراً ما يعلم العبيد بذلك عن طريق تسليمهم إلى أيدي

مالكي العبيد بأقرب ما يمكن وهكذا تبعدهم عن بصرها ، وإنني مسرورة بالقول أن هناك بعض الاستثناءات .

وقد عرفت بنفسي زوجتين جنوبيتين نصحتا زوجيهما باعتاق العبيد الذين تربطهم بهم علاقة أبوية وتم قبول طلبهما . . . فهؤلاء الأزواج يخجلون أمام النبل الكبير المتمثل في طبيعة زوجاتهم ومع أن ذلك كان من واجبهم إلا أن زوجاتهن اللواتي أشرن عليهم بفعل ذلك واستوجب احترامهن ، وصار سلوكهن مثلاً يحتذى ، وحل الكتمان حتى النهاية وحلت الثقة مكان عدم الثقة .

ومع أن هذا القانون الرديء يقتل الشعور الطيب عند الإنسان ، ويشل من معنوياته إلى حد مفزع حتى عند النساء البيضاوات ، إلا أنه ليس بمجمله متميزاً ... لقد سمعت بسيدات جنوبيات يتحدثن عن السيد فلان : إنه لا يعتبر عيباً أن يكون والد هؤلاء الزنوج الصغار وهو لا يشعر بالخجل من نفسه بدعوة نفسه سيداً لهم ، إنني أصرح أن مثل هذه الأشياء ينبغي عدم احتمالها في أي مجتمع محتشم .

* * *

٧

الحب

لماذا يحب العبد ؟ ولماذا يسمح لشغاف قلبه أن تدور حول أشياء يمكن في أية لحظة أن تنتزع بيد العنف ، وعندما يتم الانفصال على يد الموت فان الروح النقية تستطيع أن تنحني باذعان وتقول : « يا إلهي هذه ليست ارادتي بل ارادتك النافذة » ولكن عندما تضرب يد الإنسان بقسوة بغض النظر عن البؤس الذي تسببه ، فمن الصعب الخضوع .

لم أبرر هذا الأمر عندما كنت صبية في مقتبل العمر ، فالشباب شباب .. لقد أحببت وانغمست في أمل بأن الغيوم السوداء سوف تتحول إلى بطانة لامعة ، نسيت أنه في أرض ميلادي تكون الظلال أكثف من أن يخترقها النور . . هذه الأرض :

حيث الضحك ليس مرحاً ولا التفكير عقلاً
ولا الكلمات لغة ولا حتى الرجال من بني البشر
حيث الصرخات تجيب اللعنات والصيحات تجيب الضربات
وكل يتعذب في جهنمه المنفصلة ...

كان هناك في الجوار شاب ملون يعمل نجاراً رجل وُلِدَ حراً ... لقد تعرفنا إليه منذ الطفولة وتكررت مقابلاتي معه ، وأصبح كلانا متعلقاً بالآخر ، واقترح الزواج بي .. لقد أحببته بحماسة الحب الأول

للفتاة في مقتبل العمر ولكن عندما فكرت في كوني أمة وأن القوانين لا تمنح موافقة لمثل هذا الزواج غاص قلبي بين ضلوعي .. لقد أراد حبيبي أن يشتريني ولكني كنت أعرف أن الدكتور « فلنت » كان رجلاً عنيداً ، مستبداً ، لن يرضى بذلك الترتيب ، وكنت متأكدة من تجاربي معه أن لديه شتى أنواع المعارضة ، ولا أملك أي أمل من جانب سيدتي فلقد تكون مسرورة بالتخلص مني ولكن ليس بتلك الطريقة ... كنت سأجلب لها الراحة إذا ما رأتني أباع إلى بعض الولايات النائية ، ولكن إذا ما تزوجت قرب البيت فعندئذ سأكون تحت سلطة زوجها كما كنت في السابق لأن زوج الأمة ليس لديه سلطة لحمايتها ، وفوق ذلك فان سيدتي كمثل الكثيرات بدت تفكر في أن الإماء ليس لهن الحق في أية رابطة عائلية ، وأنهن يعملن فقط لخدمة عائلة السيدة . وسمعتها مرة تشتم أمة صبية ذكرت لها أن رجلاً ملوناً يريد جعلها زوجة له ، وقالت لها :«سوف أسلخ جلدك وأجعلك كبيساً إذا سمعتك تذكرين هذا الموضوع ثانية ، هل تحسبين أنني سوف أجعلك تخدمين أطفالي مع مع أطفال ذلك الزنجي ؟ » ولقد أنجبت تلك الفتاة بعد ذلك طفلة ، وبالطبع لم يعترف بها أبوها ولكن الرجل الأسود المسكين الذي أحبها كان سيكون فخوراً بذريته اليائسة .

لقد دارت في رأسي أفكار كثيرة وقلقة ، كنت ضائعة ولا أعرف ماذا أصنع وفوق كل شيء كنت أرغب في تجنيب حبيبي الإهانات التي تسربت وبعمق إلى نفسي ، وتحدثت إلى جدتي حول ذلك وأعلمتها بجزء من مخاوفي ، ولم أجرؤ على إعلامها بما هو أدهى ، كانت تشك ولمدة طويلة أن كل شيء لم يكن على ما يرام وإذا ما أكدت شكوكها فانني أعرف أن عاصفة سوف تنشب مما يبرهن على انهيار كافة آمالي .

كان الحب حلماً كبيراً لي ومصدر تأييد خلال التجارب العديدة ، ولم أستطع تحمل مخاطرة تبدده فجأة. كانت هناك سيدة في الجوار ، صديقة خاصة لعائلة الدكتور « فلنت » كانت تتردد على منزله ، وأنا أكن لها احتراماً كبيراً ، كانت دائماً تظهر اهتماماً ودياً بي ، ظنت جدتي أن هذه السيدة لها نفوذ كبير على الدكتور فذهبت إليها وقصت عليها قصتي وأخبرتها بأنني على علم بأن كون حبيبي رجلاً ولد حراً سوف يثير اعتراضاً كبيراً ، ولكنه أراد أن يشتريني ، وإذا ما قبل الدكتور « فلنت » ذلك الإجراء فانني متأكدة من أنه سوف يدفع أي ثمن معقول ، وعرفت هي أن السيدة « فلنت » كانت تكرهني لذلك تجرأت على الاقتراح أنه ربما كانت سيدتي ستوافق على بيعي لأن ذلك سوف يخلصها مني ، وأضغت السيدة بعاطفة نبيلة ووعدت بأن تفعل ما في وسعها من أجل تحقيق رغباتي ، وكان لها لقاء مع الدكتور وأعتقد أنها دافعت عن قضيتي بجد ولكن كل ذلك لم يؤد إلى نتيجة .

كيف أفزعت سيدي الآن ؟ كل دقيقة كنت أتوقع أن يستدعيني أمامه ، ولكن النهار مر ولم أسمع منه أي شيء ، وفي الصباح التالي تسلمت دعوة تقول : « السيد يريدك في مكتبه » .

وجدت الباب مفتوحاً جزئياً ، ووقفت لحظة محملقة في الرجل الكريه الذي ادعى حقاً في السيطرة علي جسماً وروحاً ... دخلت وحاولت أن أبدو هادئة ... لم أكن أود أن يعرف كم كان قلبي ينزف ، ثم نظر إلى بامعان ، وبتعبير كأنه يريد أن يقول لي : « يحدثني عقلي بأن أقتلك فوراً » وأخيراً خرق السكون وكان ذلك مصدر ارتياح لكلينا وقال : « تريدين أن تتزوجي أليس كذلك ومن زنجي حر ؟ » .

– نعم يا سيدي .

– حسناً سوف اقنعك فوراً ما إذا كنت أنا سيدك أم الشخص الزنجي الذي تنظرين إليه بقداسة إن كان لك زوج لا بد أن يكون ذلك واحداً من عبيدي » .

أية حالة سأكون فيها كزوجة لأحد عبيده ، حتى ولو كان قلبي راغباً ، وأجبته :

– ألا تفترض يا سيدي أن الأمة يمكن أن يكون لها بعض الاختيار حول الزواج ؟ هل تفترض أن كافة الرجال سواء بالنسبة لها » .

وقال فجأة : « هل تحبين هذا الزنجي ؟ » .

– « نعم يا سيدي » وتساءل بغضب شديد : « كيف تجرؤين على اخباري بذلك ؟ » ثم أردف بعد توقف قصير : « افترضت أنك فكرت أكثر حول نفسك ، وأنك شعرت باهانة لهؤلاء الجراء ... » وأجبته : « إذا كان جرواً فانني جروة مثله ، إذ أننا كلينا من عرق زنجي وإنه لحق لنا وشرف أن يحب أحدنا الآخر . إن الرجل الذي تدعوه جرواً لم يهني أبداً يا سيدي، ولم يكن ليحبني لو أنه لم يعتقد بأنني أمرأة فاضلة » .

إلا أنه قفز علي كالنمر ووجه إلي صفعة قوية ... لقد كانت المرة الأولى التي يضربني فيها ، ولم يمكنني الخوف من ضبط أعصابي وعندما بدأت أصحو من تأثيرها قلت : « إنك ضربتني لأنني أجبتك بالصدق .. كم احتقرك » .

وساد الصمت لبضع دقائق ... ربما كان يفكر بما يجب أن تكون

عليه عقوبتي ، أو ربما أراد أن يعطيني الوقت لمراجعة ما قلت ولمن قلته ، وأخيراً سألني : « هل تعرفين ما قلت ؟ » .

– « نعم يا سيدي ، ولكن معاملتك هي التي دفعتني لذلك » .

– هل تعرفين أن لي الحق في أن أفعل بك ما أشاء ؟ وأنني أستطيع أن أقتلك إذا أردت ؟ » .

– لقد حاولت قتلي ، وأتمنى لو أنك فعلت ذلك ، ولكن ليس لك الحق في أن تفعل بي ما تريد .. وقال وفي صوت كالرعد : « اصمتي ، يا للسماء أيتها الفتاة ، لقد نسيت نفسك وذهبت بعيداً جداً فهل أنت مجنونة ؟ لو كنت كذلك فلسوف أعيدك فوراً إلى صوابك ، هل تحسبين أي سيد آخر يتحمل ما تحملته منك هذا الصباح ؟ العديد من الأسياد كان يمكن أن يقتلوك للتو ، هل ترغبين أن أبعث بك إلى السجن لقاء وقاحتك ؟ » .

– أعرف أني كنت قليلة الاحترام يا سيدي ؟ ولكنك دفعتني إلى ذلك فلم أستطع أن أتحمل . أما فيما يتعلق بالسجن فسيكون هناك أمن لي أكثر مما هو موجود هنا » .

– إنك تستحقين الذهاب لى هناك ، وأن تكوني تحت معاملة كهذه ، وحتى تنسي معنى كلمة أمن ،سينفعك ذلك ، وسوف أجردك من بعض نزواتك العالية ، ولكنني غير مستعد لأن أبعث بك إلى هناك بعد ، رغم نكرانك لجميل لطفي وصبري ، لقد كنت وباء على حياتي ، أردت أن أجعلك سعيدة ولكنك رددت بأحط نكران للجميل ، ولكن مع أنك أثبت عدم جدارتك بلطفي وإحساني إلا أنني سأكون ليناً تجاهك

يا ليندا ، وسوف أعطيك فرصة أخرى لتحسين أخلاقك وإذا كنت حسنة السلوك وعملت حسب رغبتي ، فلسوف أسامحك وأعاملك كما كنت أفعل دائماً ، ولكن إذا ما عصيتني فسوف أعاقبك كما أعاقب أقذر عبد في مزرعتي ، لا تدعيني أسمع اسم ذلك الشخص أبداً ، وإذا ما سمعته أو عرفت أنك تحدثت إليه فلسوف أجلدكما معاً ، وإذا أمسكت به متسللاً حول منزلي فسوف أطلق عليه النار كما أفعل مع كلب ، هل تسمعين ما أقول ؟ سوف أعلمك درساً حول الزواج والعبيد الأحرار . اذهبي الآن ودعي حديثي هذا يكون للمرة الأخيرة حول هذا الموضوع » .

أيها القارىء : هل كرهت في حياتك أبداً ؟ أرجو أن لا تكون قد فعلت ذلك ، إنني لم أكره سوى مرة واحدة ، وأنا على ثقة بأني لن أفعل ذلك مرة أخرى ... بعضهم سماه « جو جهنم » وأنا أعتقد أنه كذلك .

لم يتحدث إلي الدكتور لمدة أسبوعين ، وظن أنه يميت جسدي ليجعلني أشعر بأني حقرت نفسي عندما استمعت إلى كلام نبيل من رجل ملون محترم.ولم أنصت إلى المقترحات السافلة من رجل أبيض ، ولكن مع أن شفتيه تأنفتان من مخاطبتي ، إلا أن عينيه كانتا تثرثران . حتى الحيوان لم يكن يراقب فريسته كما كان هو يراقبني ، لقد عرف أني أستطيع الكتابة مع أنه فشل في جعلي أقرأ رسائله ، وكان مضطرباً لئلا أتبادل الرسائل مع رجل آخر ، وبعد فترة طال عليه الصمت وانزعج وأسفتُ لذلك .

وذات صباح وبينما كنت أمر من خلال القاعة أبغي مغادرة البيت ، احتال كي يدس ورقة في يدي ، وفكرت أنه يجدر بي قراءتها كيلا

يغضب إذا ما جعلته يقرأها لي ، عبرتْ عن الأسف للضربة التي وجهها لي وذكرتني بأني الملومة على ذلك ، ثم أعرب عن أمله بأني اقتنعت بالإيذاء الذي كنت أوجهه لنفسي بالتعرض ... لقد كتب في تلك الورقة أنه يفكر في الذهاب إلى « لويزيانا » وأنه سيأخذ عدداً من العبيد معه ، وصمم على أن أكون واحدة منهم ، وستبقى سيدتي حيث هي ولذلك فليس هناك ما يخشى من هذه الناحية ، وقد أكد لي أنني إذا ما كنت جديرة بلطفه فان ذلك اللطف سيكون دون حدود ... ورجاني أن أفكر في المسألة وأجيب في اليوم التالي » .

وفي الصباح التالي ، دعيت لأحمل زوجاً من المقصات إلى غرفته ، وضعتهما على الطاولة والرسالة إلى جانبهما ، ظن أن ذلك جوابي ولم يستدعني . وذهبت كالعادة لأرافق سيدتي في ذهابها وعودتها من المدرسة .

وقابلني في الشارع وأمرني بالتوقف عند مكتبه في طريق عودتي ، وعندما دخلت عرض أمامي رسالته وسألني لماذا لم أجب عليها ؟ وأجبته : « إنني ملك لابنتك وأن بامكانك إرسالي أو أخذي حيثما تشاء » .

أعرب عن سروره لرغبتي في الذهاب وأننا ينبغي أن ننطلق مبكرين في الخريف ، وان له عيادة كبيرة في البلدة ، وظننت أنه ربما لفق هذه القصة لمجرد أن يفزعني ، وعلى كل حال فقد صممت على عدم السفر إلى لويزيانا معه .

وانتهى الصيف ، وفي أوائل الخريف أرسل الابن الأكبر للدكتور « فلنت » إلى لويزيانا لتفحص المنطقة تمهيداً للهجرة ، لم تكن هذه الأنباء لتزعجني ، فقد عرفت جيداً أنني يجب ألا أرسل معه لأنني لم أرسل إلى المزرعة قبل ذلك الوقت بسبب وجود ابنه هناك .. فقد كان

الدكتور غيوراً من ابنه وغيوراً من المراقب ، ودفعه ذلك إلى منعه من معاقبتي بارسالي إلى الحقول للعمل .

أمن الغرابة أني لم أكن فخورة بتلك الحماية ؟ أما فيما يتعلق بالمراقب فانه رجل أكن له احتراماً أقل مما أكنه لكلب الدم .

لم يجلب السيد « فلنت » الابن معه تقريراً مريحاً عن لويزيانا وأنا لم أسمع شيئاً حول تلك الخطة ... وبعد هذا وفي الحال قابلني حبيبي في زاوية الشارع ، وتوقفت لأتحدث إليه ، وتلفت حولي فرأيت سيدي يراقبني من نافذته ، فأسرعت إلى البيت ارتعد خوفاً ثم أرسل في طلبي على الفور إلى غرفته وقابلني بصفعة قائلاً : « متى ستتزوج السيدة ؟ » قالها بلهجة ساخرة .. وتبع ذلك زخة من اللعنات والشتائم ، وكم شكرت الله لأن حبيبي كان رجلاً حراً وأن ظالمي لم تكن له سلطة جلده لأنه تحدث إلي في الشارع .

ومرة بعد أخرى استعرضت في ذهني كيف سينتهي كل ذلك .. لم يكن هناك أمل في أن يقبل الدكتور ببيعي بأي شرط .. لقد كانت له إرادة حديدية ، وكان مصمماً على الاحتفاظ بي واخضاعي ، وكان حبيبي رجلاً ذكياً وتقياً ، حتى لو استطاع أن يحصل على أذن بالزواج مني وأنا أمة فان الزواج لن يعطيه سلطة لحمايتي من سيدي بل ذلك سيجعله بائساً من سماع الشتائم التي كنت عرضة لها ، وإذا كان له أطفال فان أطفاله يجب أن يتبعوا حال أمهم .

أي جرح أليم كان يمكن أن يحل بقلب الأب الذكي الحر ، ولأجله شعرت أنه يجب ألا أربط مصيره بمصيري التعس .. وكان هو سيذهب إلى « سافاناه » ليلاحق ملكاً صغيراً ورثه عن عمه ومع ان ذلك سيؤذي

مشاعري إلا أنني توسلت إليه بجد ألا يعود ونصحته بالسفر إلى الولايات الحرة حيث لا يلجم لسانه وحيث يستخدم ذكاءه بشكل أفضل .

وغادرني وهو لا يزال يأمل في أن يأتي اليوم الذي يستطيع فيه شرائي . . أما في داخلي فان مصباح الأمل قد انطفأ وأن حلم المراهقة قد تلاشى وشعرت بالوحدة والعزلة .

لم أكن مجردة من كل شيء ، كان لا يزال هناك جدتي وأخي المحبوب ، عندما كان يضع ذراعيه حول عنقي ناظراً إلى عيني كأنما يريد أن يقرأ فيهما المتاعب التي لم أجرؤ على الإفصاح عنها ، وشعرت أني ما زال لدي شيء ما من الحب ... ولكن حتى تلك العاطفة العذبة قد بردت عندما فكرت أنه ربما ينتزع مني في أية لحظة عن طريق نزوة من نزوات سيدي ، ولو عرف كم نحب بعضنا بعضاً أعتقد أنه سوف يسره التفريق بيننا ، وغالباً ما خططنا معاً كيف نستطيع الذهاب إلى الشمال ، ولكن وكما لاحظ « وليام » أن هناك أشياء من السهل قولها أكثر من فعلها .

كنت مراقبة تماماً عن كثب في جميع تحركاتي ، وليس لدينا وسائل للحصول على المال لسد نفقاتنا ، أما فيما يتعلق بجدتي فقد كانت تعارض بشدة تعهد أطفالها بأي مشروع كهذا .. فهي لم تنس معاناة « بنيامين » المسكين ، وكانت تخشى أنه إذا ما حاول طفل آخر الهرب فسيكون مصيره مماثلاً بل واسوأ .

أما بالنسبة لي لم يكن هناك شيء أكثر رهبة من حياتي تلك ، وقلت لنفسي : « يجب أن يتحرر « وليام » يجب أن يذهب إلى الشمال ، وأنا سوف أتبعه ، وهناك كثير من الاخوات الإماء اللواتي خططن لنفس الهدف .

٨

كيف يجري تعليم العبيد حول التفكير عن الشمال

يفخر مالكو العبيد بكونهم رجالاً نبلاء ، ولكن لو قدر لك أن تسمع الأكاذيب الكثيرة التي يقصونها على عبيدهم ، لقل احترامك لصدقهم . « لقد تحدثت بلغة انكليزية بسيطة وأرجو العفو لأنني لا أستطيع استخدام أسلوب أرقى » ... عندما زاروا الشمال وعادوا إلى البلاد أخبروا عبيدهم عن الهاربين الذين شاهدوهم ، واصفين أوضاعهم المزرية ، لقد أخبرني أحد مالكي العبيد مرة أنه رأى صديقة لي هاربة في نيويورك ، وأنها توسلت إليه أن يعيدها إلى سيدتها لأنها كانت تتضور جوعاً بكل ما في الكلمة من معنى ولم يكن لديها سوى البطاطا الباردة للأكل ولعدة أيام ، وفي أوقات أخرى لم تستطع الحصول على أي شيء وقال إنه رفض أن يأخذها لأنه عرف أن سيدها لن يشكره على إعادة مثل هذه البائسة المتشردة إلى منزله ، وانتهى إلى القول لي : هذا هو العقاب الذي جنت به على نفسها بهربها من سيد لطيف .

هذه القصة بكاملها كانت مختلقة ، لانني مكثت مع هذه الصديقة بعد ذلك في نيويورك ووجدتها في أحسن حال وهي لم تفكر أبداً في شيء اسمه رغبتها في العودة إلى العبودية .

إن العديد من العبيد يعتقدون أن هذه القصص حقيقية ويفكرون

أنه ليس من الحكمة استبدال العبودية بنوع مماثل من هذه الحرية القاسية ... إن من الصعب اغراءهم أن الحرية يمكن أن تجعل منهم رجالاً نافعين وتمكنهم من حماية زوجاتهم وأطفالهم ، فاذا كان لهؤلاء الوثنيين في أرضنا المسيحية تعاليم تتشابه مع تلك التي للهندوس ، فانهم سيفكرون بطريقة أخرى ولكانوا عرفوا بأن الحرية أثمن من الحياة ولكانوا بدأوا يتفهمون قدراتهم الخاصة ، ولأجهدوا أنفسهم لكي يصبحوا رجالاً ونساءً بحق ... ولكن إذا كانت الولايات الحرة تساند القوانين التي تجبر الهاربين على العودة إلى العبودية فكيف يستطيع العبيد أن يصمموا على أن يصبحوا رجالاً ؟ هناك البعض ممن يكافحون لحماية زوجاتهم وبناتهم من إهانات أسيادهم ، ولكن أولئك الذين لديهم مشاعر كهذه لهم مميزات فوق المجموع العام للعبيد ، فقد أصبحوا متحضرين بشكل جزئي ومتنصرين بظروف مواتية ، وهناك البعض ممن لديهم الجرأة الكافية على إظهار مثل هذه المشاعر إلى أسيادهم .. آه لو كان الكثير منهم هناك .

وبعض المخلوقات المسكينة ، سلطت عليها قسوة السياط ، حتى أنهم ينسحبون من الطريق ليسمحوا لأسيادهم بالدخول الحر على زوجاتهم وبناتهم ، فهل تعتقد أن هذا يثبت أن الرجل الأسود يمت إلى صف أدنى من البشرية ؟ وما ستكون عليه إذا ما ولدت ونشأت عبداً مع أجيال من العبيد انحدروا عن الأسلاف ؟ أعترف أن الرجل الأسود هو الأدنى ولكن ما الذي يجعله كذلك ؟ إنه الجهل الذي أجبره عليه الرجل الأبيض . إنه السوط القاسي الذي يستخرج الرجولة منه .. إنها كلاب الدم

العنيفة في الجنوب ونادراً ما تكون أقل قسوة من كلاب الدم الإنسانية في الشمال الذين يطبقون قانون العبد الآبق (*) إنهم يقومون بالعمل .

وقد انغمس السادة الجنوبيون في أقذر التعابير عن اليانكيين (أبناء الشمال) بينما يقبل الشماليون في تنفيذ أحقر الأعمال لهم مثل كلاب الدم الشرسين وصيادي العبيد المحتقرين ، الذين يستخدمون للعمل في المنزل ، وعندما يتوجه الجنوبيون إلى الشمال فانهم يفخرون بأن يحوزوا على الشرف ، ولكن الرجل الشمالي لا يرحب به في جنوب « ماسون » وخط « ديكسون » (**) مالم يخمد كل فكرة وشعور في

(*) – قانون العبد الآبق ، الذي سن في أيلول من عام ١٨٥٠ جعل من السهل اعتقال واستعباد بشكل قانوني أي رجل أسود أو امرأة سوداء . ما على الرجل الأبيض إلا أن يظهر أمام مفوض في الولا يات المتحدة انتخب خصيصاً لذلك ويقسم على امتلا ك شخص أسود ، ويلتمس استصدار شهادة بتوقيفه . والمفوض يتلقى مالا أكثره (عشرة دولا رات) من أجل اصدار مثل هذه الشهادة وأقله (خمسة دولا رات) في حالة الرفض . والعبد المدعى به لم يكن يسمح له بالشهادة ولا إذا ما ادعى بأنه رجل حر ولم يكن يحق له المثول أمام المحلفين وإذا ما دعي المواطنون ، عليهم مساعدة مديري شرطة الولا يات المتحدة في تنفيذ التوقيف . وكل من يؤوي أو ينقذ هارباً يخضع للغرامة والسجن ويلاحق بتهمة التحريب . إن قانون العبد الآبق جلب عهداً من اصطياد واختطاف العبيد من الشمال ، مما أجبر مئات العبيد الذين هربوا قبل عام ١٨٥٠ على الهروب إلى كندا . لقد بلور الآراء وساعد على وضع مرحلة الحرب الأهلية .

– إن معدة التحقيق « ليندا يرنت » (ل. ماريا شايلد) كتبت كراسة بعنوان (واجب عصيان قانون العبد الآبق) والتي نشرت من قبل جمعية مكافحة العبودية الأمريكية في بوسطن عام ١٨٦٠ (وولتر قار) .

(**) أكملت بعد أربع سنين من العمل من قبل مساحين انكليزيين من القرن الثامن عشر وهما « شارلز ماسون ويرميا ديكسون » أنشأت هي خطاً شكل الحد الجنوبي لبنسلفانيا والحد الشمالي من « ديلا وير ماريلا ند » وقسماً من فرجينيا ، ويعرف الآن بغرب فرجينيا . في الفترة ما قبل الحرب الأهلية ، وحدد خط ماسون – ديكسون التجزئة بين ولا يات العبيد والأرض الحرة . (و.ت) .

اختلافه مع (أعرافهم الغريبة) ولا يكفي أن يبقى صامتاً فالأسياد لا يرضون ما لم يتلقوا درجة من الخضوع أكبر من ذلك ، وهم دائماً على العموم متكيفون . فهل يحترمون الشمالي من أجل هذا ؟ لا أعتقد ذلك ، وحتى العبيد فهم يحتقرون الرجل الشمالي بمبادئه الجنوبية ، وهذا هو الصنف الذي يرونه عموماً وعندما يذهب الشماليون للإقامة في الجنوب ، يثبتون أنهم أساتذة ، فهم يمتصون مشاعر وأحاسيس جيرانهم فوراً ، وعموماً يتجاوزون أساتذتهم ولذلك وكما هو معروف نجدهم السادة الأشد قسوة بين الفئتين .

ويبدون وكأنما يرضون ضمائرهم بمبدأ : إن الله خلق الافريقيين ليكونوا عبيداً ... أي طعن على الرب السماوي الذي جعل كافة الأمم من الرجال والنساء من دم واحد ، ومن ثم فمن هم الافريقيون ؟ ومن يستطيع أن يقيس مقدار الدم الانكلوسكسوني الذي يجري في عروق الأمريكين العبيد ؟

لقد تحدثت عن المعاناة التي يتحملها مالكو العبيد ، لاعطاء عبيدهم فكرة سيئة عن الشمال ولكن مع ذلك وبرغم ذلك فان العبيد الأذكياء يدركون أن لهم أصدقاء عديدين في الولايات الحرة وحتى الجاهلون لهم بعض التصورات المرتبكة حول ذلك . هم يعرفون أني استطيع القراءة ، وقد طلب إلي مراراً تعريفهم ما إذا كنت قد قرأت شيئاً في الصحف حول القوم البيض في الشمال الكبير الذين كانوا يحاولون الحصول على الحرية لهم . البعض يعتقد أن الالغاءات قد سبق وجعلتهم أحراراً وإن ذلك معترف به في القانون ، ولكن أسيادهم يمنعون القانون من أخذ مجراه وقد توسلت امرأة إلي أن أجلب هذه الصحيفة وأقرأها

لها .. قالت إن زوجها أعلمها أن القوم السود قد أرسلوا كلمة إلى ملكة أمريكا أنهم كلهم عبيد وأنها لم تصدق ذلك ، وأنهم ذهبوا إلى مدينة واشنطن لرؤية الرئيس حول ذلك ، وتشاجروا ورفعت سيفها عليهم وأقسمت على مساعدتهم لجعلهم كلهم أحراراً .

تلك المرأة المسكينة الجاهلة ظنت أن أمريكا كانت تحكمها ملكة خضع لها الرئيس ولكم وددت لو أن الرئيس خضع لملكة العدل .

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

٩

رسوم تخطيطية لمالكي العبيد المجاورين

كان هناك مزارع في البلاد ولم يكن بعيداً عنا سوف ادعوه السيد « ليتش » كان سيء المنبت وغير متعلم ، إلا أنه غني جداً ، وكان لديه ستمائة عبد حتى أنه لم يشاهد الكثير منهم ... وقد رتبت مزرعته الواسعة من قبل مراقبين يتقاضون رواتب جيدة ، وعلى أرضه كان هنالك سجن ومركز للجلد ، والقسوة التي كانت ترتكب هناك كانت تمر دون تعليق . وكان ينظر إليه بشكل مؤثر نتيجة ثروته الكبيرة لدرجة أنه لم تجر محاسبته على جرائمه حتى ولو كانت القتل .

أما العقوبات التي يلجأ إليها فهي متعددة ، كان من بينها أن يربط حبلاً حول جسد الرجل يرفعه عن الأرض ثم كانت توقد النار فوقه وتتدلى منها قطعة من دهن الخنزير . وعندما تطبخ كانت قطرات الدهن الحارة السائلة تسقط بصورة مستمرة على جسده العاري . وفي مزرعته تطلب طاعة عمياء حتى الوصية الثامنة . ولكن السلب والنهب من الجوار كان أمراً مسموحاً به شريطة أن يتجنب المجرم الكشف والشبهة ، وإذا ما ساق جار تهمة السرقة ضد أي من عبيده ، أرهب بالعبوس والصياح من قبل السيد الذي يؤكد له أن عبيده لديهم الكفاية من كل شيء في المنزل ولا مجال لدفعهم إلى السرقة . وحالما يذهب الجار يبحث عن المتهم ويجلده بسبب عدم حرصه ، وإذا ما سرق عبد منه حتى

رطل لحم أو مكيال قمح ، واكتشف بعدها فانه يوضع بالسلاسل ويسجن حتى يهزل جسمه من الجوع والمعاناة .

ومرة عندما جاء الطوفان وحمل الخمرة الموجودة في القبو ومركز اللحوم بعيداً عن مزرعته بعدة أميال ، وهرع بعض العبيد حيث أمنوا قطعاً من اللحم وزجاجات من الخمرة ، وكشف اثنان منهم حيث وجد في كوخيهما لحم خنزير وبعض المشروب ، لم تستخدم معهما أية كلمة إلا أن هراوة طرحتهما أرضاً وصندوقاً خشناً كان تابوتهما ، ودفنا كما تدفن الكلاب ولم يجر قول أي شيء .

والقتل كان شائعاً جداً في مزرعته ، حتى أنه خشي أن يكون وحيداً بعد هبوط الظلام ، لربما كان يعتقد بالأشباح ، وحتى أخوه وإن لم يكن يساويه ثراء إلا أنه على الأقل كان يساويه قسوة ، لقد كانت كلاب الدم لديه مدربة تماماً ، وكانت حظيرتها واسعة ومصدر رعب للعبيد . وعندما مات مالك العبيد هذا قيل إن صرخاته وأناته قبل موته كانت مفزعة حتى لأخص أصدقائه . لقد كانت آخر كلماته « أنا ذاهب إلى الجحيم فادفنوا مالي معي » .

وبعد موته ظلت عيناه مفتوحتين ، ومن أجل إطباق الجفون نثرت الدولارات الفضية عليها وهذه الدولارات دفنت معه ومن هذه الحالة انتشرت شائعة في الخارج أن التابوت كان مملوءاً بالمال ، وقد فتح قبره ثلاث مرات واستخرج التابوت ، وآخر مرة وجدت جثته على الأرض وسرب من الجوارح ينقرها ، ودفن مرة أخرى ونصب حارس على قبره ولم يكتشف المرتكبون أبداً .

والقسوة معدية في الطوائف غير المتحضرة ، فالسيد « كوننغ » جار السيد « ليتش » عاد من البلدة ذات مساء في حالة يرثى لها من السكر ، ووجه إليه خادمه بعض اللوم ، فجرد من ثيابه خلا القميص وجلد ، ثم ربط إلى شجرة كبيرة أمام المنزل ، وكانت ليلة شتاء عاصفة ، فهبت الريح شديدة البرودة ، وطقطقت أغصان الشجرة العجوز تحت وطأة الصقيع ، وتوسل عضو من العائلة أن يفك أسره خشية أن يتجمد ومن ثم يموت ، ولكن السيد لم يلن ، وبقي هناك ثلاث ساعات ، وعندما أنزل كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ... وعبد آخر سرق خنزيراً من سيده لسد جوعه ، فجلد بصورة وحشية ، وفي يأسه حاول الهرب ولكن في النهاية وبعد مسيرة ميلين كان مغمى عليه لفقر الدم ، وظن أنه يموت ، وكان له زوجة أحب أن يراها مرة ثانية ، ولكنه كان عاجزاً عن المشي مما جعله ينسل عائداً تلك المسافة الطويلة على يديه وركبتيه ، وعندما وصل بيت سيده كان الظلام قد حل ولم تكن لديه القوة على النهوض وفتح البوابة ، فراح يئن وحاول أن يصرخ في طلب النجدة ، وكانت هناك صديقة لي تقيم مع العائلة نفسها وعندما وصل صراخه إلى أذنيها خرجت لتجد الرجل المتعب على البوابة فهرعت عائدة إلى البيت للمساعدة ، وعاد معها رجلان حملاه إلى الداخل وطرحاه أرضاً فظهرت على قميصه كتلة واحدة من الدم وتمكنت صديقتي بواسطة الشحم أن تنتزع القميص عن جلده الطري ثم عصبته وأعطته مشروباً بارداً وتركته ليستريح ، وقال السيد أنه يستحق مائة جلدة أخرى ، فعندما سرق منه عمله حاول أن يسرق ليسد جوعه وتلك كانت جريمته .

وكانت السيدة « وادي » جارة أخرى لنا ، ولها نفس التصرفات ،

فلم تكن عمليات الجلد في منزلها تتوقف في أية ساعة من ساعات النهار ، وكان عمالها يبدأون مع الفجر ولا يتوقفون حتى بعد حلول الظلام وكان مركز الحبوب مكانها الخاص للتعذيب ، هنالك تجلد العبيد بقوة رجل وقد قالت لي إحدى إمائها وكانت عجوزاً : « إن جهنم في بيت السيدة ، وربما لا أستطيع أن أخرج منها فأنا أصلي ليل نهار لكي أموت » .

وماتت السيدة قبل تلك المرأة العجوز ، وعندما كانت في النزع الأخير ، توسلت إلى زوجها ألا يسمح لأي من عبيدها بالنظر إليها بعد الموت ، وفي المنزل كانت هنالك أمة قد خدمت أطفالها ولا يزال هنالك طفل موضع عنايتها ، وحاولت أن تجرب حظها فتسللت على ذراعيها إلى داخل الغرفة حيث كانت ترقد جثة سيدتها وحملقت فيها برهة ثم رفعت يدها ووجهت إليها صفعتين على وجهها وقالت « لقد تولاك الشيطان الآن » ونسيت أن الطفلة الصغيرة كانت تنظر إلى ذلك المشهد وكانت حديثة النطق ، فقالت لوالدها : « لقد رأيت ماما وماما ضربت ماما هكذا » وضربت وجهها بيدها الصغيرة ، وفزع السيد من ذلك ولم يستطع أن يتصور كيف استطاعت المربية أن تدلف إلى الغرفة حيث كانت الجثة مسجاة ، لأنه أقفل الباب وسألها فاعترفت بأن ما قالته الطفلة صحيح ، وذكرت كيف دبرت المفتاح ثم بيعت بعد ذلك إلى ولاية جورجيا .

وفي طفولتي عرفت أمة ممتازة تدعى شاريتي (احسان) فقد أحببتها كما أحبها جميع الأطفال ، تزوجت سيدتها الشابة وأخذتها معها إلى لويزيانا ، ثم بيع ابنها الصغير « جيمس » إلى سيد طيب سرعان ما كثرت ديونه فباع « جيمس » مرة أخرى إلى مالك عبيد غني ومعروف بقسوته ، وعند ذلك الرجل كبر جيمس إلى أن أصبح رجلاً ، وإن

كان يعامل معاملة الكلب ، وعندما لم يستطع تحمل الجلد ، لجأ إلى الغابات ليحمي نفسه من تلك العقوبة ، فأصبح في بؤس شديد ، يستر جسمه جلد البقر ويعيش شبه عار يتضور جوعاً ، ودون وسيلة يشتري بها كسرة من الخبز ... وقد ألقي القبض عليه بعد هربه بأسابيع قليلة ، فربط وأعيد إلى مزرعة سيده ... وقد اعتبر السيد عقوبة ذلك العبد شيئاً لطيفاً فلم يكن ايداعه السجن على الخبز والماء وبعد تلقي مئات السياط لكافية لتهمة ذلك العبد المسكين ولذلك قرر المراقب بعد أن جلده بشكل حاز على رضى السيد ، قرر أن يحشره بين براغي عجلة القطن ليمكث هناك بقدر ما مكث في الغابات ، وقد أدت شدة السياط إلى كثرة الجروح في جسد ذلك المخلوق التعس من رأسه حتى قدميه ، وخوفاً من إصابته بالغرغرينا وجعله يبرأ قبل أوانه فقد غسل بماء شديد الملوحة ، ثم وضع في محلجة القطن التي شدت براغيها بحيث تترك له مسافة ليستدير إلى جنبه عندما لا يستطيع الاضطجاع على ظهره ، وفي كل صباح كان يأتي إليه عبد يحمل كسرة من الخبز ووعاء من الماء كانا يوضعان في متناول الشخص المسكين ، وقد حذر العبد وتحت طائلة العقوبة الشديدة أن يتحدث إليه .

ومرت أربعة أيام واستمر العبد في حمل الخبز والماء وفي الصباح التالي وجد الخبز قد نفذ بينما لم يلمس الماء ... لقد مكث في المكبس أربعة أيام وخمس ليال وبعد ذلك أخبر العبد سيده أن الماء لم يستعمل لأربعة أيام في الصبح وأن رائحة نتنة كريهة كانت تنبعث من بيت الحلج . وأرسل المراقب لتفحص البيت وعندما فكت العصارة وجدت الجثة الميتة وقد التهمت من قبل الجرذان والهوام ربما كانت الحياة منقرضة .. مسكينة « شاريتي » فقد كنت وجدتي غالباً ما نتساءل كيف

سيتحمل قلبها الرقيق ذلك الخبر فيما لو سمعت بجريمة قتل ابنها ... عرفنا زوجها وعرفنا أن جيمس كان مثله في الرجولة والذكاء .. تلك الصفات التي جعلت من الصعب عليه أن يصبح عبداً في مزرعة .

ثم وضعوه في صندوق خشن ودفنوه بلطف أقل مما يمكن اظهاره لكلب بيت عجوز ، ولم يثر أحد أي سؤال فقدكان عبداً. ومن المعروف أن للسيد الحق في أن يفعل ما يشاء بممتلكاته ، ولماذا يهتم بقيمة ذلك العبد ؟ إن لديه المئات من العبيد ، وعندما ينتهون من عملهم وكدهم اليومي عليهم أن يسرعوا لكي يأكلوا لقمة العيش الصغيرة ويستعدوا لإطفاء عقدهم الصنوبرية قبل الساعة التاسعة ، وهو الوقت الذي يبدأ المراقب تفقدهم فيه ، فقد كان يدخل إلى كل كوخ ليتأكد أن الرجال ذهبوا للنوم مع زوجاتهم ولم يناموا في زاوية المدخنة من شدة إرهاقهم بالعمل ويبقون هناك حتى يدعوهم بوق الصباح إلى واجباتهم اليومية ، ولم يكن هناك أي اعتبار للنساء مالم يزدن من مواشي سيدهن . إنهن يوضعن على قدم المساواة مع الحيوانات . هذا السيد نفسه أطلق النار على امرأة فأصابها في رأسها ، فهربت ولكنها أعيدت إليه ولم يستدعه أحد لتقديم الحساب وإذا ما قاوم عبد تحت وقع السياط ، فعندئذ يطلق كلاب الدم ويوضعون فوقه لينتزعوا لحمه عن عظمه ، لقد فعل ذلك سيد مثقف بشكل كبير ، بدا كرجل أنيق جداً ، وكان يفاخر باسمه ووضعه المسيحي ، ولا أظن أن هناك رجلاً تبع الشيطان بصدق مثله .

نعم بإمكاني أن أخبر عن مالكين للعبيد أكثر من هؤلاء متشابهين من حيث القسوة لهؤلاء الضعفاء إنهم ليسوا استثناء من الحكم العام ... إنني لا أنفي وجود مالكي عبيد انسانيين لأن مثل هذه الشخصيات

موجودة على الرغم من المؤثرات القاسية المحيطة بهم ولكنهم قلائل مثل زيارات الملائكة بعيدة وقليلة ... ومن بين هذه النماذج النادرة سيدة شابة . كانت يتيمة وقد ورثت من العبيد أمة وأطفالها الستة ، وكان أبوهم رجلاً حراً ، وكان لهم بيت مريح خاص بهم يضم الوالدين والأطفال معاً . وقد خدمت الأم وابنتها الكبرى سيدتهم أثناء النهار ؛ أما في الليل فقد كانتا تعودان إلى مسكنهما الموجود في المبنى نفسه .

وكانت السيدة الشابة تقية وفي دينها بعض الحقيقة ، وقد علمت عبيدها أن يحيوا حياة نقية ، ورغبت لهم أن يتمتعوا بثمرات صناعتهم نفسها . ولم يكن دينها زياً يرتدى من أجل يوم الأحد ويطرح بعد ذلك حتى الأحد التالي . وقد وعدت الابنة الكبرى للأم الأمة بالزواج من رجل حر . وقبل الزواج بيوم قامت هذه السيدة الطيبة فاعتقتها لكي يصبح زواجها جائزاً بموجب القانون ... وقد ذكر تقرير أن هذه السيدة الشابة قد تعلقت بحب رجل صمم على الزواج منها من أجل الثراء، وخلال ذلك الوقت مات عم غني لها تاركاً ستة آلاف دولارٍ لولديه من امرأة ملونة وباقي الممتلكات لابنة أخيه اليتيمة هذه .

وعلى الفور اجتذب المغناطيس المعدن ، بحيث أصبحت السيدة ومحفظتها ذات الوزن ملكه ، وقد عرضت على عبيدها تعتقهم معلنة بأن زواجها يمكن أن يحدث تغييرات غير متوقعة في مصيرهم وأرادت أن تؤمن سعادتهم ، إلا أنهم رفضوا نوال حريتهم قائلين أنها كانت دائماً أحسن صديقة لهم ، ولا يمكن أن يكونوا في أي مكان بمثل هذه السعادة التي يتمتعون بها معها . لم أصب بالدهشة فطالما رأيتهم في منزلهم المريح ، وحسبت أن البلدة بكاملها لم تحوِ عائلة أسعد منهم ، فهم لم يشعروا بالعبودية قط ، ولكن عندما فات الآوان اقتنعوا بحقيقتها .

وعندما طالب السيد الجديد بهذه العائلة كملك له ، ثار الأب وذهب إلى سيدته للحماية ، ولكن السيدة قالت له : « لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً الآن يا هاري . لأنه لم تعد لي صلاحية كنت أتمتع بها منذ أسبوع ، لقد أفلحت في الحصول على حرية زوجك ، ولكنني لا أستطيع أن أحصل عليها لأطفالك » ... وأقسم الأب ألا يدع أحداً يأخذ أطفاله منه وأخفاهم في الغابات لبضعة أيام ولكن سرعان ما اكتشفوا وأعيدوا إلى البيت،أما أبوهم فقد وضع في السجن بينمابيع الولدان الكبيران إلى جورجيا ، وأما الفتاة الصغيرة فقد كانت أصغر من أن تكون ذات خدمة لسيدها ، فبقيت مع أمها البائسة ، والأطفال الثلاثة الباقون ، نقلوا إلى مزرعة سيدهم ، ثم أصبحت الكبيرة أماً ، وعندما نظرت زوجة مالك العبيد إلى الطفل ، بكت بحرارة ، فقد علمت أن زوجها نفسه قد خرق النقاء الذي غرسته في الذهن دائماً ، وكان لتلك الأم طفلة أخرى من سيدها ولكنه باعها وذريتها إلى أخيه ، فحملت بطفلين من الأخ وبيعت مرة أخرى ، أما شقيقتها الثانية فقد جنت لأن الحياة التي أجبرت عليها قادتها إلى الجنون والأخت الثالثة أصبحت أماً لخمس بنات ، وقد ماتت السيدة التقية قبل الولادة الرابعة ولكنها وحتى النهاية ما برحت تقدم لعبيدها المعاملة الطيبة بما كانت تسمح به ظروفها التعسة . ماتت بسلام سعيدة بأن تغمض عينيها على حياة جعلت تعيسة جداً على يد الرجل الذي أحبته .

وقد بدد هذا الرجل الثروة التي تلقاها ، وحاول أن يحسن أموره بزواج آخر ، ولكنه وجد جثة هامدة على فراشه في صباح أحد الأيام ، بعد ليلة انغماس في السكر ، ومع ذلك فقد دعي بالسيد الطيب لأنه كان يغذي عبيده ويكسوهم أفضل من معظم الأسياد ، ولم يسمع للسوط صوت في المزرعة كما هو الحال في مزارع الآخرين ، ولو لم يكن الأمر متعلقاً بالعبودية ، لكان أفضل رجل وزوجته أسعد امرأة .

لا أظن أن هناك قلماً يمكن أن يصف بدقة الفساد الشامل والمستشري نتيجة العبودية.إن الفتاة الأمة تُدفع إلى جو من الفسق والخوف . إن السوط والكلام الفاحش من سيدها وأولاده هما أول ما تتعلمه ، وعندما تصبح في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة فان مالكها أو أولاده أو المراقب أو ربما كلهم يبدأون برشوتها بالهدايا ، وإذا ما فشلت هذه في إنجاز مرامهم فانها تجلد أو تترك جائعة حتى تخضع لمشيئتهم ، ويمكن أن تكون لها مبادىء دينية تلقتها من أمها أوجدتها التقية أو من سيدة طيبة ، ويمكن أن يكون لها حبيب يستطيع برأيه الصائب وذهنه السليم أن يشدها إلى قلبه ، أو أن الرجال المتهتكين الذين لهم سلطة عليها تكنّ لهم كراهية وبغضاء في نفسها ولكن المقاومة عديمة الجدوى :

الدودة المسكينة سوف تثبت أن نقاشها عقيم

ويوم الحياة القصير ، سوف ينقضي كما تنقضي هي .

أما أبناء مالك العبيد فهم بالطبع فاسدون منذ حداثة سنهم ، وذلك بالنفوذ القذر على من حولهم وفي كل مكان ، حتى بنات السيد لا يستطعن الافلات منهم ، وفي بعض الأحيان تحل بأحدهم عقوبات صارمة نتيجة الاثام التي ارتكبها مع بنات العبيد ، أما البنات البيض فقد سبق لهن وسمعن والديهن يتشاجران حول أمة أنثى ، فاستثير فضولهن وعرفن السبب فوراً ، لأنه يتم العناية بهن من قبل إماء أفسدهن والدهن ويسمعن أحاديث يجب ألا تصل إلى آذان الفتيات ولا أي آذان أخرى ، وهن على علم أن الإماء النسوة يخضعن لسلطة والدهن في كافة الأمور ، وفي بعض الحالات فانهن يمارسن نفس السلطة على الرجال العبيد ، لقد رأيت بنفسي سيد بيت حنى رأسه عاراً لأنه عرف في الجوار أن ابنته قد اختارت واحداً من أحط العبيد في مزرعته ليكون والد أول حفيد له .

وهي لم تتقدم إلى من هو مساوٍ لها ولا حتى إلى خدم أبيها الأكثر ذكاءً : لقد اختارت أحط انسان يمكن أن تمارس عليه سلطتها دون أي خوف من افتضاح أمرها أما أبوها والذي استشاط غضباً فقد راح ينتقم لنفسه باتهام الرجل الأسود ولكن ابنته كانت متنبأة بالعاصفة التي سوف تقع ، فأعطته أوراقاً حرة وبعثت به إلى خارج الولاية .

وفي مثل هذه الأحوال ، فان الرضيع يُخنق أو يرسل إلى حيث لا يراه أحد ممن يعرفون تاريخه ، ولكن إذا كان الأب هو الأبيض بدلاً من الأم فان الذرية تساق إلى السوق بلا خجل ، وإذا كن بنات فسيعرفن ببساطة ما سيكون مصيرهن المحتوم ، ويمكن أن تعتقد بما أقول لأنني أكتب ما أعرف .

كنت في الحادية والعشرين في ذلك القفص الداعر للطيور ، أستطيع أن أشهد من خبرتي وملاحظاتي الخاصة ، أن العبودية هي لعنة للبيض والسود على السواء ، إنها تجعل الآباء البيض قاسين ، شهوانيين والأبناء عنيفين خليعين ، وهي تلوث البنات ، وتجعل الزوجات بائسات، أما فيما يتعلق بالعرق الملون فان ذلك يتطلب قلماً سيالاً وقادراً أكثر مني على شرح تطرف معاناتهم وعمق انحطاطهم .

ومع ذلك فان القليلين من مالكي العبيد يبدون عارفين بالانحلال الخلقي الذي يسببه النظام اللعين.إن حديثهم هو عن آفة محصول القطن وليس عن آفة أرواح أطفالهم ، وإذا أردت أن تقتنع تماماً برداءة العبودية ، فما عليك إلا أن تذهب إلى مزرعة جنوبية . وأن تسمي نفسك تاجر رقيق ، وعند ذلك سوف يستبين الخفاء ، وترى وتسمع أشياء تبدو لك مستحيلة بين بني البشر الذين لهم أرواح خالدة .

* * *

١٠

فترة خطرة في حيـــاة أمـــة

وبعد أن ذهب حبيبي ، استنبط الدكتور « فلنت » خطة جديدة ، بدأ يظن على أن خوفي من سيدتي كان عقبته الكبرى ، وبلهجة رقيقة جداً أخبرني أنه سوف يبني لي داراً صغيرة في مكان منعزل يبعد عن البلدة أربعة أميال ، وارتعدت فرائصي لذلك ولكنني كنت مجبرة على الإصغاء ، بينما تحدث هو عن نيته في منحي بيتاً خاصاً بي ، وأن يجعل مني سيدة ، وحتى اليوم تخلصت من مصيري المفزع لأنني كنت وسط الناس ، وقد سبق لجدتي أن تجادلت وبشدة مع سيدي بشأني ، لقد أخبرته ببساطة وبلطف عن أفكارها حول أخلاقه ، وأنه كثرت الأقاويل بين الجوار حول قضايانا ، ساهمت فيها السيدة « فلنت » بلسانها السليط بشكل كبير ، وعندما أخبرني سيدي بعزمه على بناء دار لي دون عناء منه أو مصروف كنت آمل أن يحدث شيء ما لعرقلة خطته ، ولكنني سمعت حالاً أن الدار قد بدىء ببنائها بالفعل ، ونذرت أمام خالقي ألا أدخلها أبداً ، وكان أولى لي أن أكد في المزرعة من الفجر حتى الغسق وأن أعيش وأموت في السجن من أن أستمر يوماً بعد يوم في موت حي ، وصممت ألا ينجح سيدي الذي أكن له كراهية كبيرة بل وأشمئز منه ، والذي دمر طموحات شبابي ، وجعل حياتي صحراء قاحلة . ألا ينجح بعد كفاحي الطويل ضده في سحقي تحت قدميه . إنني لأفعل أي شيء وكل شيء من أجل إلحاق الهزيمة به . وماذا

باستطاعتي أن أفعل ؟ فكرت .. وفكرت حتى أصبحت يائسة وغرقت في الهاوية .

والآن يا قارئي ، واجهت فترة تعيسة من عمري وكم سأكون سعيدة لو استطعت نسيانها ، وتذكرها يُملأ قلبي بالأسى والعار . إنه ليؤلمني أن أقص عليك ذلك ، ولكني وعدت بأن أذكر لك الحقيقة ، وسوف أفعل ذلك بشرف مهما كلفني ذلك من ثمن ، لن أحاول إخفاء نفسي خلف حجة الإكراه الذي مارسه سيدي لأنه لم يكن كذلك ... كما أني لا أستطيع أن أحتج بالجهالة أو عدم التفكير ولسنوات بذل سيدي جهده لتلويث ذهني بصور فاحشة ، وأن يدمر المبادىء الصافية التي غرستها فيّ جدتي وسيدتي الطيبة في طفولتي ، إن نفوذ العبودية كان له نفس التأثير عليّ كما كان له على باقي الفتيات ، لقد جعلني هذا النفوذ أعرف قبل النضج حول الطرق الشريرة في هذا العالم ، لقد عرفت ما فعلت وفعلت ذلك بحسبان مقصود .

ولكن آه ... أيتها النسوة السعيدات ، اللواتي سترن منذ الطفولة ، واللواتي كن أحراراً في اختيار من تحبين ، واللواتي يحمي القانون بيوتكن ، لا تحكمن بقسوة على الأمة المسكينة الكئيبة ، ولو ألغي الرق لكنت أنا أيضاً قد تزوجت رجلاً من اختياري ، ولكان لي بيت محمي من قبل القانون ، ولكنت امتنعت عن تلك المهمة المؤلمة في الإعتراف بما سأقوله الآن .. ولكن كافة طموحاتي قد انهارت بفعل العبودية . أردت أن احتفظ بنقائي وتحت أصعب الظروف المعاكسة ، وحاولت جاهدة للاحترام الذاتي ، ولكني كنت أكافح وحيدة في قبضة عفريت العبودية القوية ، وأثبت الوحش قوة قبضته وشعرت بأن الله قد هجرني

وكذلك الناس وكأنما كان علي أن أجمد كافة جهودي وأصبح مندفعة في يأسي .

لقد أخبرتك أن اضطهاد الدكتور « فلنت » وغيرة زوجته عليه قد أديا لبعض الأقاويل في الجوار ومن بين هذه الأقاويل حدث أن رجلاً أبيض غير متزوج كان على علم ببعض الظروف التي أعيشها ، وقد عرف جدتي ، وكثيراً ما تحدث إلي في الشارع ، ثم أصبح متهماً بي ووجه إلي أسئلة حول سيدي ، وكنت أجيب عليها بشكل جزئي ، وقد أبدى قدراً كبيراً من التعاطف والرغبة في مساعدتي ، وكان يتحين الفرص بشكل مستمر ليراني ، وكتب إلي مراراً ، كنت أمة مسكينة في الخامسة عشرة من العمر .

هذا الإنتباه الزائد من جانب شخص كبير ، كان بالطبع تملقاً ، لأن الطبيعة الإنسانية هي نفسها في الجميع ، ولكني شعرت بالشكر لتعاطفه ، وتشجعت نتيجة كلماته اللطيفة ، وبدا لي شيئاً عظيماً أن يكون لي صديق كهذا ، وبالتدريج فان إحساساً رقيقاً تسلل إلى قلبي ، لقد كان رجلاً مثقفاً بليغاً جداً ، وأسفاه للأمة المسكينة التي وثقت به ، وبالطبع رأيت إلى أين يؤدي هذا الميل وعرفت الفجوة التي لا يمكن تغطيتها بيننا ولكن أن أكون مادة اهتمام رجل غير متزوج وليس بسيدي لهو مما يرضي كبرياء ومشاعر الأمة إذا كانت حياتها البائسة قد تركت لها شيئاً من الكبرياء أو العاطفة ... ويبدو تسليم النفس أقل انحطاطاً من الخضوع للاكراه ، وهناك شيء ما قريب من الحرية في الحصول على حبيب ليس له سلطة عليك خلا تلك التي يكتسبها باللطف والصداقة فان السيد يمكن أن يعاملك بالوقاحة التي يريدها ولا تجرؤ على الكلام ، وفوق ذلك فان الخطأ يصغر حجمه مع رجل غير

متزوج كما هو الحال مع رجل له زوجة غير سعيدة ... ربما كان في كل هذا مغالطة ، ولكن حال الأمة تربك كافة مبادىء الأخلاق . وفي الحقيقة تحيل الممارسة شيئاً مستحيلاً

عندما وجدت سيدي قد بدأ بالفعل في بناء الكوخ المهجور ، فان مشاعر أخرى امتزجت بتلك التي بينتها ، فالانتقام وحسابات الفائدة أضيفت إلى العبث المتملق والشكر الصادق على اللطف ، وعرفت أن لا شيء يغيظ الدكتور « فلنت » سوى أن يعرف أنني فضلت آخر عليه وكان ذلك شيئاً ما من الانتصار على ظالمي حتى ولو بتلك الطريقة الملتوية ، وظننت أنه سوف ينتقم لنفسه ببيعي ، وكنت متأكدة من أن صديقي السيد « ساندز » سوف يشتريني ، لقد كان رجلاً أكرم وأكثر شعوراً من سيدي ، وظننت أن حريتي يمكن الحصول عليها بسهولة منه ، إن أزمة مصيري الآن تقترب حتى أنني أصبحت الآن يائسة وارتعدت من فكرة كوني أماً لأطفال سيمتلكهم ظالمي القديم ، وعرفت أنه عندما تطرأ عليه فكرة جديدة فان ضحاياه يتم بيعهم للتخلص منهم وبخاصة إذا كان لديهم أطفال ، لقد رأيت نساءً عديدات بعن مع أطفالهن الذين ما زالوا في سن الرضاع ، ولم يسمح لذريته من الإماء أن تبقى طويلاً على مرأى منه ومن زوجته ، ولكن من رجل ليس سيدي أستطيع أن أضمن أن أطفالي سيتم إعالتهم بصورة جيدة ، وفي هذه الحال شعرت بالثقة بوجوب الحصول على هذه النعمة ، وشعرت أيضاً بالتأكيد تماماً أنهم سوف يغدون أحراراً .

كانت هذه الأفكار تجول في ذهني وتحجب عن عيني أي سبيل آخر للتخلص من المصير . وفزعت كثيراً وسرحت باللا شعور .

ارثوا لحالي وسامحوني ... سامحني أيها القارىء الفاضل .. إنك لا تعرف ما معنى أن يكون الإنسان عبداً . وأن يكون دون حماية على الإطلاق ، لا من قبل القانون ولا من العرف وأن تدنيك القوانين إلى درجة الأثاث الموروث الخاضع لإرادة الآخرين ... إنك يا قارئي لم تستهلك ذكاءك في تجنب الفخاخ والتملص من سلطة ظالم بغيض ، ولم ترتعد فزعاً من وقع أقدامه ، ولا ارتجفت لدى سماع صوته. عرفت أني ارتكبت خطيئة ولا يستطيع أحد أن يشعر بها كشعوري ... إن ذكراها المؤلمة ، المخزية ستظل تتردد علي حتى آخر يوم في حياتي ومع ذلك ، وفي استعراض الماضي بهدوء واحداث حياتي ، أشعر أن الأمة ينبغي ألا يحكم عليها بنفس مقاييس الآخرين .

ومرت الأشهر وصادفت ساعات شقية ، وأسفت سراً على الحزن الذي سببته لجدتي التي حاولت كثيراً حمايتي من الضرر ، لقد كنت أعرف بأني الراحة الكبرى لأواخر سني حياتها ، وأنه كان مصدر فخر لها أني لم أذل نفسي مثل معظم الإماء ، وأردت أن أعترف لها أنني لم أعد جديرة بمحبتها ولكني لم أستطع التلفظ بالكلمات المؤلمة ... أما فيما يتعلق بالدكتور « فلنت » فكان لدي شعور بالرضى والظفر حول فكرة إعلامه ، ومن وقت لآخر كان يقص علي الترتيبات المزمعة ، وكنت صامتة ، وأخيراً جاء وأخبرني أن الكوخ أصبح جاهزاً وأمرني بالذهاب إليه ، وأخبرته أني لن أدخله فقال : « لقد سمعت ما يكفي من مثل هذا الكلام ، يجب أن تذهبي حتى ولو حملت بالقوة ، ويجب أن تبقي هناك » .

وأجبته : « إنني لن أذهب إلى هناك لأنني خلال أشهر قليلة سأصبح أماً » ووقف ينظر إلي في ذهول صامت ، وغادر الدار دون أن ينبس ببنت شفة ، وفكرت أنني ينبغي أن أكون سعيدة في انتصاري عليه ،

ولكن وقد أصبحت الحقيقة معلنة ، وسيسمع بها أقاربي شعرت بالتعاسة، إن ظروفهم المتواضعة كان فيها فخرهم بخلقي القويم ، أما الآن فكيف أستطيع أن أنظر في وجوههم ؟ لقد تلاشى احترام الذات عندي ، صممت أن أكون عفيفة مع كوني أمة وقلت : « دعي العاصفة تزأر فلسوف أواجهها حتى الموت » ولكن الآن كم شعرت بالضعة .

ذهبت إلى جدتي وتحركت شفتاي للنطق بالإعتراف ولكن الكلمات التصقت في حلقي ، وجلست في ظل شجرة على بابها وبدأت الخياطة ، وأظنها رأت شيئاً ما غير عادي حولي ، إن أم الإماء تبقى يقظة فهي تعرف أنه لا ضمان لأطفالها ، وبعد أن يصلن طور المراهقة تعيش في توقع يومي للمتاعب وهذا يؤدي إلى العديد من الأسئلة ، فاذا كانت الفتاة ذات طبيعة حساسة ، فالخجل يمنعها من الإجابة بصدق ، وهذه الوجهة ذات المعنى التام ، تضم ميلاً يقودها إلى استشارات الأمومة ، وعلى الفور أتت سيدتي كامرأة مجنونة واتهمتني حول زوجها ، أما جدتي فقد سبق لشكوكها أن استيقظت وصدقت ما قالته ، فقالت « آه يا ليندا ، هل وصل الأمر إلى هذا الحد ؟ تمنيت لو رأيتك ميتة على أن أراك في هذه الحال . إنك لعنة لوالدتك الراحلة ». ثم انتزعت من يدي خاتم زواج أمي وكشتبانها الفضي قائلة : « انصرفي ولا تحضري إلى بيتي مرة أخرى » . لقد وقع علي تعنيفها حاراً وثقيلاً لدرجة أنها لم تترك لي فرصة الإجابة ... فلم يكن جوابي الوحيد إلا دموعاً أليمة لم يسبق لي أن ذرفتها من قبل ، ونهضت من مقعدي ولكني سقطت ثانية وأنا أتنهد ، لم تتحدث إلي ولكن الدموع كانت تجري بسخاء فوق خديها المتغضنين ، فلذعتني كالنار ، لقد كانت دائماً لطيفة جداً معي ، كم تمنيت أن أرتمي على قدميها فأخبرها بالحقيقة الناصعة ، ولكنها أمرتني بالذهاب وعدم القدوم هناك مرة ثانية ، وبعد بضع دقائق استجمعت قوتي وبدأت باطاعتها ، آه .. بأية مشاعر أغلق الآن

البوابة الصغيرة التي اعتدت أن أفتحها بيد الشوق في طفولتي ؟ لقد أغلقت علي بصوت لم اسمعه من قبل ... ولكن أين أستطيع أن أذهب ؟ لقد كنت خائفة من العودة إلى منزل سيدي ، ومشيت بطيش غير آبهة أين أذهب،أو ماذا يكون من أمري،وعندما قطعتأربعة أو خمسةأميال أرغمني التعب على التوقف ، فجلست على جذع شجرة كبيرة ، وكانت النجوم تتلألأ من خلال الأغصان فوقي .. كم سخرت النجوم مني بضوئها اللامع الهادىء ، ومرت الساعات ، وحالما جلست وحيدة هناك تملكتني قشعريرة ومرض مهلك ووقعت على الأرض وفي ذهني أفكار مرعبة ، وصليت من أجل الموت ولكن صلاتي لم تستجب ، وأخيراً وبعد جهد كبير نهضت ومشيت مسافة أبعد إلى بيت امرأة كانت صديقة والدتي ، وعندما أخبرتها عن سبب وجودي هناك تحدثت إلي بلطف ولكني لم أستطع أن أرتاح . كان باستطاعتي تحمل عاري لو أني استطعت مصالحة جدتي فقط ، تقت لفتح قلبي لها ، وفكرت لو أنها استطاعت معرفة حقيقة الأمر وما تحملته لسنوات لربما خففت من قسوة حكمها علي ، ونصحتني صديقتي بأن ترسل في طلب جدتي، وفعلت ذلك ولكن مرت الأيام كانت كسكرات الموت قبل أن تأتي ، فهل هجرتني كلية ؟ كلا لقد جاءت أخيراً ، وركعت أمامها ، وأخبرتها بالأشياء التي سممت حياتي ، وكم اضطهدت حتى لم أر طريقاً للهرب ، وفي ساعة متطرفة غدوت يائسة ، وأصغت جدتي في صمت ، وأخبرتها أنني سوف أتحمل أي شيء وأفعل أي شيء إذا كان لي أمل في نيل رضاها ، وتوسلت إليها أن تحنو علي من أجل خاطر والدتي الميتة،وقد حنت علي ولكن لم تقل أسامحك بل نظرت إلي بمحبة وعيناها مليئتان بالدموع ، ووضعت يدها العجوز بلطف على يدي وتمتمت « يا للطفلة المسكينة ... يا للطفلة المسكينة » ...

* * *

١١
رباط الحيـــاة الجديد

وعدت إلى منزل جدتي الطيبة ، وكان لها مقابلة مع السيد « ساندز » ، وعندما سألته لماذا لم يترك لها نعجة واحدة في الوقت الذي كان هناك العديد من العبيد من الذين لايهتمون بالخلق لكنه لم يحر جواباً ، وتحدث بكلمات لطيفة ومشجعة ، ووعد أن يهتم بطفلي وأن يشتريني مهما كانت الشروط .

لم أر الدكتور « فلنت » لخمسة أيام منذ أن اعترفت أمامه ، وقد تحدث عن الخزي الذي جلبته على نفسه . وكيف ارتكبت الخطيئة ضد سيدي وأخجلت جدتي العجوز ، ولمح إلي أنني لو كنت قبلت مقترحاته فهو كطبيب كان باستطاعته إنقاذي من الفضيحة . حتى تعطف بالشفقة علي . هل كان بمقدوره عرض أشياء أكثر مرارة ؟ بعد أن كان اضطهاده سبباً في خطيئتي ... وقال لي : « ليندا مع أنك كنت مجرمة نحوي إلا أنني أشعر بك وأستطيع أن أعفو عنك إذا ما أطعتني وعملت برغباتي .. أخبريني ما إذا كان الشخص الذي أردت الزواج منه هو والد طفلك ، وإذا ما خدعتني فستشعرين بنار الجحيم » .

لم أشعر بالفخر بمثل ما شعرت به عندما فعلت ذلك . إن قوة سلاحي قد تلاشت ، لقد انخفضت بتقدير نفسي ، وصممت على تحمل شتائمه في صمت ، ولكنه عندما تحدث بازدراء عن الحبيب الذي

عاملني دائماً بنبل . وعندما تذكرت أنه من أجله فقط كان يمكن أن أكون شريفة ، حرة ، وزوجة سعيدة ، فقدت صبري ورحت أقول: « لقد ارتكبت الخطيئة ضد الله وضد نفسي ، ولكن ليس ضدك » .

فضغط على أسنانه وتمتم : « عليك اللعنة » واتجه نحوي بغضب ظاهر وقال « أنت أيتها الفتاة العنيدة ، أستطيع أن أطحن عظامك وأجعلها مسحوقاً ، لقد ألقيت بنفسك على وغد لا قيمة له ، إنك ذات عقل ضعيف وقد تم اغراؤك بسهولة من قبل أولئك الذين لا يقيمون لك وزناً ، إن المستقبل سيصفي الحساب بيننا ، أنت عمياء الآن ، ولكن فيما بعد سوف تقنعين أن سيدك كان صديقك الأفضل ، إن تساهلي نحوك لهو برهان على ذلك ، كان يمكن أن أعاقبك بعدة طرق ، كان يمكن أن أتسبب في جلدك حتى تموتي تحت السياط ، ولكني أردت لك الحياة وسوف أحسن وضعك بينما لا يستطيع ذلك الآخرون ، أنت أمتي ، إن سيدتك المشمئزة من سلوكك تمنعك من العودة إلى البيت، ولذلك سأتركك هنا في الوقت الحاضر ولكني سأراك مراراً وساعود غداً » .

وأتى مقطب الجبين ، يبدو عليه عدم الرضى الذهني ، وبعد سؤال عن صحتي تساءل ما إذا كنت قد تناولت الطعام ومن زارني ، ثم راح يسأل ويقول إنه أهمل واجبه وأنه بصفته طبيباً يجب أن يشرح لي أشياء معينة ، ثم تبع الكلام بما يجعل أولئك الذين لا يخجلون يحمرون خجلاً وطلب إلي أن أقف أمامه ، وأطعته ، وقال : « آمرك أن تخبريني ما إذا كان والد طفلك أبيض أم أسود ؟ » وترددت فاردف : « أجيبي على الفور » ، وأجبته ، فقفز نحوي كالذئب وشدني من ذراعي وكأنما قد كسرها قائلاً : « هل تحبينه؟ » قال ذلك بلهجة هامسة، ورددت :

« إنني شاكرة لأنني لم احتقره » . ورفع يده كي يلطمني ، ولكنها سقطت مرة ثانية ، لا أدري ما الذي منع اللطمة ، جلس وشفتاه مضغوطتان وأخيراً تكلم قائلاً : « لقد أتيت إلى هنا لأقدم لك اقتراحاً ودياً ، ولكن نكرانك للجميل اغضبني إلى حد لا يحتمل ، لقد رفضت كل مقاصدي الطيبة نحوك ولا أدري ما الذي يمنعني من قتلك » . ونهض مرة أخرى وكأنما في ذهنه أن يصفعني .

ولكنه استأنف الحديث قائلاً : « سوف أسامحك لوقاحتك وجريمتك بشرط واحد ، عليك من الآن فصاعداً ألا تتصلي بأي شكل بوالد طفلك، ينبغي ألا تطلبي منه أي شيء ، ولا تتلقي منه أي شيء . انني سأعتني بك وبطفلك ، ويجدر بك أن تعدي بذلك على الفور ، وألا تنتظري حتى يهجرك هو ، إن هذا آخر عمل من الرحمة أظهره نحوك » .

قلت شيئاً ما حول عدم عزمي إعالة طفلي من قبل رجل لعنني ولعنه أيضاً ، فرد أن المرأة التي غرقت في مستواي لا حق لها بتوقع شيء آخر ، وسأل للمرة الأخيرة ما إذا كنت سأقبل لطفه ؟ وأجبت أنني لن أقبل »،فقال « حسناً ، تحملي إذن نتائج عصيانك ، ولا تتطلعي إلي للمساعدة ، أنت أمتي وستظلين دائماً أمتي لن أبيعك فلا تعتمدي على ذلك » .

ومات الأمل في قلبي بينما أغلق الباب خلفه ، لقد حسبت أنه في ثورة غضبه سوف يبيعني لتاجر رقيق ، وعرفت أن والد طفلي كان على استعداد لشرائي .

وفي هذا الوقت ، كنت متوقعة عودة خالي فيليب من رحلته ، وقبل رحيله بيوم واحد قمت بمهمة اشبينة لصديقة شابة ... كان قلبي

عند ذاك مريضاً . ولكن ملامح ابتسامتي لم تخنه . لقد مرت سنة واحدة فقط . ولكن أي تغيير رهيب طرأ عليه ، تحول قلبي إلى بؤس وكآبة ، إن الحياة التي تومض عند شروق الشمس والحياة التي ولدت في الدموع تأخذ لونها من الظروف ، لا أحد فينا يعرف ماذا يمكن أن تأتي به سنة ...

لم أشعر بأي سرور عندما أخبروني بمجيء خالي ، لقد أراد رؤيتي مع علمه بما قد حصل، انكمشت عنه في بادىء الأمر ولكنني في النهاية رضيت بقدومه إلى غرفتي ، وتلقاني كما كان يفعل دائماً ، آه ... كم خفق قلبي بشدة عندما شعرت بدموعه تبلل وجنتي المحترمة ، وعادت كلمات جدتي إلى ذهني : « ربما أخذت والدتك ووالدك كيلا يريا أيام الشر القادمة » ، واستطاع قلبي المصاب بخيبة الأمل أن يشكر الله أنه كان الأمر كذلك ، ولكن فكرت ، لماذا كان أهلي ينسجون الآمال من أجلي ؟ وما هو المصير الذي كان سينقذني ؟ إن الكثيرات ممن هن أجمل وأذكى مني مارسن مصيراً مماثلاً ، أو حتى أدنى ، فكيف كانوا يأملون هروبي من هذا المصير ؟

كانت إقامة خالي قصيرة ولم أكن آسفة على ذلك ، كنت مريضة ذهنياً وجسدياً بحيث لم أستطع التمتع بأصدقائي كما أفعل دائماً ، ولبضعة أسابيع لم أكن قادرة على مغادرة سريري ، ولم أستطع أن أحصل على أي طبيب عدا سيدي مع أني لم أكن أرغب في دعوته ... لقد كنت ضعيفة وعصبية جداً وحالما دخل الغرفة بدأت بالصراخ .. قالوا له إن حالتي دقيقة جداً ، ولم تكن له رغبة في الإسراع في اخراجي من العالم .. فانسحب .

وعندما وضعت طفلي قالوا « إنه لك » لم يكن كامل النمو ،

وكان وزنه أربعة أرطال (انكليزية) ولكن الله تركه يعيش ، وسمعت الطبيب يقول أنني لن أظل حية حتى الصباح ، ولطالما صليت من أجل الموت ، ولكنني الآن لا أريد الموت ما لم يمت طفلي معي .. ومضت أسابيع عديدة قبل أن أصبح قادرة على مغادرة فراشي ، كنت مجرد حطام لنفس سابقة ، ولمدة سنة كنت عرضة للبرد والحمى في كل يوم تقريباً ، كما أن طفلي أصبح مريضاً وأطرافه غالبـاً محطمة من الألم ، وكرر الدكتور « فلنت » زياراته للعناية بصحتي ولكنه لم ينس أن يذكرني أن طفلي كانت شيئاً مضافاً إلى مجموعة عبيده .

شعرت بأنني أضعف من أن أنازعه ، وأصغيت لملاحظاته في صمت ، وقلّت زياراته ، ولكن روحه المنهمكة لم تستطع أن تبقى هادئة ، لقد استخدم أخي في مكتبه بحيث أصبح صلة الوصل بيني وبينه في ايصال رسائله إلي ، وكان « ويليام » فتىً ذكياً وذا فائدة كبيرة للدكتور ، لقد تعلم تركيب الأدوية ، والعلق والكأس ، والفصد ، وكذلك تعلم القراءة والتهجئة .... كنت فخورة بأخي ، فاشتبه الدكتور حول ذلك ، وذات يوم وبعد غياب دام عدة أسابيع ، سمعت وقع أقدامه تقترب من الباب ، وخشيت المجابهة ، وأخفيت نفسي .. سأل عني بالطبع ولكني لم أكن في مكان يجدني فيه .... فعاد إلى مكتبه وبعث برسالة مع وليام ، وتغير لون أخي عندما سلمني إياها وسألني « ألا تكرهينني ياليندا لأنني أجلب إليك هذه الأشياء ؟ » فأخبرته أنني لا أستطيع لومه لأنه عبد ومضطر لإطاعة سيده .

أمرتني الرسالة أن أذهب إلى مكتبه ، وذهبت وطلب معرفة مكان وجودي عندما تفقدني ، فأخبرته أنني كنت في المنزل ، فانفعل وقال انه يعرف بشكل أفضل ، ثم طرح مواضيعه المعتادة ، جرائمي ضده

ونكراني جميل تحمله لي . والقوانين التي طبقت علي من جديد ، خرجت من مكتبه وأنا أشعر بالمهانة لأن أخي كان واقفاً يصغي لهذه اللغة التي لا يخاطب بها إلا العبد ... يا للولد المسكين ، كان أضعف من أن يدافع عني ، ولكنني رأيت الدموع التي حاول عبثاً ضبطها ... وإظهار مثل هذا الشعور أغاظ الدكتور ولم يكن « وليام » يستطيع أن يفعل شيئاً لإرضائه .

وذات صباح تأخر « وليام » في وصوله إلى المكتب حسب العادة ، مما أدى إلى غضب سيده غضباً شديداً ، ووضع في السجن .. وفي الصباح التالي أرسل أخي تاجراً إلى الدكتور مع رجاء بيعه ، وغضب سيده غضباً شديداً على ما سماه وقاحة . وقال : « إن وضعه في السجن انعكس على سوء سلوكه وهو بالتالي لا يدل على توبته » وظل الدكتور يومين يبحث عن رجل يقوم بعمل مكتبه ، ولكن سارت الأمور بشكل سيء في المكتب من دون وليام ، مما أدى إلى اطلاق سراحه وأمره بالعودة إلى موقعه القديم ، ورافق ذلك تهديدات عديدة إذا لم يكن منتبهاً حول سلوكه في المستقبل

ومع مرور الأشهر تحسنت صحة طفلي ... ومع بلوغه عامه الأول وصف بأنه جميل ... لقد تعمقت محبة ولدي إلى نفسي مع أن حبه العميق أثار مزيجاً من الألم والسعادة ... وعندما ينتابني الحزن العميق كنت أجد الراحة في ابتسامته ... كم أحببت مراقبة نعاسه الطفولي . . ولكن الضباب الأسود كان دائماً يكتنف سروري ، ولم أستطع أبداً نسيان أنه كان عبداً .. وكنت أتمنى في بعض الأحيان لو أنه مات وهو رضيع ولكن الله ابتلاني وأصبح طفلي مريضاً جداً .. وغدت العينان اللامعتان كئيبتين ، وباتت اليدان والقدمان في برودة الثلج

حتى حسبت أن الموت قد سرى فيهما كم صليت من أجل موته في الماضي ... ولكن لم يسبق لي أن صليت بحرارة من أجل حياته كما فعلت الآن ... واستجاب الله لصلاتي .

يا للأسف أية سخرية لأم أمة تحاول الصلاة من أجل طفلها وهو في النزاع الأخير ليحيا ... الموت أفضل من العبودية .. لقد كانت فكرة حزينة أن لا يكون لدي اسم أعطيه لطفلي لقد ناغاه والده وعامله بلطف كلما كانت تسنح له فرصة رؤيته ... ولكم كان يود لو يحمل اسمه ولكن لم يكن له حق قانوني لذلك وإذا ما منحته أنا الاسم فان سيدي سيعتبر ذلك جريمة جديدة ، ونوعاً جديداً من الوقاحة .. ولربما شمل انتقامه الصبي .. آه إن ثعبان العبودية له عدة أنياب سامة .

* * *

١٢

عصيان نات ترنر

واندلع عصيان « نات ترنر »(*) بعد هذا الوقت بقليل ، وأدخلت الأنباء بلدتنا في اضطراب كبير ... وكان من الغريب أن يفزعوا بينما كان عبيدهم « مقتنعين وسعداء » ولكن هكذا كان ...

كانت العادة دائماً إقامة حشد عسكري كل سنة ... وفي تلك المناسبة كان كل رجل أبيض يشارك في الحشد ... فالمواطنون وما يسمون بالسادة كانوا يرتدون الأزياء العسكرية ، أما البيض المساكين فكانوا يأخذون أوضاعهم في الصفوف بملابسهم اليومية ، فبعضهم دون أحذية والبعض الآخر دون قبعات ، وهذه المناسبة الكبيرة قد سبق ومرت ، وعندما تم اعلام العبيد بوجود حشد آخر ، دهشوا وسروا . باللمخلوقات المسكينة ، لقد حسبوا أنه سيكون هناك عيد .. وقد أخبرت بالحالة الحقيقية للأمور وأفشيتها للقليل ممن أثق بهم ، وكنت سأعلنها بسرور لكل عبد ولكنني لم أجرؤ فلم يكن الجميع ممن يعتمد عليهم وإن قوة تعذيب السياط فظيعة .

(*) : أكثر ثورات العبيد الأمريكيين شهرة ، انفجرت يوم (٢١) اب(١٨٣٠) في «ساوثمبتون » وهو اقليم جنوب شرق فرجينيا ، وقتل في الإنتفاضة حوالي ستين من البيض ، وفي حملة الأخماد التي تلت ذلك مات على الأقل مائة أسود ، وقد اعتقل القائد « نات ترنر » في (٣٠) تشرين الأول ونفذ فيه حكم الإعدام في (١١) تشرين الثاني «١٨٣١ » ، وقد ولد في مزرعة « بنيامين ترنر » في اقليم « ساوثمبتون » عام ١٨٠٠ لأمة أسمها « نانسي» مواطنة من افريقيا ، ولأب مجهول ، (الفصل ١٢ من كتاب ليندا برنت يعطي تقريراً ممتعاً حول تأثير الثورة في طوائف العبيد (و.ت) .

وعند شروق الشمس كان الناس يندفعون من كل حي في مدى عشرين ميلاً من المدينة ، وعرفت أن البيوت ستفتش ، وتوقعت أن يقوم بذلك المتنمرون من البيض المساكين . كنت أعرف أن جل ما يضايقهم أن يروا الناس الملونين يعيشون في راحة ، وأن يكونوا جديرين بالاحترام ، وهكذا عملت الترتيبات لهم بعناية خاصة ، ورتبتُ أنا كل شيء في منزل جدتي بما أمكن من النظافة . ووضعت أغطية بيضاء على الأسرة ، وزخرفت بعض الغرف بالزهور وعندما تم ترتيب كل شيء جلست إلى النافذة أراقب . وعلى مدى ما استطاعت عيني أن تصل ، استقرت على حشد مغبر من الجنود ، وكانت الطبول والآلات الموسيقية تعزف موسيقى حربية ، وانقسم الرجال إلى جماعات كل جماعة تتألف من ستة عشر جندياً يرأسها نقيب ، وأعطيت الأوامر ، واندفع الكشافون الأجلاف في كل اتجاه حيثما كان يوجد وجه ملون .

لقد كانت فرصة رائعة للبيض الوضيعين ، الذين لم يكن لديهم زنوج يخصونهم ويجلدونهم ، وابتهجوا بتلك الفرصة لممارسة سلطة مختصرة وبسيطة ، ولإظهار خضوعهم لمالكي العبيد . غير مفكرين بأن السلطة التي اضطهدت الناس الملونين تركتهم أنفسهم في فقر وجهل وانحطاط معنوي ، وأولئك الذين لم يشهدوا مثل تلك المناظر لن يصدقوا بسهولة ما أعرف مما تم فرضه على الرجال والنساء والأطفال الأبرياء والذين لم يكن ضدهم أي سبب ولو بسيط يبرر الاشتباه ، وعلى الناس الملونين والعبيد الذين سكنوا في أجزاء بعيدة من البلدة وعانوا منهم بشكل خاص ، ففي بعض الحالات كان المفتشون يبعثرون المساحيق ويطلقون النار بين الملابس التي تم تفتيشها . ثم يرسلون جماعات أخرى لإيجادها وجلبها كبرهان على أنهم كانوا يخططون للعصيان ، وفي كل مكان تم جلد الرجال والنساء والأطفال حتى اندفع الدم متدفقاً على

أقدامهم ، وبعضهم تلقى خمسمائة جلدة ، وآخرون قيدت أيديهم وأرجلهم بشكل مخيف ، أما الملونون إن لم يكونوا محميين من قبل بعض الأشخاص البيض المتنفذين ، فعندئذ تسلب بيوتهم وتنهب ملابسهم ، وأي شيء آخر يستحق الحمل ، واستمر هؤلاء السفلة والمجردون من الشعور يتجولون طيلة النهار مثل فرقة العفاريت ، مخيفين ومعذبين اليائسين ، وفي الليل كانوا يشكلون عصابات دورية ، ويذهبون حيثما يختارون بين الناس الملونين منفذين إرادتهم القاسية .

وقد اختبأ العديد من النساء في الغابات والمستنقعات ليبعدن عن طريقهم ، وإذا ما أخبر أحد الأزواج أو الآباء عن هؤلاء المرتكبين ، كانوا يقيدون إلى عمود للجلد حيث يجلدون بقسوة بزعم نشرهم الأكاذيب عن الرجال البيض ، وساد جو من الرعب ، ولم يجرؤ اثنان ممن تبدو على وجوههم أدنى ملامح الملونين على التحدث معاً .

لم أفكر بأية مخاوف حول أهل بيتنا ، لأننا كنا وسط عائلات بيضاء سوف تحمينا ، وكنا مستعدين لاستقبال الجنود حيثما أتوا ، ولم يمض قليل حتى سمعنا وقع الأقدام وضجة الأصوات .

ودفع الباب بفظاظة ، ففتح واندفعوا كمجموعة من الذئاب الجائعة ، وسرعان ما اختطفوا كل ما كان في متناولهم ، وتم تفحص كل صندوق وجذع خزانة وزاوية تفحصاً عميقاً ، وكان ضمن أحد الأدراج صندوق يحوي بعض النقود الفضية فانقضوا عليه بشوق ، وعندما خطوت إلى الأمام لآخذه منهم ، التفت أحد الجنود وقال بغضب : « بماذا تتهمينا ؟ هل تزعمين أن الأقوام البيض قد أتوا للسرقة » ؟.

وأجبت : « لقد أتيتم للتفتيش ، ولكنكم فتشتم ذلك الصندوق ، وسوف آخذه من فضلكم » ... وفي تلك اللحظة رأيت سيداً أبيض كان

صديقاً لنا ، وناديته وطلبت إليه أن يتفضل بالقدوم إلينا والإقامة حتى ينتهي التفتيش ، وانصاع برحابة صدر ، وقد جلب دخوله إلى المنزل قائد المجموعة ، الذي كانت مهمته حراسة خارج المنزل ، ليرى ما إذا كان أحد من النزلاء لم يغادره ، وهذا الضابط كان السيد « ليتش» مالك العبيد الذي ذكرته في تقريري عن المزارعين المجاورين لشهرته في القسوة .

لقد شعر بأنه أرفع من أن يلوث يديه بالتربة في التفتيش ، وعمد إلى إعطاء الأوامر فقط ، وإذا ما اكتشفت قطعة من الكتابة ، كانت تحول إليه من قبل أتباعه الجهلة ، الذين لا يعرفون القراءة .

وكانت لدى جدتي خزانة كبيرة من المفارش وأقمشة الطاولة ، وعندما فتحت تعالت أصوات الدهشة ، وتساءل أحدهم : « من أين حصل الزنوج الملاعين على كل هذا ؟ وعلى أغطية الطاولة ؟ » ... قالت جدتي وقد شجعها وجود حامينا الأبيض : « يمكنكم أن تتأكدوا من أننا لم نسرقها من بيوتكم » ... فأجابها أحدهم : « اسمعي يا ماما – وقطب جبينه – « إنك تبدين قوية لأنك حصلت عليها كلها هنا والقوم البيض ينبغي أن يأخذوها كلها » .

وقوطعت ملاحظاته بمجموعة من الأصوات تصرخ « لقد أخذناها، لقد أخذناها» . هناك رسائل وكان هناك اندفاع عام نحو الرسالة المزعومة ، والتي تبين لدى تفحصها أنها تحوي بعض الأشعار كتبها صديق لي ، وقد تجاوزتها أثناء حزم أمتعتي . وعندما أعلمهم قائدهم بمحتواها ، بدت عليهم خيبة الأمل . وسألني من كتبها ؟ فقلت له كان ذلك أحد أصدقائي ، فسأل : « هل تستطيعن قراءتها ؟ » وعندما

أخبرته بالإيجاب اندفع بالشتائم والهيجان ، ومزق الورقة إلى قطع قائلاً في لهجة آمرة « احضري لي كل رسائلك » واخبرته اني لا أملك شيئاً ولكنه تابع بطريقة تلميحية : « لا تخافي ، أحضريها لي ولن يصيبك أي انسان بأذى » وعندما رآني لم أتحرك لإطاعته ، تغيرت لهجته اللطيفة إلى شتائم وتهديدات وتساءل : « من يكتب إليك ؟ زنوج نصف أحرار؟» وأجبته : « آه كلا ، معظم رسائلي من الناس البيض ، والبعض يطلب مني إحراقها بعد قراءتها ، والبعض أتلفه دون قراءة »

ووضعت إمارات الدهشة من بعض أفراد الجماعة حداً للمحادثة . ثم اكتشفت بعض الملاعق الفضية المزخرفة ذات الطراز القديم في البوفيه ، وكان من عادة جدتي حفظ الفاكهة لنساء عديدات في البلدة ، وتحضير العشاء في الحفلات ، وتبعاً لذلك كان لديها جرار من المربيات ، والخزانة التي حوت هذه الأشياء كانت التالية في الغزو ، وتم تذوق جميع المحتويات ، وربت أحدهم — وكان يأكل بحرية — على كتف جاره قائلاً : « حسناً ، لا تعجب إذا كان الزنوج يريدون أن يقتلوا البيض ، بينما هم يعيشون على المربيات » ومددت يدي لأخذ الجرة قائلة : « لم تأتوا هنا لتبحثوا عن المربيات » .

رد القائد بخشونة : « ولماذا أتينا » ولكني تهربت من الإجابة .

تم تفتيش البيت ، ولم يعثر على شيء يديننا ، ثم تقدموا من الحديقة متلفين كل غصن وكرمة دون أي نجاح ، وجمع القائد رجاله معاً ، وبعد مشاورة قصيرة أعطي الأمر بالتقدم .. وعندما كانوا يمرون عبر البوابة ، التفت القائد وصب اللعنة على البيت وقال انه ينبغي احراقه وتسويته بالأرض ، وكل من فيه يجب أن يخضع لتسع وثلاثين جلدة ، وخرجنا من هذا المأزق بحظ كبير بحيث لم نفقد أي شيء عدا الكساء .

وعند المساء ، ازداد الهيجان والجنود متأثرون بالخمرة فازدادت قسوتهم حتى امتلأ الجو بالصراخ والصياح بصورة مستمرة ، ولما لم أجرؤ على الذهاب إلى الباب ، اختلست النظر من تحت ستار النافذة، فرأيت الرعاع يجرون عدداً من الناس الملونين ، وقد شرع كل رجل أبيض بندقيته مهدداً بالموت الفوري إذا لم يتوقف صراخهم ، ومن بين السجناء كان يوجد كاهن عجوز ملون محترم . حيث وجدوا قليلاً من طرود الطلقات في منزله والتي استخدمتها زوجته قبل عدة سنوات من أجل تعادل الميزان ، ومن أجل هذا كانوا على وشك اطلاق النار عليه في « كورت هاوس غرين » ، أي مشهد هذا في بلاد متحضرة ورعاع يترنحون من السكر كان من المفترض أن يكونوا مسؤولين عن العدالة .

وقد بذل نفر من الطبقة الراقية في الطائفة نفوذهم لإنقاذ البريء ، والناس المضطهدين وفي أمثلة عديدة نجحوا وذلك بالاحتفاظ بهم في السجن حتى تخمد الفتنة .

وأخيراً ، وجد المواطنون البيض أن ممتلكاتهم لم تكن بمنأى عن الرعاع المتمردين ، الذين استدعوا لحمايتهم ، وبناء على ذلك استجمعوا أطراف شجاعتهم ، وطردوا سرب السكارى إلى القرية ، ونصبوا حرساً على البلدة .

وفي اليوم التالي ، انتدبت دوريات البلدة لتفتيش الناس الملونين من الذين يعيشون خارج المدينة ، وقد ارتكبت أفظع الانتهاكات بحقهم وبشكل يضمن الافلات من العقوبة . وخلال أسبوعين كنت كلما نظرت رأيت الفرسان ومعهم زنجي مسكين يلهث ، وقد ربطوه إلى أسرجتهم ، وأرغم بالسوط على مجاراتهم في سرعتهم حتى وصلوا

إلى فناء السجن ، وأما أولئك الذين جلدوا بشكل جديد لا رحمة فيه ، فكان عليهم أن يمشوا ومن ثم يغسلون بماء شديد الملوحة ويدفع بهم إلى عربة تقودهم إلى السجن . وقد وعد رجل أسود لم يكن بمقدوره تحمل الجلد ، باعطاء معلومـــات حول المؤامرة ، ولكن تبين انه لا يعرف شيئاً حتى أنه لم يسمع باسم « نات ترنر »، على أن هذا المسكين اختلق قصة زادت من معاناته هو ومعاناة أولئك الناس الملونين .

واستمرت الدورية اليومية لبضعة أسابيع ، وعند حلول الليل كان يجري استبدال الحرس ، ولم يثبت أي شيء ضد الناس الملونين سواء كانوا عبيداً أم أحراراً ، وقد هدأ غضب مالكي العبيد إلى حد ما باعتقال « نات ترنر » فأطلق سراح السجناء، وأعيد العبيد إلى أسيادهم ، بينما سمح للأحرار بالعودة إلى مساكنهم المنهوبة ، وقد حرمت الزيارة إلى المزارع ، وتوسل العبيد من أجل السماح لهم باللقاء مرة أخرى في كنيستهم الصغيرة في الغابات ، والتي كان حولها مقبرة ... لقد بناها الأفراد الملونون ولم يكن لهم أكبر من هذه السعادة عندما يلتقون هناك ويطلقون ترنيماتهم معاً ... ساكبين قلوبهم في صلاة تلقائية .. وقد رفض توسلهم ، وهدمت الكنيسة ، ثم سمح لهم بالتواجد في كنائس البيض ، فخصص قسم معين من الأروقة لاستعمالهم ، وهناك عندما كان كل شخص يشارك في العشاء الرباني ، كانت تعلن البركة ، ويقول الكاهن : « تعالوا الآن يا أصدقائي الملونين » وكانوا يستجيبون للدعوة ويشاركون في الخبز والخمر تخليداً للمسيح المتواضع الذي قال : « الله ربكم وأنتم جميعاً إخوة » .

* * *

١٣
الكنيسة والعبودية

وبعدما فترت أيام الفزع التي نجمت عن عصيان « نات ترنر » توصل مالكو العبيد إلى الاستنتاج بأنه سيكون من الأفضل إعطاء العبيد ما يكفي من التعليمات الدينية ، لإبعادهم عن قتل أسيادهم .

وعرض الكاهن الاسقفي أن يقيم صلاة منفصلة في الآحاد لمنفعتهم ، وكان الأعضاء الملونون قلائل جداً .. ومحترمين جداً ... وهي حقيقة كما افترض أن يكون لها وزنها لديه ... ولكن الصعوبة كانت في تحديد مكان مناسب لهم للعبادة ... وقد قبلتهم الكنائس المنهجية والمعمدانية في فترات ما بعد الظهر ، لأن سجادها ووسائدها لم تكن غالية الثمن كتلك التي في الكنيسة الأسقفية ، وأخيراً تقرر أن يلتقوا في بيت رجل ملون حر كان عضواً فيها .

ودعيت للحضور لأنني أستطيع القراءة ، وجاء مساء الأحد ، ولما كنت واثقة من حلكة الليل ، فقد جازفت بالخروج ونادراً ما كنت أجازف في النهار لأنني كنت دائماً محاطة بالرعب متوقعة في كل مرة أن أجابه الدكتور « فلنت » والذي كان من المؤكد أن يعيدني ، أو يأمرني بالذهاب إلى مكتبه ليستعلم من أين حصلت على القبعة أو أي شيء آخر من الملابس ، وعندما حضر المحترم السيد « بايك » كان عدد الحضور عشرين شخصاً ، وانحنى السيد المحترم في الصلاة ،

ثم جلس وطلب إلى كافة الحضور الذين يستطيعون القراءة أن يفتحوا كتبهم ، بينما هو دلهم على الأقسام التي كان يرغب ترديدها أو الاستجابة إليها ... وكان نصه هو : « أيها الخدم ، كونوا مطيعين لأولئك الذين هم أسيادكم بالنسبة للجسد ، مع الخوف والارتجاف في وحدانية قلوبكم نحو المسيح ... » ثم مشط السيد « بايك » شعره حتى انتصب ، ومن ثم بدأ بلهجة وثورة عميقة يقول : « أصغوا ، أنتم أيها الخدم ، وانتبهوا لكلماتي تماماً ، أنتم خاطئون متمردون ، إن قلوبكم مملوءة بكل أنواع الشر ، إنَّ الشيطان هو الذي يقويكم ، إن الله غاضب عليكم وسوف يعاقبكم بالتأكيد إذا لم تكفوا عن طرقكم الشريرة ، أنتم يا من تعيشون في هذه البلدة ، يجب أن تكونوا خدماً ، مراقبين وراء ظهور أسيادكم ، وبدلاً من أن تخدموا أسيادكم باخلاص وهو الشيء الذي يرضى في نظر سيدكم في السماء ، فانكم كسالى ، وتتهربون من عملكم ، والله يراكم ، تكذبون والله يسمعكم ، فبدلاً من الإنهماك في عبادته فانكم تختبئون في مكان ما ، تتغذون بثروة سيدكم ، قاذفين رواسب البن على قارىء حظ شرير ، أو ضامرين بطاقات مع ساحرة عجوز أخرى ، ومن الممكن ألا يراكم أسيادكم ، ولكن الله يراكم وسوف يعاقبكم ، يالفسق قلوبكم : وعندما ينجز عمل سيدكم فهل أنتم تفكرون معاً بهدوء في طيبة الله نحو مخلوقات خاطئة مثلكم ؟ كلا ، إنكم تتشاجرون ، حازمين أكياس اللب(*) للدفن تحت درج الباب لتسميم بعضكم بعضاً ، والله يراكم أنتم أيها الرجال ، تتسللون

(*) كان هذا الكيس يستخدم من قبل الرجل أو المرأة أو الطبيب مستحضر الأرواح.

إلى كل دكان لتبيعوا قمح أسيادكم . ولتشتروا بثمنه شراباً مسكراً ، والله يراكم أنتم تتسلون إلى الشوارع الخلفية أو بين الأغصان لتزفيت النحاس ، ومع أن أسيادكم يمكن ألا يروكم ، إلا أن الله يراكم ، يجب أن تتخلوا عن طرقكم الآثمة . وتكونوا خدماً مخلصين ، أطيعوا سيدكم القديم وسيدكم الجديد . سيدتكم القديمة العجوز ، وسيدتكم الجديدة ، وإذا عصيتم سيدكم العالمي . الأرضي . فانكم تسيئون إلى سيدكم السماوي ، يجب أن تطيعوا الله . وعندما تغادرون ، لا تقفوا في زوايا الشوارع للتحدث ، ولكن اذهبوا مباشرة إلى البيت، وليعلم سيدكم وسيدتكم بقدومكم ...» .

وأعلن دعاء البركة ، وذهبنا إلى المنزل مغتبطين تماماً بوعظ الأخ الإنجيلي ، وصممنا أن نسمعه مرة أخرى ، وفي مساء الأحد التالي ، ذهبت لسماع إعادة البحث المستفيض . وفي نهاية الإجتماع أعلمنا السيد « بايك » أنه وجد من غير الملائم الاجتماع في بيت الصديق ، وأنه يسره أن يرانا في مساء كل أحد في مطبخه الخاص .

وذهبت إلى المنزل يلازمني الشعور بأنني قد أسمع المحترم السيد « بايك » للمرة الأخيرة وقد ذهب بعض من الأعضاء إلى منزله ، وكان في المطبخ وللمرة الأولى شمعتان من الشحم الحيواني ، وذلك منذ أن تملكه صاحبه الحالي بكل تأكيد ، لأن الخدم لا يمتلكون أي شيء باستثناء عقد الصنوبر ، وكان ذلك قبل وقت طويل من نزول السيد المحترم من داره المريحة بعد أن غادره العبيد وذهبوا للتمتع بصياح منهجي ، ولم يبدوا من قبل سعداء كما بدوا عندما كانوا يصيحون ويغنون في الإجتماعات الدينية . والكثيرون منهم كانوا لطفاء ، وأقرب إلى بوابة السماء من المنافق السيد « بايك » والمسيحيين الآخرين

ذوي الوجوه المستطيلة ، الذين يرون السامريين والمجروحين ويمرون بهم من الجانب الآخر ...

ويؤلف العبيد عموماً أغانيهم وترانيمهم ، وهم لا يزعجون رؤوسهم كثيراً بالوزن بل يغنون غالباً الأشعار التالية :

الشيطان القديم هو رجل عجوز منهمك
يدحرجهم كتلاً ، كلهم في طريقي
على أن المسيح هو صديقي الصميم
وهو يدفعهم كتلاً بعيداً
لو أنني مت وأنا شاب
فكيف كان للساني المتلعثم أن يغني
ولكني عجوز ، وأنا الآن
حظي ضئيل في الوصول إلى تلك الأرض السماوية ...

وأتذكر جيداً ذات مناسبة عندما حضرت جلسة استحضار الأرواح، وذهبت بنفس مرهقة وحدث أن جلست قرب أم مسكينة مسلوبة ، كان قلبها ما يزال أثقل من قلبي ، وكان قائد الصف هو شرطي البلدة ، أبيض الوجه ، أسود القلب ، وقال للمرأة الجريحة : « أختاه ، ألا تستطيعين أن تعلمينا كيف يتعامل الله مع روحك ؟ هل تحبينه كما كنت تفعلين في السابق ؟ » فنهضت على قدميها وقالت في لهجة حزينة « يا إلهي وسيدي ، ساعدني ، إن حملي فوق استطاعتي ، لقد أخفى الله نفسه عني وبقيت في ظلام وبؤس » ثم ضربت على صدرها واستمرت تقول : « لا أستطيع أن أخبرك ماذا هنا ، لقد أخذوا كل أطفالي » وفي

الأسبوع الماضي أخذوا آخر ولد منهم ، الله وحده يعلم أين باعوهم ، تركوهم معي ست عشرة ثم ... آه ، آه . ادعوا معي من أجل إخوتها وأخواتها ، لم يعد لدي شيء أعيش من أجله ، ليجعل الله عمري قصيراً».. ثم جلست وجميع أعضائها ترتجف ، ورأيت وجه ذلك الشرطي قائد الصف يتحول إلى لون قرمزي بضحكة مضغوطة ، بينما كان يحمل منديله ، حتى أولئك الذين كانوا يبكون لكارثة المرأة المسكينة ، لم يروا سروره ، ثم قال للمرأة الجريحة بوقار مصطنع : « أختاه — توسلي إلى الله كي تغدو كل شرائع إرادته السماوية مطهرة لخير روحك المسكينة المحتاجة » ... وبدأ جماعة المغنين ترنيمة وغنوا وكأنهم أحرار كالطيور التي كانت تشدو حولنا :

الشيطان القديم ظن أن لديه هدفاً قوياً

لقد أخطأ روحي ، وأمسك بآثامي

رددوا آمين ، رددوا آمين ، رددوا آمين إلى الله

لقد أخذ ذنوبي على ظهره . .

وذهب مدمدماً ، مزمجراً إلى جهنم

رددوا آمين ، رددوا آمين ، رددوا آمين إلى الله ...

كنيسة الشيطان القديم هي هنا في الأسفل

وإلى كنيسة الله الحرة آمل أن أرتقي

رددوا آمين ، رددوا آمين ، رددوا آمين إلى الله ...

إن تلك اللحظات كانت قيمة للعبيد المساكين ، ولو أنك سمعتهن في مثل هذه الأوقات لظننت أنهم سعداء ... ولكن هل يمكن لتلك

الساعة من الغناء والصراخ أن تغذيهم خلال الأسبوع ، وهم يكدون دون أجر وتحت إرهاب مستمر بالجلد ...؟

واختتم الكاهن الآسقفي عمله ، فقد كان منذ نعومة أظفاره نوعاً من روح الله بين مالكي العبيد لأن عائلته كانت كبيرة ، ويجب عليه أن يذهب إلى حيث يكون المال متوفراً ، وقد حل مكانه كاهن آخر ، وكان التغيير مدعاة توافق للناس الملونين الذين قالوا : « أرسل الله لنا رجلاً طيباً في هذه المرة » لقد أحبوه وتبعه أطفالهم من أجل ابتسامة أو كلمة لطيفة ، وحتى مالكو العبيد شعروا بنفوذه ، وقد جلب إلى بيته خمسة من العبيد ، وقامت زوجته بتعليمهم القراءة والكتابة ، وعلمتهم أن يكونوا ذوي نفع لها ولأنفسهم ، وحالما استقر ، استرعى انتباهه العبيد المعوزين من حوله ، واستحث أبناء أبرشيته على إقامة اجتماع تعبيراً لهم في كل أحد ، مع موعظة متناسبة حسب ادراكهم ، وبعد جدل وإلحاح كبيرين ، اتفق أخيراً على إمكانية تواجدهم في رواق الكنيسة في أمسيات الأحد . حتى أن الكثير من الناس الملونين والذين لم يعتادوا الحضور إلى الكنيسة ذهبوا الآن بسرور لسماع الانجيل يتلى ... وكانت المواعظ بسيطة ، بحيث فهموها ، وفوق ذلك كانوا يخاطبون للمرة الأولى كبشر ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ أبناء أبرشيته البيض بالسخط ، فقد أتهم بتقديم مواعظ للزنوج أفضل من تلك التي تقدم إليهم ، واعترف بنبل أنه منح جهداً أكبر على هذه المواعظ من أي شيء آخر لهم ، لأن العبيد كانوا في تخلف وجهل ، حتى أنها كانت وظيفة صعبة يكيف نفسه فيها لإدراكهم .

ونشبت الخلافات في الأبرشية ، فالبعض أصر على أنه ينبغي أن يعظهم في المساء ، ويخصص فترة ما بعد الظهر للعبيد ، وأثناء هذه

النزاعات توفيت زوجته بعد مرض قصير جداً ، وتجمع عبيدها حول فراش موتها في حزن بالغ فقالت : « لقد حاولت أن أصنع لكم شيئاً طيباً ، وأنشط سعادتكم ، وإذا كنت قد فشلت فلم يكن ذلك بسبب نقص الإهتمام في رخائكم ، لا تبكوا علي ، ولكن هيئوا أنفسكم للمهام الجديدة الماثلة أمامكم ، إنني أتركم جميعاً أحراراً ، عسانا نلتقي في عالم أفضل » وقد أطلق عبيدها المال من أجل ضمان راحتهم ... وسيبارك الناس الملونون طويلاً ذكرى تلك المرأة المسيحية حقاً ... وبعد وفاتها مباشرة قدّم زوجها آخر موعظة وداعيّة ، وذرفت دموع غزيرة على رحيله .

وبعد ذلك بعدة سنوات مر ببلدتنا حيث ألقى موعظة في جماعته من المصلين السابقين وفي موعظة ألقاها بعد الظهر خاطب الناس الملونين قائلاً : « يا أصدقائي ، إنه لمن دواعي سعادتي الكبيرة أن تتاح لي الفرصة لأتحدث إليكم مرة ثانية ، لقد كافحت لسنتين من أجل أن أصنع شيئاً للملونين من أبرشيتي ، ولكن حتى الآن لم يتم إنجاز أي شيء، ولا حتى قدمت موعظة لهم ، حاولوا أن تعيشوا بموجب كلام الله أيها الأصدقاء ، إن جلودكم أكثر سواداً من جلدي ، ولكن الله يحكم على الرجال حسب قلوبهم لا حسب ألوان جلودهم » لقد كان هذا مبدأ غريباً من منبر وعظ جنوبي ، وكان عدوانياً على مالكي العبيد ، وقالوا إنه وزوجه قد سخرا من العبيد ، وأنه وعظ كالغبي للزنوج .

وعرفت رجلاً أسود عجوزاً ، كان تقياً وثقته العفوية بالله جميلة جداً ، ولقد انضم إلى الكنيسة المعمدانية وهو في الثالثة والخمسين ، كانت لديه رغبة قوية في تعلم القراءة ، وفكر في أنه ينبغي عليه أن

يتعلم كيف يتعبد الله أفضل لو استطاع فقط أن يقرأ الإنجيل ، وأتاني يرجوني أن أعلمه وقال إنه لا يستطيع أن يدفع لي أجراً ، لأنه لا يملك المال . ولكنه سوف يجلب لي فاكهة لطيفة في الموسم ، وسألته ما إذا كان يجهل أن ذلك مخالف للقانون ، وأن العبيد سيجلدون ويسجنون إذا ما علم بعضهم بعضاً القراءة ... وقد تسبب ذلك في وابل من الدموع في عينيه ، فقلت له : « لا تضطرب أيها العم « فرد » لا أنوي رفض تعليمك ، ولكنني أشرت فقط إلى القانون لكي تدرك الخطر وتظل متيقظاً » وقد فكر في أنه يستطيع ترتيب مجيئه بمعدل ثلاث مرات في الأسبوع ، دون أن يصبح موضع شبهة .

واخترت زاوية هادئة ، حيث لا يمكن لمعتد متطفل أن يخترقها ، وهناك علمته الأبجدية .. فرغم سنه كان تقدمه مدعاة للدهشة ، وحالما أصبح قادراً على تهجي مقطعين ، طمح إلى أن يهجي كلمات الإنجيل ، وقد غرست الإبتسامة السعيدة التي أنارت وجهه السرور في فؤادي ، وبعد تهجئة كلمات قليلة توقف وقال : « يا عزيزتي ، إذا ما استطعت أن أقرأ هذا الكتاب الكريم فسأقترب من الله » وتابع :

« لقد استحوذ الرجل الأبيض على كل الإدراك ، فهو يستطيع أن يتعلم بسهولة ، ولكن ذلك ليس أمراً سهلاً بالنسبة لرجل عجوز أسود مثلي ، أريد فقط أن أقرأ هذا الكتاب لكي أتمكن من معرفة كيف أعيش دون أن يعتريني خوف من الموت » .

وحاولت تشجيعه بالحديث عن التقدم السريع الذي حققه . فأجاب : « صبراً يا طفلتي ، فانني أتعلم ببطء » .

لم تكن بي حاجة إلى الصبر ، إن عرفانه للجميل والسعادة التي ظللتني كانت أكبر مكافأة لكل متاعبي وفي نهاية الأشهر الستة ، كان قد قرأ العهد الجديد ، بحيث كان يستطيع أن يجد أي نص فيه .

وذات يوم ، وقد تلا بشكل جيد وأفضل من المعتاد ، قلت له : « أيها العم « فرد » كيف رتبت تلقي دروسك بشكل جيد ؟ » فأجاب « فليباركك الله أيتها الطفلة ، إنك لم تعطني درساً إلا أصلي لله كي يساعدني في فهم ما اتهجاه وأقرأه . وهو يساعدني يا طفلتي ، مبارك اسمه المقدس » .

هناك الآلاف ممن هم مثل العم « فرد » الطيب ، إنهم عطشى لماء الحياة ، ولكن القانون يحظر ذلك والكنائس تمنعه ؛ إنهم يرسلون الكتاب المقدس إلى الوثنيين في الخارج ،ويتجاهلون الوثنيين في الداخل . إنني مسرورة لأن البعثات التبشيرية تتوجه إلى الزوايا المظلمة من الأرض ، ولكنني أطلب إليهم ألا يتجاوزوا الزوايا المظلمة في الداخل ، تحدثوا مع مالكي العبيد الأمريكيين كما تتحدثون إلى المتوحشين في افريقيا ، أخبروهم أن من الخطأ المقايضة بالرجال ، أخبروهم أن بيع أطفالهم خطيئة ، وأنه لشيء وحشي اغتصاب بناتهم بأنفسهم . أخبروهم أن الرجال كلهم إخوة ، وأن الرجل لا يحق له أن يحجب نور المعرفة عن أخيه ، أخبروهم أنهم مسؤولون أمام الله لمنع نبع الحياة عن الأرواح العطشى له .

هناك رجال ممن يتعهدون مثل هذا العمل التبشيري بكل سرور ، ولكن للأسف فان عددهم ضئيل ، فهم يلاقون الكره من الجنوبيين ويطردون من أرضهم ، أو يقتادون إلى السجن حتى يلاقوا حتفهم كما

حصل لسواهم من الآخرين ، إن الحقل ناضج بانتظار الحصادين ؛ ولربما يحصل أفراد العم « فرد » على ذلك في الكنوز السماوية ، • التي ننشدها خلسة وتحت طائلة السجن والجلد .

هل علماء اللاهوت عميان أم منافقون ؟ أفترض أن بعضهم في الحالة الأولى وبعضهم الآخر في الحالة الثانية ، ولكنني أعتقد لو أنهم شعروا بالإهتمام بالفقراء والأدنياء كما يجب أن يشعروا فلن يكونوا عمياناً أبداً ، لأن للكاهن الذي يذهب إلى الجنوب للمرة الأولى فرصة للتأكد ولو بشكل غامض بأن العبودية خطأ ، ويشبهه مالك العبيد في ذلك ويلعب بالتالي لعبته ، وهو يجعل من نفسه مقبولاً بقدر الإمكان فيتحدث عن اللاهوت ومواضيع مماثلة ، والسيد المحترم يطلب إليه أن يمنح البركة على مائدة حافلة بالملذات ، وبعد العشاء يتجول بين الأبنية ، فيرى الأيك الجميل والكروم الزاهرة ، والأكواخ المريحة للعبيد المنزليين ، الأثيرين ، ويدعوه الجنوبيون للتحدث إلى هؤلاء العبيد ، فيسألهم ما إذا كانوا يودون الانعتاق ، ويجيبونه « آه ، كلا يا سيد » ويكون ذلك من أجل إرضائه فيعود إلى منزله لينشر المنظر الإيجابي الجنوبي للعبودية ويشكو مبالغات المبطلين ، وهو يؤكد للناس بأنه ذهب إلى الجنوب ، ورأى العبودية بنفسه ، وأن ذلك « صرح بطريركي » جميل ، حتى أن العبيد لا ينشدون حريتهم ، وأن لديهم اجتماعات شكر وامتيازات دينية أخرى .

ماذا يعرف هذا عن البؤساء نصف الجائعين ، ممن يكدون من الفجر

وحتى الظلام في المزارع ، عن الأمهات اللواتي يصرخن من أجل أطفالهن ، اللواتي تمزقت سواعدهن بتأثير تجار الرقيق ، ؟ عن الفتيات اليانعات اللواتي يدفعن إلى الفحش الأخلاقي ؟ عن برك الدماء حول مركز الجلد ؟ عن الكلاب المدربة على تمزيق الجسد الإنساني ؟ عن الرجال المسمرين إلى محالج القطن حتى الموت ؟ إن مالك العبيد لم يُرِهِ أياً من هذه الأشياء ، والعبيد لم يجرؤوا على الإفصاح عن ذلك فيما لو سئلوا .

هناك فرق كبير بين الدين المسيحي والدين في الجنوب ، فاذا ما ذهب رجل إلى مائدة العشاء الرباني ، ودفع نقوداً إلى خزينة الكنيسة، ولو كان ثمن الدم ، فعندئذ يسمى ديناً ، وإذا ما أنجب قس ذرية من امرأة غير زوجته ، فان الكنيسة تطرده إن كانت المرأة بيضاء ، أما إذا كانت ملونة فان ذلك لا يمنع من استمرار كونه « راعيهم الطيب » .

عندما علمت أن الدكتور « فلنت » قد انضم إلى الكنيسة الأسقفية ، دهشت كل الدهشة وافترضت أن الدين كان له تأثير نقي في أخلاق الرجال ، ولكن أسوأ اضطهاد عانيته منه جرى بعد أن تناول العشاء الرباني ، ولم ألمح في حديث الدكتور بعد قبوله بيوم واحد أي دلالة على أنه قد تخلى عن الشيطان وكافة أفعاله . وقد ذكرته مُجيبة على بعض أسئلته المعتادة أنه قد انضم إلى الكنيسة للتو ، فقال : « نعم يا ليندا ، لقد كان من اللائق بي أن أفعل ذلك . فانني أتقدم في السن ومركزي

في المجتمع يتطلب ذلك ، فهو يضع حداً لكل العامية اللعينة ، وأنت تصنعين جيداً لو انضمت إلى الكنيسة أيضاً يا ليندا » . ورددت عليه قائلة : « يوجد خاطئون بما يكفي هناك ، وإذا ما استطعت أن أعيش كمسيحية فسأغدو مسرورة » . فأجاب « تستطيعين أن تفعلي ما أطلبه ، وإذا ما كنت مخلصة لي فستصبحين عفيفة كزوجتي » ... وأجبته : « لكن الكتاب المقدس لا يقول ذلك » فأصبح صوته الأجش ممتزجاً بالغضب وقال : « كيف تجرؤين على وعظي حول كتابك المقدس الجهنمي ، وأي حق لك وأنت زنجيتي أن تتحدثي عما تريدين وما لا تريدين ؟ إنني سيدك وعليك طاعتي » .

لا عجب أن يغني العبيد :

كنيسة الشيطان القديم هي هنا في الأسفل

وأنا آمل الارتقاء إلى كنيسة الله الحرة ...

* * *

١٤
صلة أخرى بالحيـــاة

لم أعد إلى منزل سيدي منذ ولادة طفلي ، لقد غضب الرجل العجوز لأنني سوف أنتقل من سلطته المباشرة ، ولكن زوجته أقسمت بكل ما هو مقدس وعظيم أنها سوف تقتلني إذا ما عدت ، ولم يشك هو في كلامها ، وفي بعض الأحيان كان يبتعد ولموسم كامل ، ثم يأتي ويجدد حديثه المبتذل حول تحمله لي ونكراني لجميله ، وكثيراً ما حاول وبلا هوادة اقناعي بأنني قد أهنت نفسي ، إن ذلك العجوز ، الحقود ، الشرير ، لم تكن لديه حاجة للعزوف عن ذلك الموضوع لقد شعرت بالمهانة بما يكفي ، إن طفلي البريء كان دائماً الشاهد الحالي على عاري ، وأصغيت بازدراء صامت عندما تحدث عن خسراني لرأيه الطيب ، ولكنني ذرفت دموعاً سخية لأنني لم أعد جديرة باحترام الناس الطيبين النقيين ؛ وأأسفاه ... إن قبضة العبودية المسمومة لا تزال تمسك بي وتبعدني عن أية فرصة لأكون محترمة ... ولم يكن هناك أي أمل في أن أكون قادرة على العيش بشكل أفضل .

وفي بعض الأحيان عندما يجدني سيدي مازلت أرفض عروضه الطيبة كما سماها ، كان يتهددني ببيع طفلي قائلاً : « ربما يجعلك ذلك ذليلة » .

يذلني ! ؟ ألم يسبق لي أن كنت في الوحل ؟ ولكن تهديده هذا

كان يجرح قلبي ، لقد عرفت أن القانون يعطيه السلطة لتحقيق ذلك ، لأن مالكي العبيد كانوا مخادعين بما يكفي ليشرعوا أن الطفل ينبغي أن يتبع حال أمه وليس حال أبيه وهكذا . وإن الترخيص لا يتدخل مع البخل والجشع وجعلني هذا الشعور أضم طفلي البريء إلى صدري ، وبشدة أكبر ، وتتابعت في مخيلتي صور مرعبة عندما فكرت في احتمال السقوط بين يدي تاجر الرقيق ، وبكيت عليه وقلت : « آه يا طفلي ، ربما تترك في غرفة باردة لتموت ، ومن ثم يلقون بك في حفرة وكأنك كلب ... » .

عندما علم الدكتور فلنت أنني سأصبح أماً للمرة الثانية ، غضب غضباً لا حد له ، واندفع إلى المنزل ثم عاد ومعه مقص ... لقد حباني الله شعراً جميلاً ، وهو غالباً ما كان يلومني لتفاخري بتصفيفه بشكل لطيف ، وإذا به يقص كل شعري وحتى القريب من فروة الرأس وهو يزمجر ويلعن طيلة الوقت ، وأجبت على بعض شتائمه ، فضربني ، وقبل ذلك ببضعة أشهر قذف بي إلى أسفل ، إلى الطابق السفلي في نوبة من الغضب ، وكانت إصابتي خطيرة جداً حتى أنني لم أستطع التقلب في فراشي لعدة أيام ، وقال لي : « ليندا ، أقسم بالله أني لن أرفع يدي في وجهك مرة ثانية ، » ولكني كنت أعرف أنه سوف ينسى وعده .

بعد أن اكتشف حالي ، كان كروح مضطربة في حفرة ، كان يأتي كل يوم ليشتمني وبقيت أخضع لشتائم قذرة مما لا يستطيع أي قلم وصفها ، وسوف لا أصفها حتى لو استطعت لأنها منحطة تماماً ومقززة للنفس ، وحاولت ألا أنهي بها إلى جدتي قدر المستطاع ، لأنني كنت أعرف أن لديها ما يكفي من الأحزان في حياتها ، دون

أن تتحمل مشاكلي ، وعندما رأت الدكتور يعاملني بعنف وسمعته يتلفظ بشتائم فيها من الفظاعة ما يشل لسان الرجل ، لم تستطع أن تلوذ بالصمت ، وكان من الطبيعي ومن الأمومة أن تحاول الدفاع عني ، ولكنها جعلت المسائل أسوأ فقط .

وعندما أُخبرت أن طفلي المولود حديثاً كان بنتاً ، ثقل قلبي أكثر من ذي قبل ، فالعبودية مفزعة للرجال . ولكنها أكثر فزعاً للنساء ، إضافة إلى العبء العام للكل فان لهن خطيئات ومعاناة مميتة للجسد بصورة غريبة .

ولقد أقسم الدكتور « فلنت » أنه سوف يجعلني أعاني حتى يومي الأخير نتيجة هذه الجريمة الجديدة ضده — كما سماها — وطالما أنه يمتلكني فقد حافظ على قسمه ، ففي اليوم الرابع بعد ولادة طفلتي ، دخل غرفتي فجأة ، وأمرني بالنهوض وجلب طفلتي إليه ، وكانت الممرضة التي اعتنت بي قد ذهبت من الغرفة لتحضير بعض الغذاء ، وكنت وحيدة . . لم يك بد من النهوض ، فنهضت ، وأخذت طفلتي وعبرت الغرفة إلى حيث كان جالساً ، فقال لي : « قفي الآن هناك حتى أخبرك أن تذهبي » وكانت طفلتي تشبه إلى حد كبير والدها والسيدة «ساندز » الراحلة جدتها ، ولاحظ هو ذلك ، وبينما وقفت مرتجفة أمامه ، أطلق علي وعلى طفلتي الصغيرة أقذر النعوت التي استطاع أن يفكر فيها حتى الجدة في قبرها لم تسلم من لعناته ، وفي أثناء توبيخاته ، أغمي علي عند قدميه مما جعله يعود إلى رشده ، فأخذ الطفلة من ذراعي ووضعها في الفراش ، ثم سكب على وجهي ماءً بارداً وأجلسني وهزني

بعنف لأستعيد وعيي قبل أن يدخل أحد الغرفة ، وفي تلك اللحظة أتت جدتي فما كان منه إلا أن هرع إلى خارج المنزل .

لقد عانيت نتيجة هذه المعاملة ، ولكنني رجوت صديقاتي أن يتركنني أموت ولا أرسل في طلب الطبيب ، ولم يك هناك شيء أخشاه أكثر من حضوره ، لقد أنقذت حياتي ، وسررت بذلك من أجل طفلتي فقط ، وكان علي أن أكون مسرورة بأن أتخلص من الموت مع أن عمري تسع عشرة سنة فقط .

كم كنت أتحسر لأن أطفالي لم يكن لهم حق قانوني لاسم ، وعرض والدهم اسمه ، ومع أنني رغبت العرض إلا أنني لم أجرؤ بينما سيدي على قيد الحياة ، وفوق ذلك كنت أعرف أنه لن يكون الاسم المسيحي — الذي هو من حقهم — لن يكون مقبولاً عند التعميد ، ولذلك صممنا على أن نسمي ولدي وفقاً لاسم عزيزنا الطيب « بنيامين » الذي ابتعد كثيراً عنا .

كانت جدتي تنتمي إلى الكنيسة ، وكانت لديها رغبة قوية في تعميد الأطفال ، وكنت أعرف أن الدكتور « فلنت » يحرم ذلك ، ولم أجازف في المحاولة ولكن الحظ أسعفني ، فلقد استدعي الدكتور لزيارة مريض خارج البلدة ، وكان مضطراً لأن يتغيب يوم الأحد ، فقالت جدتي : « الآن حان الوقت ، سوف نأخذ الأطفال إلى الكنيسة لتعميدهم » .

وعندما دخلت الكنيسة ، مرت بي ذكريات والدتي ، وشعرت بمهانة روحي ، فهناك دفعتني للعمادة دون أي سبب للشعور بالعار ،

لقد كانت متزوجة ، ولها حقوق قانونية تعادل ما تسمح به العبودية للعبد ، وكانت النذور مقدسة على الأقل بالنسبة لها ولم تنقضها أبداً ... وسرني أنها لم تكن على قيد الحياة لتعلم تحت أي الظروف قدم أحفادها للتعميد ، فلماذا كان حظي مختلفاً تماماً عن حظ والدتي ؟ لقد مات سيدها عندما كانت طفلة ، فظلت مع سيدتها حتى تزوجت ، ولم تكن تحت سيطرة أي سيد ، وهكذا نجت من أنواع الشرور التي تنزل بالعبيد عموماً .

عندما كانت طفلتي على وشك التعميد ، أتت إلي سيدة والدي السابقة ، واقترحت أن تعطيها اسمها بالمعمودية ، ولذلك أضفت كنية والدي والذي لم يكن هو نفسه له حق قانوني فيها لأن جدي لأبي (من الجانب الأبوي) كان سيداً أبيض (أي خيوط متشابكة هي سلالة العبودية) لقد أحببت والدي ولكن ما أخزاني هو أن أكون مضطرة لمنح أطفالي اسمه .

وعندما غادرنا الكنيسة ، دعتني سيدة والدي السابقة للذهاب إلى منزلها ، ووضعت سلسلة ذهبية حول عنق طفلتي ، وشكرتها على هذا اللطف إلا أني لم أحب الرمز ، لم أرد أن تثبت على ابنتي أية سلسلة ولو كانت حلقاتها من ذهب ، وكم توسلت بجد ألا تشعر بوزن سلسلة العبودية التي يدخل حديدها إلى الروح .

* * *

١٥
مضايقات مستمرة

كبر أطفالي بصورة حسنة ، وكان الدكتور « فلنت » غالباً ما يقول لي بابتسامة مرح : « هؤلاء الأطفال المزعجون سوف يحققون لي مبلغاً حسناً من المال في هذه الأيام » .

فكرت في نفسي بأن الله سوف يساعدني وقلت أنهم لن يقعوا بين يديه ، وبدا لي أنني أفضل رؤيتهم يقتلون على أن يكونوا تحت سلطته ، ويمكن الحصول على المال من أجل حريتي وحرية أطفالي ولكنني لم أجد أي منفعة من ذلك الظرف ، كان الدكتور « فلنت » يحب المال ولكنه كان يحب السلطة أكثر ، وبعد نقاش طويل ، صمم أصدقائي على بذل محاولة أخرى ... كان هنالك مالك عبيد على وشك المغادرة إلى تكساس ، وكان مفوضاً أن يشتريني ، وكان عليه أن يبدأ بتسعمائة دولارٍ ثم يرفع الرقم إلى ألف ومائتي دولار ، ولكن سيدي رفض عروضه قائلاً : « سيدي ، هي لا تخصني لأنها ملك ابنتي وليس لي حق في بيعها وأشك في أنك قادم من طرف عشيقها ، وإذا كان الأمر كذلك فبامكانك أن تخبره أنه لا يستطيع شراءها مقابل أي مبلغ من المال ، وكذلك لا يستطيع شراء أطفالها » .

وجاء الدكتور « فلنت » ليراني في اليوم التالي ، وخفق قلبي بشدة أكبر عندما دخل ، ولم أر الرجل العجوز يخطو بمثل تلك الخطوة

الواسعة أبداً ، لقد جلس بنفسه ونظر إلي بسخرية ذابلة .. وقد اعتاد أطفالي أن يخافوا منه ، فكانت الصغيرة تغمض عينيها وتخفي وجهها في كتفي عندما تراه و « بني » الذي أصبح الآن في الخامسة من عمره طالما سأل : « ما الذي يجعل ذلك الرجل البغيض يأتي هنا عدة مرات ؟ فهل يريد إيذاءنا ؟ » وكنت أضم الولد العزيز بين ذراعي واثقة بأنه سيكون حراً قبل أن ينمو بما يكفي لحل المشكلة ... والآن وقد جلس الدكتور هناك متجهماً وصامتاً ترك الولد لعبه وأتى ليتعلق بي . . . وأخيراً تكلم معذبي قائلاً « وهكذا أصبحت في وضع مزر أليس كذلك ؟ إنه لم يكن أكثر مما توقعت ، تذكرين أنني أخبرتك منذ سنوات أنك سوف تعاملين هكذا ، وهكذا فانه فقد أملك ، ها . . ها لا تريد السيدة العفيفة أن تسمع أليس كذلك ؟ ها . . ها . . ها ..» لقد كانت هنالك لسعة في مناداتي بالسيدة العفيفة ، ولم تعد لدي القوة لاجابتة كما كنت أفعل سابقاً واستمر يقول « هكذا ، يبدو أنك تحاولين اللجوء إلى خدعة أخرى ، عشيقك الجديد أتى إلي وعرض شراءك ، ولكن يمكنك أن تتأكدي أنك لن تنجحي ، إنك ملكي وسوف تظلين ملكي مدى الحياة.ليس هناك انسان يستطيع استخراجك من العبودية ، كان يمكن أن أقبل ولكنك رفضت عرضي اللطيف » .

وأخبرته أنني لم أرغب في الدخول في أية خدعة ، وأنني لم أر الرجل الذي عرض شرائي .

وتساءل هو : « هل تعنين أنني أكذب ؟ » ثم جرني من كرسيّ قائلاً : « هل تقولين مرة أخرى أنك لم تري ذلك الرجل ؟ » .

وأجبت : « إنني أقول ذلك » فلوى ذراعي مع وابل من الشتائم ،

وبدأ « بن » بالصراخ ، وطلبت إليه أن يذهب إلى جدته . ولكنه قال : « لا تخط خطوة واحدة أيها الشقي الصغير » فاقترب الصغير مني أكثر ، ووضع ذراعيه حولي وكأنما كان يريد أن يحميني ، وكان هذا أكثر من أن يتحمله السيد الغاضب ، فتناوله وطرحه عبر النافذة ، وظننت أنه مات ثم هرعت نحوه لالتقاطه .

وقال الدكتور « ليس بعد ، دعيه يضطجع هناك حتى يعود إلى وعيه » ولكني صرخت قائلة « دعني أذهب ، دعني أذهب ، أو سوف أثير البيت بكامله » وكافحت ، وخرجت ولكنه لواني مرة ثانية . وفتح أحدهم الباب فتركني .

التقطت طفلي فاقد الحس ، وعندما التفت كان معذبي قد ولى ... وانحنيت بقلق على الشكل الصغير ، كان لا يزال شاحباً وبلا حراك ، وعندما فتحت العينان الشهلاوان بعد ذلك ، كنت لا أدري ما إذا كنت سعيدة جداً أم لا

وتجددت مضايقات الدكتور السابقة ، كان يأتي في الصباح والظهر وفي الليل ، لا أظن أن هناك محباً غيوراً راقب منافسة أكثر مما راقبتي هو ومالك العبيد الذي اتهمني بأنني أود أن أمارس خدعه ، وعندما كانت جدتي بعيدة كان ينوب عنه في التفتيش في كل غرفة .

وفي إحدى زياراته ، حدث أن وجد فتاة شابة كان قد باعها إلى تاجر منذ أيام قلائل ، وكان تبريره أنه قد باعها لرفعها الكلفة مع المراقب ، كان لها حياة مريرة معه ، وسرها أن تباع ، ولم تكن لها والدة ولا أقارب ، لقد تشتتت عن كافة أفراد عائلتها منذ عدة سنوات قبل ذلك . واشترك أصدقاء قلائل في كفالتها من أجل سلامتها، فيما

إذا كان التاجر سيسمح لها بأن تقضي معهم الوقت الذي يقع بين فترة بيعها وجمع المواشي الإنسانية ... ومعروف أن مثل هذا كان نادراً ما ما يمنح ، فهو يعرض على التاجر مصروف الطعام ورسوم السجن : مع أن المبلغ كان صغيراً إلا أنه كان ذا اعتبار في ذهن تاجر الرقيق .

وكان الدكتور يمقت ملاقاة العبيد بعد بيعهم ، ولذلك أمر « روز » أن تغادر المنزل ولكنه لم يكن سيدها ، وهي لم تلاحظه . وللمرة الأولى كانت « روز » المسحوقة هي المنتصرة ، ولمعت عيناه الشهلاوان بغضب عليها ، ولكن كان ذلك حداً لسلطته فقال : « كيف أتت هذه الفتاة إلى هنا ؟ وأي حق لك في السماح لها بذلك وأنت تعرفين أنني قد بعتها ؟ » .

وأجبت : « إن هذا هو بيت جدتي ، و « روز » أتت لرؤيتها ، وليس لي حق طرد أي شخص خارج الأبواب ممن يأتون إلى هنا بمقاصد شريفة ... » .

ووجه إلي الصفعة التي كان يمكن أن تصيب « روز » فيما لو بقيت أمامه ، واجتذبت الأصوات العالية انتباه جدتي ودخلت في الوقت المناسب لترى الصفعة الثانية توجه إلي ... ولم تكن جدتي ممن يدعن مثل هذا الانتهاك يجري في منزلها دون توبيخ ... ومضى الدكتور يشرح أنني كنت وقحة واستثيرت مشاعر غضبها أكثر فأكثر ، وأخيراً قالت في كلمات تغلي كالمرجل « اخرج من بيتي ، اذهب إلى منزلك واعتن بزوجتك وأطفالك حيث لديك ما يكفي للعمل دون أن تراقب عائلتي » .

وألقى في وجهها ميلاد أطفالي ، واتهمها بأنها توافق على الحياة

التي أحياها فقالت له بي كنت أسكن معه باكراه من زوجته ، ولأنه لا حاجة به لاتهامي لأنه كان هو الشخص الملوم ، وهو الشخص الذي تسبب في كل تلك المتاعب ، وازداد هيجانها وهي مستمرة في القول : « سأخبرك يا دكتور ، ليست لديك سنوات طويلة تعيشها ، ويجدر بك أن تصلي لتغسل الصلاة قذارة روحك » .

فقال : « أتعرفين إلى من تتحدثين » ؟

أجابت : « نعم ، أعرف جيداً إلى من أتحدث » . فغادر المنزل بغضب شديد ، ونظرت إلى جدتي والتقت عيوننا لقد تلاشت تعبيراتها الغاضبة ولكنها بدت حزينة ومتعبة – متعبة من الكفاح المتواصل وتعجبت لأن حبها لي لم يقل ، ولكن لو فعلت فانها لم تظهره ... لقد كانت دائماً لطيفة ومستعدة لأن تتعاطف معي ومع متاعبي ، وكان من الممكن أن يسود السلام والقناعة في هذا المنزل المتواضع لولا عفريت العبودية .

ومر الشتاء دون اضطراب من جانب الدكتور ، وأتى الربيع الجميل ، واستأنفت الطبيعة فتنتها ، والروح الإنسانية جديرة بأن تحيا أيضاً ، وعادت آمالي الغاربة إلى الحياة مرة أخرى مع تفتح الأزهار ورحت أحلم بالحرية مرة ثانية من أجل أطفالي أكثر مما هي من أجلي ، وخططت ، وخططت ولكن خططي اصطدمت بعقبات ولم يبدُ هناك أي أمل للتغلب عليها ومع ذلك فمازلت أتأمل .

وعاد الدكتور المراوغ ، ولم أكن في المنزل عندما ناداني وكنت مدعوة إلى حفلة صغيرة عند صديقة لي وذهبت من أجل إرضائها . وانتابني رعب كبير عندما جاءني رسول على عجل قائلاً : « إن الدكتور

« فلنت » موجود في منزل جدتي ومصر على رؤيتي » .. ولم يخبروه عن مكان وجودي وإلا لكان أتى وأثار اضطراباً في بيت صديقتي ، وبعثوا إلي بدثار قاتم ألقيته على جسمي وهرعت إلى المنزل ولكن سرعتي لم تنقذني فالدكتور كان قد ذهب غاضباً ... وخشيت الصباح ، لكنه أتى دافئاً لامعاً.وفي ساعة مبكرة أتى الدكتور وسأل عن مكاني خلال الليلة الماضية ، وأخبرته ، لم يصدق بل أرسل إلى منزل صديقتي من يستفسر عن الحقيقة ، وعاد بعد الظهر ليؤكد لي أنه مقتنع تماماً بأنني قد قلت الحقيقة وبدا في مزاج فكه ، وتوقعت بعض الملاحظات الساخرة ، وقال : « أعتقد أنك تحتاجين لبعض الاستجمام ، ولكنني دهش من كونك هناك بين أولئك الزنوج ، إن ذلك لم يكن مكانك ، أو مسموحاً لك بزيارة قوم كهؤلاء » .

وفهمت هذا الطرح الخبيث عن الرجل الأبيض الذي كان صديقي ، ولكنني أجبت فقط « ذهبت لزيارة صديقاتي ، وأي جماعة لديهن هي جيدة بالنسبة لي » .

واستمر يقول « قليلاً ما رأيتك مؤخراً ، ولكن اهتمامي بك لم يتغير ، وعندما قلت أني لن أشفق عليك كنت متهوراً ، وأنني أسحب كلماتي . . . ليندا .. إنك تنشدين الحرية لك ولأطفالك وتستطيعين الحصول عليها عن طريقي فقط إذا وافقت على ما سوف اقترحه ، فأنت وهم سوف تصبحون أحراراً ، يجب ألا يكون هناك اتصال من أي نوع بينك وبين والدهم ، وسوف اشتري كوخاً حيث تستطيعين العيش مع أطفالك فيه ، وسيكون عملك خفيفاً مثل الخياطة لعائلتي ، فكري فيما هو معروض عليك يا ليندا . . بيت وحرية . دعي الماضي يطويه النسيان ، ولئن كنت فظاً معك في بعض الأوقات فما ذلك إلا

بسبب عنادك ، وأنت تعلمين أنني أتوقع الطاعة من أطفالي ، وأنا أعتبرك ما تزالين طفلة »

وتوقف انتظاراً للجواب . ولكنني بقيت صامتة . . .

قال : « لماذا لا تتكلمين ، ماذا تنتظرين أكثر من ذلك ؟ » ..

قلت : « لا شيء يا سيدي » . . .

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال : « إذن فقد قبلت عرضي » . .

قلت : « كلا يا سيدي » . . .

وكان غضبه على وشك الأنسياب ، ولكنه نجح في ضبطه وأجاب : « لقد أجبت دون تفكير ولكن علي أن أدعك تعرفين أن هناك جانبين لمقترحي فاذا رفضت الجانب اللامع ستكونين مضطرة لأن تأخذي الجانب المظلم ، ويجب عليك إما أن تقبلي عرضي أو سوف ترسلين وأطفالك إلى مزرعة سيدك الشاب هناك كي تبقوا حتى تتزوج سيدتك الشابة ، ويكون أطفالك مثلهم مثل باقي أطفال الزنوج ، وإنني أمهلك أسبوعاً لدراسة الموضوع » .

لقد كان لاذعاً ، ولكنني عرفت أنه لم يك أهلاً للثقة ، وأخبرته أنني مستعدة لإعطاء الجواب فوراً وأجاب : « لا أريده الآن ، إنك تتصرفين كثيراً نتيجة نزوة ، تذكري أنك وأطفالك يجب أن تكونوا أحراراً من اليوم إذا ما اخترت ذلك ... » .

في أي حظ سيء تعلق مصير أطفالي ، كنت أعرف أن عرض سيدي كان فخاً ، وإذا ما دخلته سوف يصبح الهرب منه مستحيلاً أما فيما يتعلق بوعده فلقد عرفته جيداً ، حتى أنني كنت متأكدة من

أنه إذا أعطاني أوراقاً حرة فسيرتبها بشكل لا يجعل لها قيمة قانونية أبداً ... وكان البديل حتمياً ... وصممت على الذهاب إلى المزرعة ، ولكنني عند ذاك فكرت كيف أكون تحت سلطته تماماً ، وكان المطمح صعباً ، وحتى لو أنني ركعت أمامه ، وتوسلت إليه أن يعفيني من أجل أطفالي لرفسني بقدمه ، وسيكون ضعفي ظفراً له .

وقبل انتهاء الأسبوع ، عرفت أن السيد « فلنت » الشاب سيتزوج من سيدة من نفس الطراز ، وتنبأت بالوضع الذي سوف أحتله في مؤسسته ، لقد أرسلت مرة إلى المزرعة كعقوبة ولكن الخوف من الابن قد أغرى الأب على استعادتي فوراً ... وأعملت الفكر ، وكنت مصممة على أن ألحق الفشل في سيدي وأنقذ أطفالي أو أهلك في التجربة . وحفظت خططي لنفسي ، وعرفت أن الأصدقاء سيحاولون إثنائي عنها ، وأنني سوف أجرح شعورهم برفضي نصيحتهم .

وفي يوم الحسم ، جاء الدكتور وقال إنه يأمل أن أكون قد وقعت على الاختيار الحكيم .

وأجبته : « إنني على استعداد للذهاب إلى المزرعة يا سيدي » .

قال : « هل فكرت كم هو قرارك مهم بالنسبة لأطفالك ؟ »

وأخبرته إنني فعلت ذلك ، وأجاب : « حسناً إذهبي إلى المزرعة ولترافقك لعنتي ، سوف يوضع ولدك في العمل . ويباع فوراً ، بينما تربى ابنتك تمهيداً لبيعها ، اسلكي سبيلك » .

ووقفت متسمرة في المكان ، وأثناء ذلك جاءت جدتي قائلة « ليندا ، يا طفلتي ماذا أخبرته » .

وأجبتها أنني كنت ذاهبة إلى المزرعة . .

قالت : « أيجب أن تذهبي ، أو ليس هناك شيء يمكن أن يلغي ذلك ؟ » .

وأخبرتها أنه لا جدوى من المحاولة ، ولكنها توسلت إلي ألا أستسلم ، قالت أنها سوف تذهب إلى الدكتور ، وتذكره كم خدمت طويلاً وباخلاص في العائلة ، وكيف أنها أبعدت طفلها عن ثديها لتغذية زوجته ، وسوف تخبره أنني كنت بعيدة عن العائلة طويلاً ، وسوف لا يفتقدونني ، وأنها سوف تدفع لهم عن مدتي ، وبالمال سوف يشترون امرأة لها قوة أعظم على الإحتمال مني ، ورجوتها ألا تذهب ولكنها أصرت قائلة : « سوف يصغي إلي يا ليندا » وذهبت وعوملت كما توقعت ، فلقد أصغى إليها ببرود ولكنه رفض طلبها أخبرها أن ما صنعه كان لخيري ، وأن مشاعري كانت فوق وضعي ، وأنني في المزرعة سوف أتلقى معاملة مناسبة لساوكي .

انهارت جدتي .. وكان لدي آمال سرية وكان علي أن أقاتل معركتي وحيدة ، فلدي كبرياء المرأة وحب الأم لأطفالها ، وصممت أنه من ظلام هذه الساعة سوف يبزغ فجر لامع لهم ، فالسلطة والقانون إلى جانب سيدي ، ولكن لدي إرادة تصميمية وكلاهما فيه القوة .

* * *

١٦

مشـــاهد في المزرعة

في الصباح التالي . . غادرت منزل جدتي باكراً مع طفلتي الصغرى ، وكان ولدي مريضاً فتركته خلفي ... وعندما اهتزت العربة الأخيرة تتابعت في مخيلتي أفكار كثيرة وحزينة ... لقد قاسيت كثيراً وأنا وحيدة والآن صغيري سيعامل كعبد ... ولما مشينا نحو البيت الكبير فكرت في الأيام التي كنت أبعث فيها سابقاً إلى هناك حباً بالإنتقام ، وتساءلت لأي سبب أرسلت الآن ، ولم أستطع أن أجد جواباً ، وصممت على إطاعة الأوامر حتى الآن بقدر ما يتطلبه الواجب ، ولكن في قرارة نفسي قررت على جعل إقامتي أقصر ما يمكن ، وكان السيد « فلنت » ينتظر استقبالنا ، وأخبروني أن ألحق به إلى الطابق العلوي لتلقي الأوامر لذلك اليوم . . تركت صغيرتي « ايلين » في الطابق السفلي في المطبخ ، لقد كانت ذلك تغيراً بالنسبة لها وهي التي كانت دائماً موضع اعتناء كبير ، وقال سيدي الشاب يمكنها أن تلعب في الباحة وكان هذا شيئاً لطيفاً منه لأن الطفلة كانت تكره منظره ، وكان واجبي ترتيب البيت ليكون لائقاً باستقبال العروس .. ففي وسط الشراشف وأغطية الطاولات ، والمناشف وأغطية الأثاث والسجاد كان رأسي مشغولاً بالتخطيط أيضاً كما كانت أصابعي منهمكة بالأبرة وعند الظهر ، سمح لي بالذهاب إلى « ايلين » لقد تنهدتْ كثيراً ثم نامت ، وسمعت السيد « فلنت »

يقول إلى جار له : « لقد أحضرتها إلى هنا ، وسوف أنتزع فوراً نزوات البلدة من رأسها ، إن والدي ملوم جزئياً بسبب هرائها ، كان عليه أن يحطمها منذ مدة طويلة » لقد وقعت تلك الملاحظة على مسمعي وكان من الرجولة لو جعلت في وجهي ، لقد قال أشياء في وجهي يمكن أولا يمكن أن تفاجيء جاره لو عرفها ، لقد كان صورة من أبيه .

صممت ألا أعطيه أي سبب لاتهامي بكوني سيدة بقدر ما كان ذلك يهم بالنسبة للعمل ، عملت ليل نهار والشقاء ماثل أمامي ، وعندما كنت أضطجع إلى جانب طفلتي ، كنت أشعر كم كان سهلاً علي رؤيتها تموت من أن أرى سيدها يضربها ، كما أراه يومياً يضرب باقي الصغيرات . لقد سحق روح الأمهات بالسوط تماماً،حتى أنهن وقفن دون شجاعة للاحتجاج .. آه كم سأعاني قبل أن أصبح محطمة إلى هذا الحد . . .

وأحببت أن أظهر مقنعة قدر المستطاع ، لقد كانت لدي فرصة في بعض الأحيان لإرسال بعض العبارات إلى المنزل ، وهذا أثار ذكريات صارت من الصعب في الوقت الحاضر أن تبدو هادئة وغير مبالية بمصيري ، ورغم جهودي رأيت أن السيد « فلنت » كان ينظر إلي نظرة ارتياب ، أما « ايلين » فقد انهارت أمام تجارب حياتها الجديدة ، وراحت تتجول هنا وهناك وهي منفصلة عني ودون رعاية من أحد وفي أيام قليلة سقطت مريضة ، وذات يوم جلست « ايلين » تحت النافذة حيث كنت مشغولة في العمل وصرخت تلك الصرخة المتعبة التي تجعل قلب الأم ينزف . . جعلني ذلك أختلس الوقت حتى أذهب إليها وأحملها وبعد فترة هدأت وتركتها لأتابع عملي وعندما نظرت إليها وجدتها قد ذهبت . وبما أن الوقت كان قريباً من الظهر جازفت بالنزول للتفتيش

عليها ، وكان البيت الكبير مرتفعاً بمقدار قدمين فوق الأرض ونظرت إلى تحت فرأيتها بعد حوالي منتصف الطريق في سبات عميق فتسللت إلى تحت وسحبتها وعندما حملتها بين ذراعي تمنيت لو أنها لم تستيقظ وأعلنت عن فكرتي بصوت مرتفع وفزعت لسماع أحدهم يقول « هل خاطبتني » فرفعت بصري فرأيت السيد « فلنت » واقفاً إلى جانبي ولم يقل شيئاً غير ذلك ولكنه استدار عابساً ... وفي تلك الليلة أرسل إلى « ايلين » بسكويت وكأساً من الحليب المحلى ، وقد فاجأني هذا الكرم لكني علمت فيما بعد أنه في فترة ما بعد الظهر تم قتل أفعى كبيرة تسللت من تحت المنزل ، واعتقدت أن تلك الحادثة هي التي استدعت لطفه غير العادي .

وفي الصباح التالي حملت العربة القديمة بالألواح الخشبية للبلدة ، فوضعت « ايلين » بها وأرسلتها إلى جدتها. وقال السيد « فلنت » أنه كان يجب أن أستأذنه ، وأجبته أن الطفلة مريضة وتتطلب عناية ليس لدي وقت لإعطائها . . وترك ذلك يمر لأنه كان يعلم بأنني أنجزت عملاً كبيراً في وقت قصير .

مضى علي في المزرعة ثلاثة أسابيع عندما خططت لزيارة المنزل وينبغي أن يكون ذلك في الليل بعد أن يكون الجميع قد أووا إلى فراشهم ، وكنت على مسافة ستة أميال من البلدة وكانت الطريق موحشة وعلي أن أذهب بصحبة رجل شاب كنت أعرف أنه كان دائماً يختلس الوقت في البلدة لرؤية والدته . وذات ليلة عندما كان كل شيء هادئاً بدأنا المسيرة ، وزاد الخوف من سرعة خطواتنا . ووصلت إلى منزل جدتي حيث كانت في غرفة نومها في الطابق الأرضي ، وكانت النافذة مفتوحة لأن الجو دافيء . . تحدثت إليها فاستيقظت وأدخلتني ثم أغلقت

النافذة كيلا يراني بعض المارة المتأخرين . وأحضرت مصباحاً وتجمع أهل المنزل حولي . . كان البعض يبتسم والبعض يصرخ ثم ذهبت لرؤية أطفالي وشكرت الله على نومهم الهادىء . وعندما انحنيت عليهم . ـ ـطت دموعي ، ولما تهيأت للمغادرة هاج ابني « بني » فهمست « الأم هنا » وبعد أن فرك عينيه بقبضته الصغيرة ، انفتحتا وجلس في سريره وهو ينظر إلي بفضول وبعد أن تيقن بأنني كنت معـــه قال : « آه يا أمي أنت لست ميتة هل أنت كذلك ؟ لم يقطعوا رأسك في المزرعة هل فعلوا ذلك ؟ » وكان وقتي قد انتهى وكان دليلي بانتظاري فوضعت « بني » في سريره وجففت دموعه بوعد بأن أعود ثانية في أقرب وقت ، وبسرعة خطونا خطوات العودة إلى المزرعة وفي منتصف الطريق قابلتنا جماعة من أربع دوريات . ولحسن الحظ سمعنا وقع حوافر خيولهم قبل أن يظهروا للعيان فكان لدينا وقت للاختفاء وراء شجرة كبيرة ، ومروا هاتفين وصارخين بطريقة دلت على احتفال حديث مخمور .

وقد شكرنا الله على أن كلابهم لم تكن معهم ثم حثثنا الخطى ولما وصلنا المزرعة سمعنا صوت الطاحونة اليدوية ، لقد كان العبيد يطحنون قمحهم ووصلنا إلى البيت بسلام قبل أن يدعوهم البوق إلى عملهم . وقد قسمت حقيبة الطعام الصغيرة بيني وبين دليلي مدركة أنه قد أضاع فرصة طحن قمحه ويجب عليه أن يكدح طيلة اليوم في الحقل .

وكان السيد « فلنت » غالباً ما يتفقد البيت ليرى أنه ليس هناك من كسول ، لقد عهد إلي بترتيب البيت بكامله لأنه لم يكن يعرف شيئاً عنه ، وبدلاً من استئجار مراقب أرضى نفسه بترتيباتي .

وبعد مضي شهر في المزرعة ، جاءت عمة السيد « فلنت » الكبرى لزيارته ، لقد كانت هذه السيدة الطيبة العجوز هي التي دفعت لجدتي خمسين دولاراً بقصد جعلها حرة عندما وقفت على عتبة المزاد وأحبت جدتي هذه العجوز التي كنا نناديها جميعاً بالآنسة « فاني » وكانت غالباً ما تأتي لتناول الشاي معنا ، وهكذا كانت تغطى الطاولة بقماش أبيض كالثلج مع فناجين الصيني والملاعق الفضية التي تؤخذ من الخزانة القديمة وكانت هناك فطائر ساخنة وبسكويت الشاي ومربيات حامة ، وكانت جدتي تمتلك بقرتين وكانت القشدة الطازجة مبعث سرور للآنسة « فاني » حيث تصرح دائماً أنها الأفضل في البلدة ، وكانت للسيدات العجائز أوقات دافئة بحيث يعملن ويثرثرن في بعض الأحيان وهن يتحدثن عن ذكريات الماضي بينما نظاراتهن تتغشاها الدموع بحيث يكون من الضروري تجفيفها وتلميعها ، ولما ودعتنا الآنسة « فاني » كانت حقيبتها ملأى بأفضل أنواع الكعك التي قدمتها لها جدتي ورجوناها العودة ثانية في وقت قريب .

وفي بعض الأوقات كانت زوجة الدكتور « فلنت » تزورنا فيها لتناول الشاي معنا وكان أطفالها يذهبون إلى وليمة (العمة مارثي) ، ولكن بعد أن أصبحت أنا هدفاً لغيرتها وحقدها غضبت من جدتي لأنها أعطتني ملجأ لي ولأطفالي . . لقد غضبت بحيث أصبحت لاتكلمها حتى ولو رأتها في الشارع مما أدى إلى جرح مشاعر جدتي لأنها لم تستطع أن تتحمل المعاملة غير الحسنة من جانب المرأة التي غذتها بحليبها عندما كانت طفلة ، ولقد يكون من دواعي سرور زوجة الدكتور لو استطاعت منع اختلاطنا بالآنسة « فاني ولكن لحسن الحظ لم تكن « فاني » تعتمد على سخاء عائلة « فلنت » إذ كان لديها ما يكفي لجعلها

مستقلة وذلك كان أكثر مما يحصل عليه عادة من الإحسان مهما كان مفرطاً .

كنت أحب الآنسة « فاني » وتسرني ذكرياتي معها كما تسرني رؤيتها في المزرعة ، لقد أدفأ قلبها الكبير البيت بحيث أصبح بهيجاً وهي فيه ، ومكثت لدينا أسبوعاً وكانت لي أحاديث عديدة معها . قالت إن هدفها الرئيسي من القدوم معرفة كيف تجري معاملتي وما إذا كان من الممكن صنع شيء من أجلي ، وتساءلت ما إذا كانت تستطيع مساعدتي بأي سبيل . وقلت لها لا أعتقد أن هناك سبيلاً وراحت تسليني بطريقتها العجيبة قائلة إنها ترغب أن أكون أنا وكافة عائلة جدتي في راحة في قبورنا لأنها لن تستطيع الشعور بالراحة من أجلنا قبل ذلك ، ولم تكن تعلم هذه الروح الطيبة القديمة أنني كنت أخطط لمنحها السلام بالنسبة لنفسي ولأطفالي ، ولكن ليس بالموت بل بتأمين حريتنا .

ومرة أخرى ، اجتزت تلك الأميال الموحشة إلى البلدة ومنها ، وكنت طيلة المسيرة أفكر ببعض وسائل الهرب لنفسي ولأطفالي ، وبذلت صديقاتي جهداً كبيراً لتنفيذ شرائنا ، ولكن كل مخططهن فشل لأن الدكتور « فلنت » كان متشككاً ومصمماً ألا يرخي قبضته عنا ، وكان من الممكن أن أهرب بشكل افرادي ولكن الأمر الأكثر أهمية هو أطفالي اليائسون رغم اشتياقي للحرية ... ومع أن الأمنية لذيذة وفوق كل ثمن إلا أنني لم أكن لألجأ إليها على حساب تركهم في العبودية ، وكل تجربة تحملتها وتضحية قدمتها من أجلهم كانت تقربهم أكثر إلى قلبي ، بحيث منحت شجاعة جديدة لصد الموجات المظلمة التي كانت تتدفق علي فيما يبدو أنه ليل بلا نهاية من العواصف .

وعندما انتهت الأسابيع الستة تقريباً حان موعد قدوم عروس السيد « فلنت » لتأخذ مكانها في حيازة منزلها الجديد ، وقد تمت الترتيبات كلها وقال السيد « فلنت » إنني قمت بعملي بشكل جيد ، وتوقع أن يغادر المنزل يوم السبت ويعود مع عروسه يوم الأربعاء التالي . . وبعد تلقي عدة أوامر منه تجرأت على طلب السماح بقضاء الأحد في البلدة ، فوافق على ذلك مما جعلني أعترف بالشكر ، فلقد كان أول طلب وجهته إليه ، وصممت على أن يكون الأخير . . لقد تطلب المشروع الذي في ذهني أكثر من ليلة ولكن نهار الأحد بكامله سيعطيني فرصة ، وقضيت السبت مع جدتي وكان يوماً هادئاً وأكثر جمالاً بحيث لم يأت مثله من السماء ، وبالنسبة لي كان يوم عواطف متضاربة ، وربما كان اليوم الأخير الذي يجب أن أقضيه تحت ذلك السقف القديم الحامي العزيز وربما كانت هذه آخر مرة للحديث أحصل عليها من أخلص صديقة في حياتي بكاملها ، وربما كان الوقت الأخير الذي سنكون فيه أنا وأطفالي معاً ، لقد قلت لنفسي « حسناً ، الأفضل كذلك » وهذا أفضل من أن يكونوا جميعاً عبيداً إنني أعلم المصير الذي ينتظر طفلتي الجميلة في العبودية وصممت على إنقاذها منه أو أهلك في المحاولة . وذهبت لأقطع عهداً بذلك على قبر والديّ المسكينين في مدفن العبيد « هناك السجناء يستريحون معاً ، وهناك يكف الشرير عن الازعاج ، ويصبح المتعب في راحة ، لا يسمعون صوت المضطهد ، فالخادم حر عن سيده » .

وركعت قرب قبر والدي وشكرت الله كما فعلت ذلك من قبل ، إنهما لم يعيشا ليشهدا تجاربي أو ليحزنا نتيجة لخطيئاتي ، لقد تلقيت البركات من والدتي وهي على فراش الموت ، وفي كثير من المحن أسمع

صوتها موبخاً في بعض الأحيان وهامساً كلمات الحب في قلبي الجريح أحياناً أخرى . لقد ذرفت دموعاً غزيرة ومريرة لظني أنني عندما أغادر أطفالي فلن يتذكروني بنفس الرضى التام الذي أتذكر به والدتي .

وكانت المقبرة في الغابات وكان الغسق يتسلل ، ولا شيء خرق السكون الذي يشبه الموت عدا زقزقة العصافير ولكن روحي كانت فزعة بوقار المشهد ، وقد ترددت على هذا الموقع لأكثر من عشر سنوات ولكن لم يبد لي أبداً بمثل القداسة الحالية ، « عقب أسود كان على رأس قبر والدتي وهو ما بقي من شجرة كان والدي قد غرسها ، وكان على قبره علامة لوح خشبي صغير يحمل اسمه الذي طمست أحرفه أو كادت » وركعت وقبلتها ، وصليت لله لإرشادي ودعمي في الخطوة الخطرة التي كنت على وشك أن أخطوها ، وعندما مررت بحطام بيت الإجتماع القديم حيث كان مسموحاً للعبيد قبل عهد « نات ترنر » أن يجتمعوا للعبادة ، تخيلت أن صوت والدي ينبعث منه ويأمرني ألا أتوانى حتى أصل إلى الحرية أو القبر ، فاندفعت بآمال متجددة ، لقد قويت صلتي بالله بتلك الصلاة بين القبور .

كانت خطتي تقتضي أن أخفي نفسي في بيت صديقتي ، وأظل هناك بضعة أسابيع حتى ينتهي التفتيش وأملي أن الدكتور سوف يكل عزمه خشية ضياع ثمني ، وكذلك بالتالي وجود أطفالي من غير معين فسوف يرضى ببيعنا ، وأنا أعرف أن شخصاً ما سوف يشترينا ، ولقد فعلت كل ما في طاقتي لأجعل أطفالي في راحة طيلة الوقت الذي توقعت أن أكون فيه منفصلة عنهم ، كنت أحزم أمتعتي عندما جاءت جدتي إلى الغرفة وسألت عما أفعل ، فأجبت « إنني أرتب أمتعتي » وحاولت أن أبدو مرحة وأنا أتكلم ، ولكن عينها المتيقظة استشفت شيئاً ما في

الخفاء ، فجذبتني إليها وسألتني أن أجلس ، ونظرت إلي بجد قائلة : « ليندا ، هل تريدين قتل جدتك ؟ هل تعنين أن تغادري أطفالك الصغار اليائسين ؟ إنني عجوز الآن ولا أستطيع أن أصنع لأطفالك ما صنعته لك ذات يوم » .

وأجبت : «إنني إذا ما ذهبت ربما يكون والدهم قادراً على تأمين حريتهم » .

قالت جدتي « آه ، يا طفلتي ، لا تثقي به كثيراً ، ابقي مع أطفالك وقاسي معهم حتى الموت. لا أحد يحترم الأم التي تنبذ أطفالها، وإذا ما غادرتهم فسوف لا تحصلين على لحظة سعادة أبداً ، وإذا ما ذهبت سوف تجعليني يائسة في الفترة الباقية من حياتي ، وسوف تعتقلين وتجلبين إلى هنا ، وستكون معاناتك رهيبة ، تذكري بينامين المسكين . تخلي عن فكرتك يا ليندا . حاولي أن تتحملي أكثر قليلاً ، يمكن للأشياء أن تتحول إلى أفضل مما نتوقع » .

خانتني شجاعتي بسبب الحزن الذي سوف أجلبه على ذلك القلب المخلص والكبير والحبيب ووعدت بأن أحاول أكثر ، وأن لا آخذ معي شيئاً من منزلها دون معرفتها .

وعندما تسلق الأطفال على ركبتي ، ووضعوا رؤوسهم في حجري قالت : « مسكينة هذه الأرواح الصغيرة ، ستكون دون أم ، هي لا تحبكم كما أحبكم » ثم ضمتهم إلى صدرها وكأنما توبخني بسبب قلة محبتي لهم ، ولكنها عرفت طيلة الوقت أنني أحببتهم أكثر من حياتي ، نمت معهم تلك الليلة للمرة الأخيرة ، إن ذكراها تعاودني في الكثير من السنوات .

وفي يوم الاثنين . رجعت إلى المزرعة ، وأشغلت نفسي بالتحضير لليوم الهام ، وجاء يوم الأربعاء وكان يوماً جميلاً ، وكانت وجوه العبيد تلمع كشعاع الشمس ، كانت تلك المخلوقات المسكينة سعيدة ، وكانوا يتوقعون هدايا صغيرة من العروس . ويأملون أوقاتاً أفضل تحت إدارتها أما أنا فلم أكن أتوقع مثل هذه الآمال ... لقد عرفت أن زوجات مالكي العبيد الشابات يعتقدن غالباً أن سلطتهن وأهميتهن تدعم بشكل أفضل عن طريق القسوة ، وما سمعته من السيدة « فلنت » الشابة لم يعطني أي أمل في أن يكون تحكمها في العبيد أقل قوة من السيد « فلنت » والمراقب.وفي الحق فان أفراد العرق الملون يعتبرون أكثر الشعوب مرحاً وتسامحاً على وجه البسيطة . وكون أسيادهم ينامون مطمئنين عائد لفائض قلوبهم ، ومع ذلك فهم ينظرون إلى معاناتهم بشفقة أقل مما ينظرون إلى الحصان أو الكلب .

وقفت على الباب مع الآخرين لاستقبال العروس والعريس ، لقد كانت فتاة جميلة ورقيقة ، وقد تورد وجهها خجلاً بالعاطفة لدى رؤية منزلها الجديد ، وظنت أن من المحتمل أن تشرق شمس المستقبل السعيد أمامها ، وحزنت لأنني أدركت كم سيغطي الضباب سريعاً شعاع شمسها ، لقد تفحصت كل جزء من البيت ، وأعلمتني أنها سرت بالترتيبات التي أجريتها . وخشيت أن تكون السيدة « فلنت » العجوز قد حاولت أن تحرضها علي . ففعلت ما بوسعي لإرضائها .

وتم كل شيء بسهولة بالنسبة لي حتى حان موعد الغداء ، وشعرت بارتباك كبير أثناء الانتظار على مائدة الغداء للمرة الأولى في حياتي ونصف ذلك يعود إلى اجتماعي بالدكتور « فلنت» وزوجته اللذين سيكونان ضمن الضيوف . كان شيئاً غامضاً بالنسبة لي أن السيدة

« فلنت » لم تظهر في المزرعة أثناء قيامي بترتيب المنزل ، ولم أقابلها وجهاً لوجه لخمس سنوات ، وليست بي رغبة في أن أراها الآن ، كانت امرأة صلاة ، ودون شك اعتبرت وضعي الحالي جواباً خاصاً على صلواتها ، ولم يكن شيء ليرضيها أكثر من أن تراني ذليلة ومسحوقة ، لقد كنت تماماً حيث كانت تريدني في قبضة سيد قاس عديم المبادىء ، لم تتحدث إلي عندما جلست إلى الطاولة ، ولكن ابتسامتها الراضية ، الظافرة عندما ناولتها الصحن كانت أكثر تعبيراً من الكلام ، ولم يكن الدكتور العجوز هادئاً تماماً في مظهره وأخذ يأمرني هنا وهناك ، وتحدث بتأكيد غريب عندما قال « سيدتك » لقد كنت أتدرب كجندي مثلوم وعندما انتهى كل شيء وأدير المفتاح ، نشدت وسادتي شاكرة لنعمة الله أن خصص موسماً لراحة المتعبين .

وفي اليوم التالي بدأت سيدتي الجديدة إدارة منزلها ، ورغم أني لم أعين تماماً خادمة لجميع أعمالها إلا أنه كان علي أن أفعل كل ما يطلب إلي ، وجاء مساء الاثنين ، لقد كان دائماً وقتاً مزدحماً بالعمل ، وفي تلك الليلة ، كان العبيد يتلقون علاواتهم الأسبوعية من الطعام : ثلاثة أرطال من اللحم ، مكيال قمح ، وربما دزينة من السمك (هرينغ) لكل رجل أما النسوة فكن يتسلمن رطلاً ونصفاً من اللحم ، مكيالاً من القمح ونصف العدد من (الهرينغ) أما الأطفال فوق ١٢ سنة فكان لهم نصف العلاوة المخصصة للنساء ، وكان اللحم يقطع ويوزن من قبل مراقب العمال في الحقل ، ويسلم ويكوم على ألواح الخشب أمام بيت اللحم ، ثم يذهب المراقب الثاني خلف البناء ، وعندما ينادي المراقب الأول : « من يأخذ هذه القطعة من اللحم ؟ » يجيب بالمناداة على اسم بعضهم وكان يلجأ إلى هذه الطريقة كوسيلة من وسائل منع

التحيز في توزيع اللحم . وأنت السيدة الجديدة لترى كيف تسير الأمور في مزرعتها . وأعطت على الفور نموذجاً من أخلاقها ، فمن بين أولئك المنتظرين علاواتهم كان هناك عبد عجوز ، خدم عائلة « فلنت» ثلاثة أجيال ، وعندما نهض ليحصل على قطعته من اللحم قالت السيدة أنه عجوز لدرجة لا يستحق معها علاوة ، وأن العبيد عندما يكونون عجائز جداً لا يستطيعون العمل فعليهم أن يتغذوا بالعشب ، مسكين ذلك الرجل العجوز ، لقد عانى كثيراً قبل أن يجد الراحة في القبر .

كنت وسيدتي على انسجام تام ، ففي نهاية الأسبوع قامت السيدة « فلنت » العجوز بزيارة ثانية لنا ، واختلت بزوجة ابنها ، ورحت أتشكك في موضوع هذا المؤتمر ، لقد تم إعلام زوجة الدكتور العجوز أنني أستطيع مغادرة المزرعة بشرط واحد ، وأنها كانت ترغب في الاحتفاظ بي هناك إذا ما وثقت بي كما أستحق أن أكون موضع ثقة لها ، فهي ليس لديها مخاوف من قبولي ذلك الشرط ، وعندما دخلت عربتها للعودة إلى المنزل قالت للسيدة « فلنت » الشابة « لا تنسي طلبهم وبأسرع ما يمكن » لقد كان قلبي متيقظاً طيلة الوقت ، واستنتجت فوراً أنها كانت تتحدث عن أطفالي ، وجاء الدكتور في اليوم التالي ، وحالما دخلت الغرفة لتهيئة طاولة الشاي ، سمعته يقول : « لا تنتظروا أكثر ، أرسلوا في طلبهم غداً » لقد تحققت من الخطة ، لقد اعتقدوا أن وجود أولادي هناك سوف يقيدني في الموضع ، وأنه كان مكاناً جيداً لتجميعنا كلنا من أجل إذلالنا وقبولنا بما قسمه الله لنا كعبيد ، وبعد مغادرة الدكتور أتى أحد السادة ، وكان دائماً يظهر مشاعر ودية نحو جدتي وعائلتها ، لقد جاء به السيد « فلنت » الابن إلى المزرعة ليعرض عليه نتائج العمل المنجز من قبل الرجال والنساء الذين كانوا

يعملون دون أجر ، ويرتدون رث الثياب وهم نصف جائعين ، كان جل ما يفكرون فيه هو محصول القطن . وقد تم الاستحسان في حينه ، وعاد السيد بنماذج لإطلاع أصدقائه . وأمرت أن أحمل الماء إليه ليغسل يديه ، وبينما كنت أقوم بذلك قال : « ليندا ، كيف أنت في منزلك الجديد ؟ » فأخبرته أنني أحببته تماماً كما توقعت وأجاب « هم لا يعتقدون أنك راضية . وغداً سوف يجلبون أطفالك ليعيشوا معك ، إنني آسف من أجلك يا ليندا ، وآمل أن يعاملوك بلطف » وأسرعت بالخروج من الغرفة غير قادرة على شكره .لقد صحت ظنوني، سوف يجلبون أطفالي إلى المزرعة من أجل سحقهم .

وإلى هذا اليوم ، أشعر بالشكر للسيد الذي أعطاني هذه المعلومات في الوقت المناسب . لقد نبهتني هذه المعلومات إلى العمل الفوري .

* * *

١٧

الهروب

لقد دفع السيد « فلنت » كثيراً لحاجته إلى خدم في البيوت ، وخوفاً من أن يفقدني فقد كبح حقده ولكني قمت بعملي باخلاص مع أني كنت مشغولة التفكير ، ومن الواضح أنهم كانوا يخشون مغادرة أطفالي، ورغب السيد « فلنت » أن أنام في البيت الكبير بدلاً من النوم في أحياء الخدم ، ووافقت زوجته على الاقتراح ، ولكنها قالت بأنه يجب ألا أحضر فراشي إلى المنزل لأن ذلك سوف ينثر الريش على السجاد الخاص بها ، وعرفت عندما ذهبت هناك أنهم لم يفكروا في مثل تلك الأشياء ، كتهيئة فراش لي ولطفلتي الصغيرة من أي نوع ، ولذلك حملت فراشي الذي حرم علي استعماله ، وفعلت حسب ما أمرت به ، ولكن الآن وقد أصبحت متأكدة من أن الأطفال سوف يوضعون تحت سلطتهم لإعطائهم قبضة أقوى علي عزمت على مغادرتهم في تلك الليلة ، وتذكرت الحزن الذي سوف تسببه هذه الخطوة لجدتي العزيزة العجوز ، ولا أعتقد أن هناك شيئاً يدفعني إلى طرح نصيحتها جانباً سوى حرية أطفالي. وذهبت إلى عملي المسائي بخطى مرتجفة ، ونادى السيد « فانت » من باب غرفته مرتين ليستعلم لماذا لم يقفل الباب ، وأجبت أنني لم أتم عملي ، وقال هو : « كان لديك وقت كاف للقيام بذلك ، انتبهي لطريقة إجابتك لي . . . » .

أغلقت كافة النوافذ ، وأقفلت كافة الأبواب ، وذهبت إلى الطابق الثالث لأنتظر حتى منتصف الليل ، كم بدت تلك الساعات طويلة ، وكم صليت بحماس ألا يهجرني الله في هذه الساعة وأنا أشد ما أكون بحاجة إليه ، وكنت على وشك المجازفة بكل شيء وأنا على رمية من الموت ، وإذا ما فشلت آه ماذا سيكون من شأني وشأن أطفالي المساكين ؟ كم سيعانون نتيجة خطئي .

وعند الساعة ١٢,٣٠ تسللت خلسة إلى الطابق السفلي ، وتوقفت في الدور الثاني ظناً مني أنني سمعت صوتاً ، ثم تلمست طريقي إلى الأسفل، إلى الردهة ، ونظرت من خلال النافذة، كان الليل مظلماً بشكل كثيف حتى أنني لم أستطع أن أرى شيئاً ، فتحت الشباك بهدوء وقفزت إلى الخارج حيث كانت قطرات كبيرة من المطر تهطل ، وأرهبني الظلام ثم زحفت على ركبتي ، وتنفست بصلاة قصيرة إلى الله كي يرشدني ويحميني ، ثم تلمست دربي إلى الطريق واندفعت باتجاه البلدة بسرعة البرق تقريباً حتى وصلت إلى منزل جدتي ، ولكني لم أجرؤ على رؤيتها لأنها كانت ستقول « ليندا ، إنك تقتليني » وكان ذلك سيفقدني شجاعتي .

نقرت نقرة خفيفة على شباك الغرفة التي تحتلها امرأة عاشت في البيت عدة سنوات ، عرفت أنها كانت صديقة مخلصة ، ويمكن إيداع سري لديها بثقة . . نقرت عدة مرات قبل أن تسمعني وأخيراً فتحت الشباك وهمست أنا : « سالي لقد هربت دعيني أدخل بسرعة » وفتحت الباب بلطف وقالت بلهجة منخفضة : « لأجل الله لا تفعلي ذلك ، إن جدتك تحاول شراءك وشراء أطفالك . كان السيد ساندز هنا في الأسبوع

الماضي . وأخبرها أنه كان ذاهباً في رحلة عمل ، ولكنه أرادها أن تستمر في شرائك وشراء الأطفال . وهو سيساعدها بقدر ما يستطيع ، لا تهربي يا ليندا ، إن جدتك غارقة في المتاعب الآن » .

وأجبت : « سالي : انهم سيحملون أطفالي إلى المزرعة غداً ، ولن يبيعوهم لأي كان طالما أنني تحت سلطتهم ، الآن تنصحيني بالعودة ؟ » .

فأجابتني : « كلا يا طفلتي ، كلا ، عندما يجدون أنك قد ذهبت فلا يريدون قدوم الأطفال ، ولكن قولي أين سوف تختبئين ، هم يعرفون كل بوصة في هذا المنزل » .

وأخبرتها أن لدي مكاناً للاختفاء ، وكان ذلك أهم ما كانت تريد معرفته ، طلبت إليها أن تذهب إلى غرفتي حالما يحل الضياء وأن تأخذ كل ملابسي من الخزانة وتحزمها في خزانتها لأنني أعرف أن السيد « فلنت » والشرطي سيكونان هناك مبكرين لتفتيش غرفتي ، خشيت أن يكون مشهد أطفالي أكبر من أن يتحمله قلبي المفعم ، ولكن لم اشأ أن أذهب إلى مستقبل غير مضمون دون إلقاء النظرة الأخيرة .

انحنيت على الفراش حيث « بني » الصغير و « ايلين » الطفلة . مساكين هؤلاء الصغار لا أب ولا أم وطافت ذكريات والدهم في ذهني ، أراد أن يكون لطيفاً معهم ولكن لم يكونوا كلهم له لما كانوا بالنسبة لقلبي وأمومتي ، انحنيت وصليت من أجل النائمين الصغار الأبرياء ثم قبلتهم بلطف واستدرت ذاهبة .

وحينما كنت أحاول فتح الباب للشارع ، وضعت سالي يدها على كتفي وقالت : « ليندا ، هل تذهبين بمفردك ؟ دعيني أخبر خالك » .

أجبتها « كلا يا سالي ، لا أريد لأحد أن يتعرض للمتاعب بسببي » وتقدمت في الظلام والمطر ومشيت حتى وصلت بيت صديقتي التي كانت ستخبئني ، وفي الصباح الباكر ، كان السيد « فلنت » في منزل جدتي مستفسراً عني وأخبرته أنها لم ترني وافترضت أنني في المزرعة . وراقب وجهها عن كثب قائلاً « ألا تعرفين أي شيء عن هروبها ؟ » فأكدت له أنها لا تعرف فاستمر يقول « الليلة الماضية هربت دون إشارة . لقد عاملناها بلطف زائد ، وزوجتي أحبتها ، سوف نجدها فوراً وسوف تعاد ، هل الأطفال معك ؟ » وعندما أخبرته أنهم هناك قال « أنا مسرور جداً لأن أسمع ذلك . فاذا كانوا هنا فهي لا تستطيع أن تكون بعيدة ، وإذا وجدت أن أحداً من عبيدي له يد في هذه القضية فسوف أجلده خمسائة جلدة » وحالما شرع في الذهاب إلى منزل والده ، التفت وأضاف بصورة مغرية « دعيها تعود وسنجعل أطفالها يعيشون معها » .

هذه الأنباء جعلت الدكتور العجوز يهتاج ويغضب بشكل عنيف، وكان يوماً عاصفاً بالنسبة لهم ، فلقد تم تفتيش بيت جدتي من القمة إلى القاعدة ، وبما أن خزانتي كانت خاوية فقد استنتجوا أنني قد أخذت ملابسي معي ، وقبل الساعة العاشرة فحصت كل سفينة باتجاه الشمال بعناية وجرت قراءة القانون ضد اختفاء الهاربين أمام كل من على ظهرها، وفي الليل فرضت حراسة على البلدة ولمعرفتي كم كانت جدتي حزينة ومغمومة أردت أن أبعث إليها برسالة ، ولكن لم يكن تنفيذ ذلك ممكناً ، فكل من يذهب إلى بيتها أو يخرج منه يخضع للمراقبة عن كثب ، وقال الدكتور أنه سوف يأخذ أطفالي ما لم تكن هي مسؤولة عنهم والذي فعلته هي بالطبع عن طيبة خاطر ، وانقضى اليوم التالي في التفتيش وقبل

حلول الليل جرى تعليق الإعلان التالي في كل زاوية ومكان عام على بعد أميال .

« جائزة ٣٠٠ دولار ، هربت من المشترك فتاة ذكية ، لامعة ، مولدة اسمها ليندا عمرها ٢١ سنة طولها خمس أقدام وأربعة بوصات ، عيناها سوداوان ، شعرها أسود يميل إلى التجعيد ، ولكن يمكن أن يجعل مستقيماً ؛ لها موضع نخر في السن الأمامية ، تستطيع القراءة والكتابة ، وعلى الأرجح ستحاول السفر إلى الولايات الحرة ، يحظر على كافة الأشخاص تحت طائلة القانون أن يؤوا أو يستخدموا الأمة المذكورة ، وستعطى ١٥٠ دولاراً لمن يجدها في الولاية و ٣٠٠ دولارٍ لمن يجدها خارج الولاية ويسلمها لي أو يودعها السجن » .

الدكتور « فلنت »

* * *

١٨

اشهر الخطر

ظل البحث عني مستمراً لأكثر مما توقعت ، بدأت أفكر ان الهروب كان مستحيلاً كنت في قلق عظيم لئلا أضايق الصديقة التي آوتني ، وعرفت أن النتائج ستكون وخيمة ، وأكثر ما خشيت أن يلقى القبض علي ، وبدا لي ذلك أفضل من التسبب في معاناة شخص بريء لقاء لطفه معي .

مر أسبوع من القلق عندما أتى مطارديّ إلى ضاحية قريبة ، واستنتجت أنهم قد اهتدوا إلى مكان اختفائي ، فهربت من المنزل وأخفيت نفسي بين أغصان كثيفة حيث بقيت هناك في نزاع مع الموت لمدة ساعتين ، وفجأة لدغت إحدى الزواحف مـــن نوع ما رجلي ، ولفزعي وجهت ضربة أرخت زعامتها ولكن لا أستطيع القول بأنني قتلتها ، لقد كانت قاتمة جداً ولم أستطع أن أرى ما هي وعرفت فقط أنها كانت شيئاً ما بارداً ولزجاً ، والألم الذي شعرت به فوراً دل على أن العضة كانت مسمومة ، واضطررت لمغادرة مكان اختفائي ، وتلمست طريقي عائدة إلى المنزل ، وازداد الألم وفزعت صديقتي من نظرتي المبرحة . لقد طلبت إليها أن تحضر لي مادة مؤلفة من رماد وخل دافيء ووضعتها على ساقي التي سبق وانتفخت ، وأعطاني تطبيقها بعض الإسعاف . ولكن الالتهاب لم يخف وكان خوفي من أن أصبح

غير قادرة أكبر من الألم المادي الذي تحملته . وطلبت صديقتي إلى امرأة عجوز كانت تجري التطبيب بين العبيد أن تخبرها ما الذي يفيد في علاج لدغة الأفعى أو السحلية وأخبرتها أن تغمس دزينة نحاس في الخل طيلة الليل وتطبق الخل المنقوع على الجزء الملتهب(*) .

لقد نجحت في إرسال بعض الرسائل بحذر إلى أقاربي ، وقد تم تهديدهم بصورة فظة ، وليأسهم من وجود أية فرصة للهرب نصحوني بالعودة إلى سيدي ، وطلب السماح منه ، وأن يجعل مني مثالاً ، ولكن هذه النصيحة لم يكن لها أي تأثير علي ، وعندما تعودت هذا الخطر ، صممت انه مهما حدث ، فلن تكون هناك عودة ، فلقد كان شعاري « أعطني الحرية أو أعطني الموت » .

وعندما حاولت صديقتي أن تخبر أقاربي بحالي الموجعة التي كنت عليها لمدة ٢٤ ساعة لم يقولوا أكثر من ضرورة عودتي لسيدي وهو الشيء الذي كان يجب عمله بسرعة ولكن إلى أين أتجه طلباً للمساعدة ؟ ولم يعرفوا أنه « يوجد الصديق وقت الضيق » من رحمة الله .

من بين السيدات اللواتي كن يعرفن جدتي ، كان هناك واحدة ممن عرفتها منذ الطفولة وكانت السيدات دائماً صاحبات مودة لها ، وقد عرفت هي أمي أيضاً وأطفالها ، وشعرت بالاهتمام بهن في أزمة الأحوال هذه ، فجاءت لترى جدتي ، وإن كانت لا تفعل ذلك تكراراً ،

(*) إن سم الأفعى حامض قوي ، ويجابه بالقلويات الشديدة مثل البوتاس ، والنشادر إلخ ... والهنود معتادون على تطبيق الرماد الطري أو تغطيس العضو في مكمن قوي ، الرجال البيض المستخدمون في وضع خطوط حديدية في الأماكن التي تتواجد فيها الأفاعي ، غالباً ما يحملون معهم نشادراً كترياق .

« ال . ام . مي »

ولاحظت التعبير الحزين والمضطرب على وجهها ، وسألت ما إذا كانت تعرف مكان ليندا وما إذا كانت سالمة ، فهزت جدتي رأسها دون أن تجيب ، وقالت السيدة اللطيفة « تعالي أيتها العمة مارتا ، أخبريني بكل ما هنالك ، ربما أستطيع أن أصنع شيئاً ما لمساعدتك » .. وكان زوج هذه السيدة يمتلك عدة عبيد ، وكان يشتري ويبيع العبيد ، وهي أيضاً ملكت عدداً باسمها الخاص ولكنها كانت تعاملهم بلطف ولم تسمح لأي منهم أن يباع . لقد كانت على عكس غالبية زوجات مالكي العبيد . ونظرت جدتي بجد إليها وكان في وجهها شيء يقول : « ثقي بي » وهي وثقت بها ، وأصغت السيدة بانتباه إلى تفاصيل قصتي ، وجلست تفكر قليلاً ، وأخيراً قالت : « أيتها العمة مارتا ، إنني أرثي لكليكما ، إذا وجدت أن هناك فرصة لوصول ليندا إلى الولايات الحرة ، فسوف أخفيها لوقت ما ، ولكن عليك أولاً أن تعديني بوقار أنه لن يذكر اسمي ، فاذا ما عرف شيء من كل هذا فسيدمرني وعائلتي . ويجب ألا يعرف أحد في منزلي بذلك عدا الطباخة التي هي مخلصة جداً حتى أنني أضع حياتي بثقة بين يديها ، وأعرف أنها تحب ليندا ، إنها لمخاطرة كبيرة ، ولكنني واثقة أنه لا ضرر سينجم عنها ، أرسلي خبراً إلى ليندا أن تستعد حالما يهبط الظلام وقبل أن تخرج الدوريات ، وسأرسل الخدم في مهام . و « بتي » تذهب لتقابل « ليندا » .

وتم تحديد المكان الذي سنلتقي فيه ، ولم تكن جدتي قادرة على شكر السيدة لهذا العمل النبيل ، لكنها جثت على ركبتيها متأثرة بعواطفها ، وتنهدت كطفلة . وتلقيت رسالة لأغادر منزل صديقتي في الساعة المعينة ، وأن أذهب إلى مكان معين حيث تكون صديقة في انتظاري ، وزيادة في الحذر لم يذكر أي اسم ، ولم يكن لدي وسائل تخمين عمن

سأقابل أو أين كنت ذاهبة ، ولم أكن أحب أن أذهب هكذا معصوبة العينين . ولكن لم يكن لدي أي خيار . فلم يكن من الصواب بقائي حيث كنت تقنعت ، واستجمعت شجاعتي لملاقاة الأسوأ وذهبت إلى المكان المعين ، وكانت صديقتي « بتي » هناك. لقد كانت آخر شخص توقعت رؤيته ، وأسرعنا في صمت ، وكان الألم في ساقي فظيعاً بحيث بدا وكأنني على وشك السقوط ، ولكن الخوف منحني الشجاعة ، وصلنا البيت ، ودخلنا غير مكشوفتين ، وكانت أولى كلماتها : « عزيزتي . أنت الآن في أمان ، لأن الشياطين لا يأتون لتفتيش هذا المنزل ، لقد أحضرتك إلى مكان سالم بعيد . سأجلب لك عشاءً ساخناً لطيفاً ، لأنني أتوقع أنك تحتاجين بعد كل هذا الجهد إلى الطعام » إن نداء « بتي » الباطني قادها لأن تفكر في الأكل كأهم شيء في الحياة ، وهي لم تدرك ان قلبي لم يكن خالياً إلى حد التفكير في العشاء .

أتت هذه السيدة لمقابلتنا ، وقادتني إلى الطابق العلوي إلى غرفة فوق شقة نومها قائلة : « ستكونين هنا في أمان يا ليندا ، إنني أحتفظ بهذه الغرفة لتخزين الأشياء التي ليست في التداول وليس من عادة البنات التوجه إليها وهن لا يشتبهن بأي شيء مالم يسمعن بعض الضجيج ، فالغرفة دائماً مغلقة . و « بتي » ستكون مسؤولة عن المفتاح ، ولكن يجب أن تظلي حذرة من أجلي كما هو من أجلك ، ويجب ألا تذيعي سري لأن ذلك سيدمرني وعائلتي ، وسأشغل البنات في الصباح لتكون لدى « بتي » الفرصة لجلب الفطور إليك ، على أنها سوف لا تتمكن من القدوم إليك مرة أخرى حتى الليل . سآتي لرؤيتك في بعض الأحيان ، تمسكي بشجاعتك وآمل أن هذه الحال لن تستمر طويلاً » .

وأتت « بتي » تحمل عشاءً ساخناً لطيفاً ، وأسرعت السيدة إلى الطابق السفلي لترتيب الأشياء ثم عادت ... لا أعرف كيف طفح قلبي بالعرفان بالجميل ، واختنقت الكلمات في حلقي ، ولكني استطعت أن أقبل قدميّ محسنتي على ذلك العمل من هذه المرأة المسيحية ، حقاً لعل الله يباركها إلى الأبد .

وذهبت للنوم في تلك الليلة شاعرة بأني كنت في ذلك الوقت أكثر الإماء حظاً في البلدة ، وأتى الصباح يملأ زنزانتي الصغيرة نوراً ، وشكرت رب السماء لهذا الملجأ الأمين ، لقد برزت قبالة نافذتي كومة من فراش الريش وعلى قمتها استطعت الاضطجاع غير ظاهرة للعيان أبداً وأنا أراقب مشهداً في الشارع . ومر الدكتور « فلنت » إلى مكتبه ، ورغم أني كنت قلقة إلا أني شعرت بومضة رضى عندما رأيته ، لقد تفوقت عليه حتى الآن وانتصرت على ذلك ، ومن يستطيع لوم العبيد على كونهم دهاة ؟ إنهم مضطرون دائماً للجوء إلى ذلك ، إنه السلاح الوحيد للضعيف المسحوق ضد قوة ظلامهم .

كنت آمل في كل يوم أن أسمع أن سيدي سوف يبيع أطفالي لأنني عرفت من كان يخطط لشرائهم ولكن الدكتور « فلنت » حرص على الإنتقام أكثر من حرصه على المال ، وقد دفع أخي وليام والعمة الطيبة التي خدمت في عائلته عشرين عاماً ، وصغيري « بني » و « ايلين » التي كان عمرها أكثر من سنتين بقليل إلى السجن كوسيلة لإرغام أقاربي على إعطاء بعض المعلومات عني وأقسم الدكتور أن جدتي لن ترى أحداً منهم مرة أخرى حتى عودتي . وقد أخفوا هذه الحقائق عني عدة أيام ، وعندما سمعت أن أطفالي الصغار كانوا في سجن كريه ،

كان أول حافز لي أن أذهب إليهم ، لقد كنت أجابه أخطاراً من أجل تحريرهم فهل يجب أن أكون السبب في وفاتهم ؟ كانت هذه الفكرة تسيطر علي عندما حاولت محسنتي أن تهدأني باعلامي أن عمتي سوف تعتني بالأطفال بشكل جيد أثناء تواجدهم في السجن . ولكنها أضافت إلى ألمي بالتفكير في أن تلك العمة العجوز التي كانت دائماً لطيفة جداً مع أطفال شقيقتها الأيتام ، سوف تسجن لا لذنب إلا لمحبتهم ، إنني أعتقد أن أصدقائي خشوا حركة متهورة من جانبي ، مدركين كما كانوا أن حياتي مرتبطة بأطفالي . وتلقيت رسالة من أخي « وليام ». كان نصها مقروءاً تقريباً وفيها « حيثما كنت يا شقيقتي العزيزة ، أتوسل إليك ألا تعودي هنا . نحن أحسن بكثير منك ، وإذا ما أتيت فستدمرينا جميعاً . سوف يجبرونك على أن تقولي أين كنت أوسوف يقتلونك ، خذي بنصيحة أصدقائك ، إذا لم يكن من أجلي أو من أجل أطفالك فعلى الأقل من أجل أولئك الذين سوف تدمرينهم » .

أعرف أن أخي « وليام » المسكين سوف يعاني لكونه أخي وقد عملت بنصيحته وبقيت هادئة ، ثم أخرجت خالتي من السجن في نهاية الشهر لأن السيدة « فلنت » لم يعد بمقدورها الإستغناء عنها ، لقد تعبت من كونها مدبرة المنزل ، وكان ذلك شيئاً متعباً حقاً أن تطلب غداءها وتأكله أيضاً ، وبقي أطفالي في السجن حيث بذل أخي وليام جهده من أجل راحتهم ، وكان لا يسمح لـ « بتي » بدخول السجن ولكن « وليام » كان يرفعهم إلى مستوى النافذة المسورة بينما هي تتحدث إليهم ، وعندما أعادت علي ثرثرتهم ووصف لي شدة شوقهم لرؤية أمهم ، ذرفت الدمع السخي ، وقالت « بتي » العجوز «يا

طفلتي ، لماذا تبكين ؟ إنهم شباب ، ولو عدت لقتلوك ، لا تحملي قلب دجاجة ، وإذا فعلت فلن تستطيعي العيش في هذا العالم ».

يا لها من روح طيبة لتلك العجوز ، لقد خرجت إلى العالم دون أطفال ، ولم يكن لديها صغار يلفون أذرعتهم حول عنقها ، ولم تر أبداً أعيناً ناعمة تنظر إلى عينيها ، ولا سمعت أصواتاً حلوة تناديها يا أمي مع الشعور أنه حتى في القيود كان هناك شيء تعيش من أجله ، كيف تستطيع أن تدرك مشاعري لقد أحب زوج « بتي » الأطفال بشكل كبير ، وتساءل لماذا لم يمنحه الله أطفالاً مثلهم ، وعبر عن أسفه البالغ عندما تى إلى « بتي » نبأ يفيد أن « ايلين » قد خرجت من السجن وأرسلت إلى بيت الدكتور « فلنت » ، لقد أصيبت بمرض الحصبة قبل أن يحملوها إلى السجن بوقت قصير ، وأثر المرض في عينيها فأخذها الدكتور إلى البيت من أجل العناية بعينيها . وكان أطفالي دائماً يخشون الدكتور وزوجته ، وكانت « ايلين » المسكينة تبكي طيلة النهار من أجل أن يحملوها إلى السجن ، إن غرائز الطفولة حقيقية ، لقد عرفت أنها كانت في السجن محبوبة ، وقد أزعج صراخها وتنهداتها السيدة « فلنت » وقبل حدود الظلام نادت على أحد العبيد وقالت : «اسمع يا « بل » احمل هذه الطفلة المزعجة إلى السجن مرة ثانية ، لا أستطيع أن أتحمل ضجيجها ، لو كانت هادئة لتحملت وقاحتها لأنها عندئذ تكون خادمة ظريفة لابنتي شيئاً فشيئاً ، ولكن إذا ما بقيت هنا مع وجهها الشاحب ، فانني أفترض أن أقتلها أو أتلفها . آمل أن يبيعهم الدكتور حيثما تحملهم الريح والماء. أما فيما يتعلق بوالدتهم ، فان سيادتها ستجد ما تحصل عليه من هروبها . ليست لديها مشاعر كافية نحو أطفالها كما هي الحال مع البقرة تجاه عجلها ، ولو كانت كذلك

لعادت منذ فترة طويلة كي تخرجهم من السجن وتوفر كل هذا المصروف والجهد ، هذه المرأة الفاجرة التي لا تصلح لأي شيء ، عندما يقبض عليها ، ستبقى في السجن مكبلة بالحديد ولستة أشهر ، ومن ثم تباع إلى مزرعة قصب السكر .سوف أراها محطمة فيما بعد . لماذا ما تزال واقفاً هناك يا بل ؟ لماذا لا تذهب بهذه الطفلة المزعجة ؟ اسمع لا تدع أحداً من الزنوج يتحدث إليها في الشارع . . .».

عندما نقلت هذه الملاحظات إلي ، تبسمت من قول السيدة « فلنت » بأنها إما أن تقتل الطفلة أو تتلفها . وفكرت في أن هناك خطراً قليلاً من الأمر الآخر ، لقد اعتبرت دائماً أن العناية الإلهية الخاصة جعلت «ايلين» تصرخ دائماً حتى أعادوها إلى السجن .

وفي نفس الليلة ، دعي الدكتور « فلنت » لزيارة مريض ، ولم يعد حتى الصباح ،ولدى مروره بمنزل جدتي رأى نوراً في منزلها ،وفكر في نفسه قائلاً : « ربما كان هذا له علاقة بليندا » وطرق الباب وفتح فقال : « ما الذي يجعلك مستيقظة بشكل مبكر ؟ رأيت ضوءك وظننت أني سوف أتوقف الآن وأخبرك أنني وجدت مكان ليندا . أعرف أين أضع يدي عليها ، وسوف أحصل عليها قبل الساعة (١٢) وعندما استدار ليعود ، نظرت جدتي وخالي إلى بعضهما البعض في قلق ، لم يعرفا ما إذا كان أو لم يكن ذلك إحدى حيل الدكتور ليجعلهما فزعين ، وفي وسط بلبلتهما ظنا أنه من الأفضل إرسال رسالة إلى صديقتي «بتي» ، وصممت « بتي » أن تتخلص مني بنفسها دون ازعاج سيدتها ، وأتت إلي وأمرتني أن أنهض وارتدي ثيابي بسرعة ، وهرولنا إلى الطابق السفلي وعبرنا الباحة إلى المطبخ . ثم أقفلت الباب ورفعت لوحاً خشبياً على الأرض ونشرت لي جلد جاموسة وقطعة من السجاد كي أنام مع

غطاء ، وقالت لي « ابقي هنا يا حبيبتي حتى أرى ما إذا كانوا يعرفون مكانك ، إنهم قالوا أنهم سوف يضعون أيديهم عليك قبل الساعة (١٢) ، وإذا ما عرفوا مكانك فانهم لن يعرفوه الآن ، وسوف يخيب أملهم هذه المرة . هذا كل ما لدي قوله ، إذا أتوا باحثين بين أشيائي » ... وفي فراشي المنخفض كان لدي مسافة كافية لتصل يداي إلى وجهي كي أحجب الغبار عن عيني . لأن « بتي » مشت علي عشرين مرة في الساعة مارة من خزانة الأدراج إلى مكان النار .

وعندما كنت وحيدة استطعت أن أسمعها ترسل اللعنات على الدكتور « فلنت » وكل قبيلته ، وبين الفينة والفينة تقول بضحكة خافتة : « هذه الزنجية أذكى منهم كثيراً في هذه المرة » وعندما كانت الخادمات يأتين كانت لديها طرق ماكرة لإبعادهم لأسمع ماذا يقلن . وكانت تردد القصص التي سمعتها عن كوني في هذا المكان أو ذاك الآخر ، وكن يجبن بأني لم أكن غبية كي أمكث هناك ، وأنني كنت في فيلادلفيا أو في نيويورك قبل هذا الوقت ، وعندما كان الجميع في فراشهم نائمين رفعت « بتي » اللوح الخشبي وقالت : « اخرجي يا طفلتي ، اخرجي إنهن لا يعرفن أي شيء عنك ، لقد كانت فقط كذبة بيضاء من الزنوج » .

وبعد هذه المغامرة ببضعة أيام ، أصبت بفزع أكبر ، فبينما كنت جالسة في ملجأي بسكون فوق الدرج (الطابق العلوي) مرت في ذهني أشياء بهيجة ، وظننت أن الدكتور « فلنت » سوف تنهار شجاعته ويقدم على بيع أطفالي عندما يفقد كل الآمال في جعلهم وسيلة لاكتشافي . وعرفت من كان مستعداً لشرائهم وفجأة سمعت صوتاً جعل الدم يجمد

في عروقي ، لقد كان هذا الصوت مألوفاً جداً لدي و كان مفزعاً جداً لي ألا أعرف فوراً صوت سيدي القديم في البيت ، وفوراً استنتجت أنه أتى ليعتقلني ، نظرت حولي في رعب ، لم يكن هناك مجال للهرب ، وتقهقر الصوت فافترضت أن الشرطي كان معه ، وأنهما كانا يفتشان البيت ، وفي رعبي لم أنسَ المتاعب التي كنت سأسببها لمحسنتي اللطيفة ، بدا وكأنني خلقت لجلب الأسى لكل من يصاحبني ، وتلك كانت القطرة المرة في كأس حياتي ، وبعد برهة سمعت وقع أقدام تقترب ، ودار المفتاح في بابي ، ألصقت نفسي بالجدار تفادياً للسقوط ، ثم جازفت بالنظر وهناك وقفت محسنتي وحدها ، كنت منهارة تماماً لدرجة لم أستطع معها الكلام . وسقطت أرضاً .

قالت : « ظننت أنك ستسمعين صوت سيدك ، وعلماً مني بأنك ستفزعين أتيت من أجل إعلامك أنه ليس هناك مجال للخوف ، يمكنك أيضاً أن تستغرقي في الضحك على حساب الرجل العجوز ، فهو متأكد تماماً أنك في نيويورك . وأنه أتى لاقتراض ٥٠٠ دولارٍ ليذهب في مطاردتك ، وشقيقتي لديها بعض المال تقرضه مقابل فائدة ، لقد حصل عليه وهو الآن ينوي السفر إلى نيويورك الليلة ، وهكذا فانك آمنة في الوقت الحاضر كما ترين ، وسيفرغ الدكتور محفظته فقط من أجل اصطياد الطائر الذي تركه خلفه » .

* * *

١٩

بيـــع الاطفـــال

عاد الدكتور من نيويورك دون انجاز قصده بالطبع ؛ لقد صرف مالاً كثيراً ، وكان نوعاً ما مثبط الهمة لقد أمضى أخي والأطفال مدة شهرين في السجن حتى الآن ، وكان في ذلك أيضاً بعض المصروف ، وفكر أصدقائي أن الوقت المناسب قد أزف للعمل على أنقاض مشاعره المنهارة ، وأرسل السيد « ساندز » مضارباً يعرض عليه ١٠٠ دولار من أجل أخي وليام ، و ٨٠٠ دولارٍ من أجل الطفلين . لقد كانت هذه الأسعار عالية بالنسبة لما كان يباع به العبد عندئذ . ولكن العرض رفض ، ولو كان الأمر متعلقاً بالمال فقط لباع الدكتور أي ولد في سن « بني » بمائتي دولار ، ولكنه لم يستطع أن يتخلى عن سلطة الانتقام . . . ولكن ضغط عليه كثيراً من أجل المال ، وبحث المسألة في ذهنه ، لقد عرف أنه إذا ما استطاع أن يحتفظ « بإيلين » حتى تصبح في الخامسة عشرة فانه يستطيع بيعها مقابل سعر مرتفع ، ولكني أفترض أنه فكر في أنها يمكن أن تموت أو تختطف ، وعلى كل الأحوال توصل إلى الاستنتاج بأنه من الأجدر قبول عرض تاجر الرقيق . ثم قابله في الشارع وسأله متى سيغادر البلدة فأجابه « في الســاعة العاشرة من هــذا اليوم » وقال الدكتور « آه هــل تذهب بهذه السرعة ؟ إنني أفكر في عرضك ووجدت أن أجعلك تمتلك ثلاثة زنوج إذا ما قلت

٩٠٠ دولار » وبعد تفكير قليل وافق التاجر على شروطه ، وأراد أن يجهز صك البيع ويوقع فوراً لأن لديه أشياء كبيرة يعالجها خلال الفترة القصيرة التي مكث فيها في البلدة،وذهب الدكتور إلى السجن.وأخبر « وليام » أنه سوف يعيده إلى خدمته إذا ما وعد بأن يحسن ساوكه ، ولكنه أجاب بأنه يفضل أن يباع وقال الدكتور « ولسوف تباع أيها الوغد الناكر للجميل » وفي أقل من ساعة تم دفع المال . ووقع الصك وختم وسلم ، وكان أخي والأطفال بين يدي التاجر .

لقد كانت صفقة سريعة . وبعد أن انتهت . عاد للدكتور حذره الخلقي . فرجع إلى المضارب قائلاً : « سيدي ، أتيت لأضعك تحت الالتزام بمبلغ ألف دولار أن لا تبيع أياً من هذه الزنوج ضمن هذه الولاية » فأجاب التاجر : « لقد أتيت بعد فوات الأوان ، لقد أغلقت مساومتنا ».وفي الحقيقة أنه باعهم إلى السيد « ساندز » ولكنه لم يذكر له ذلك ، وطلب إليه الدكتور أن يقيد بالحديد « ذلك الوغد بيل» وأن يمر بالشوارع الخلفية عندما يخرج عصابته من البلدة ، لقد أعطيت التعليمات إلى التاجر سراً بأن يقبل برغبات الدكتور ، وذهبت خالتي الطيبة العجوز إلى السجن لتودع الأطفال ظناً منها أنهم أصبحوا ملكاً للمضارب ، وأنها لن تراهم مرة أخرى ، وعندما حملت « بني » في حضنها قال لها : « ياخالتي نانسي ، أريد أن أريك شيئاً ما » وقادها إلى الباب وأراها صفاً طويلاً من العلامات قائلاً : « الخال « ويل » علمني العد . لقد وضعت إشارة لكل يوم كنت فيه هنا . والآن وقد مضى علينا ستون يوماً ، إنه لوقت طويل . سوف يأخذني المضارب و «ايلين» بعيداً . إنه رجل سيء . عار عليه أن يأخذ أطفال الجدة ، أريد الذهاب إلى أمي .

وأخبرت جدتي أن الأطفال سيعادون إليها ، ولكن طلب إليها أن تتصرف وكأنهم في الحقيقة سوف يذهبون بعيداً عنها ، وبحسب ذلك هيأت حزمة من الثياب وذهبت إلى السجن . وعندما وصلت وجدت « وليام » مقيداً بالأصفاد بين العصابة . والأطفال في عربة التاجر . وبدا المشهد وكأنه حقيقي إلى حد بعيد فخشيت أن يكون هنالك بعض الخداع أو الخطأ مما جعلها تقع مغمي عليها . وحملت إلى المنزل .

وعندما توقفت العربة أمام الفندق ، خرج عدد من السادة وعرضوا شراء « وليام » ولكن التاجر رفض عروضهم دون أن يبين أنه قد سبق وتم بيعه ، والآن حانت ساعة الاختيار لذلك السرب من بني البشر ، مسوقين كالقطيع للبيع في مكان لا يعرفونه . لقد افترق الأزواج عن زوجاتهم ، والوالدون عن أطفالهم ، بحيث لا يرون بعضهم بعضاً مرة أخرى ، وهذا الجانب هو الباعث على الاكتئاب . لقد كان هنالك عصر أيدٍ وصيحات يأس .

ورضي الدكتور كل الرضى لرؤية العربة تغادر البلدة ، وكذلك ارتاحت السيدة « فلنت » ظناً منها أن أطفالي كانوا ذاهبين « إلى حيث تحملهم الريح والماء » وحسب الاتفاق تبع خالي العربة بضعة أميال حتى وصلوا إلى مزرعة قديمة وهناك نزع التاجر الحديد عن « وليام » وبينما كان يفعل ذلك قال له : « إنك شخص ذكي وملعون . كم أود لو أمتلكك لنفسي ، والسادة الذين أرادوا شراءك قالوا أنك فتى لامع شريف ، وأن علي أن أحصل لك على بيت جيد . أظن أن سيدك سيبدأ بالشتائم غداً واصفاً نفسه بالغباء . بالنسبة لبيع الأطفال وأحسب أنه سوف لا يحصل على أمهم عائدة مرة أخرى ، أتوقع أنها قد شقت

طريقها صوب الشمال . وداعاً أيها الوالد القديم ، لقد أمنت لك دورة جيدة ، وعليك أن تشكرني باغراء كل الفتيات الجميلات على الذهاب معي في الخريف المقبل ، لأن ذلك سيكون آخر رحلة لي ، إن تجارة الرقيق هذه عمل رديء لاي شخص له قلب تقدموا إلى الأمام أيها الأشخاص » وتقدمت العصابة والله وحده يعلم إلى أين .

بقدر ما أحتقر طبقة تجار الرقيق ، الذين أعتبرهم أسوأ الاشقياء على الأرض ، إلا أن علي أن أنصف هذا الرجل بأن أقول انه بدا ممتلكا لبعض الشعور ، لقد أخذ ملابس إلى « وليام » في السجن وأراد أن يشتريه ، وعندما سمع بقصة أطفالي كان راغباً في مساعدتهم على التخلص من سلطة الدكتور « فلنت » حتى دون أخذ الرسم المتعارف عليه .

واستأجر خالي عربة وحمل « وليام » والأطفال وعادوا إلى البلدة، وكان السرور في منزل جدتي عظيماً.لقد أسدلت الستائر ، وأضيئت الشموع ، وضمت الجدة السعيدة الصغار إلى حضنها فعانقوها وقبلوها وتشابكت أيديهم وبدأوا بالهتاف ، ثم انحنت جدتي تقدم صلاة شكر من صميم القلب مبتهلة إلى الله ، وكان الأب موجوداً لبرهة ، وقد وجدت بينه وبين أطفالي علاقة أبوية متماثلة تمس القلوب قليلاً ، وتمس مشاعر مالكي العبيد . ولابد من أن يكون قد مر ببعض لحظات الفرح الصافي في مشاهدة السعادة التي منحها .

لم يكن لي نصيب في أفراح تلك الأمسية ، لأن أحداث اليوم لم تنقل إلى مسامعي . والآن سأقص عليكم بعضاً مما حدث لي . ولو أنكم ربما تظنون أنها تصور تشاؤم العبيد . لقد جلست في مكاني المعتاد على الأرض قرب النافذة ، حيث أستطيع أن أسمع أكثر ما يقال في الشارع

دون أن يكتشف أمري . كان كل شيء هادئاً . وجلست أفكر في أطفالي عندما سمعت موسيقى خفيفة جماعة من الموسيقيين « سيريناد » كانوا تحت النافذة يعزفون : « البيت . . البيت السعيد » وأصغيت حتى لم تعد الأصوات تبدو كالموسيقى بل كأنين الأطفال . وبدا وكأنما قلبي سوف يتفجع ، ونهضت من موضعي وانحنيت كان هنالك خيط من شعاع القمر على الأرض أمامي ، وفي وسطه بدا شكلان من أطفالي وتلاشيا . ولكنني على التحقيق رأيتهما ، سيسمي البعض ذلك حلماً ، والآخرون رؤية ، لا أعرف كيف اسمي ذلك ؟ ولكنه أحدث انطباعاً في ذهني وشعرت بالتأكيد أن شيئاً ما قد حدث لصغاري.

ولم أر « بتي » منذ الصباح ، وسمعتها تدير المفتاح بهدوء ، وحالما دخلت تعلقت بها ورجوتها أن تخبرني ما إذا كان أطفالي قد ماتوا أم بيعوا ، إذ أنني رأيت أرواحهم في غرفتي ، وكنت متأكدة من ان شيئاً ما قد حصل لهم ، وقالت وهي تضمني بذراعيها : « ياطفلتي ليندا ، إن لديك هستيريا ، سأنام معك الليلة لأنك سوف تحدثين صوتاً وتتلفين كل شيء ، شيء ما قد استفزك بقوة ، وعندما تعرضين سوف أتحدث إليك ، الأطفال بصحة جيدة وهم سعداء . . لقد رأيتهم بنفسي ، فهل ذلك يرضيك ؟ ياطفلتي العزيزة كوني هادئة ، إن شخصاً ما سوف يسمعك » وحاولت أن أطيعها ، واضطجعت هي وراحت في سبات عميق بينما لم يغز الكرى أجفاني .

وعند الفجر ، نهضت « بتي » وذهبت إلى المطبخ . ومرت الساعات وعاودت رؤية الليل زحفها إلى أفكاري بصورة مستمرة ، وبعد برهة سمعت أصوات امرأتين في المدخل . عرفت في إحداهما الخادم بينما

قالت لها الثانية : « هل عرفت أن أطفال « ليندا برنت » قد بيعوا إلى مضارب أمس ؟ يقولون أن السيد « فلنت » العجوز كان مسروراً برؤيتهم يطردون من البلدة ، ولكنهم يقولون أنهم عادوا مرة أخرى ، أتوقع أن يكون ذلك كله من صنع والدهم ، يقولون أنه اشترى « وليام» أيضاً ، يا إلهي كيف يكون حال السيد « فلنت » العجوز ؟ سوف أذهب إلى العمة « مارتا » لأتحقق من ذلك . . . »

وعضضت شفتي حتى نزف الدم منهما لأحبس صراخي ، هل كان أطفالي مع جدتهم ؟ أم أن مضارباً سيئاً قد أخذهم بعيداً ؟ لقد كان الانتظار مخيفاً ، ألن تأتي « بتي » أبداً وتخبرني بالحقيقة حول ذلك ؟ وأخيراً أتت ، ورددت أنا بشوق ما سبق وسمعته . فظللت وجهها ابتسامة عريضة لامعة وقالت : « أيتها الغبية كنت على وشك أن أخبرك بكل شيء حول ذلك ، إن البنات يأكلن فطورهن ، والسيدة أخبرتني أن أدعها تخبرك ، ولكن أيتها المخلوقة المسكينة ليس من العدل إبقاؤك تنتظرين ، أنا سأخبرك . أخوك والأطفال قد اشتراهم الأب ، رأيته يضحك بشكل متزايد مفكراً بالسيد العجوز « فلنت » وكيف سيشتم يالليندا ، لقد حوصر في هذه المرة ، على كل حال ولكن علي أن أخرج وإلا سوف يأتون ويمسكون بي . . . » . . .

واستمرت « بتي » بالضحك وقلت لنفسي « أيمكن أن يكون أطفالي أحراراً حقاً ؟ إذاً فأنا لم أكابد من أجلهم عبثاً ، شكراً لله . . » وكانت المفاجأة الكبرى عندما عرفت أن أطفالي قد عادوا إلى منزل جدتهم وانتشر النبأ في البلدة ، وقيلت كلمات لطيفة في هذه المناسبة للصغار . . .

وذهب الدكتور « فلنت » إلى منزل جدتي ليتأكد من هو مالك أطفالي . وأخبرته بالخبر فقال « لقد توقعت ذلك ، ويسرني أن أسمعه . لقد وصلتني أنباء عن ليندا مؤخراً ، وسوف أحصل عليها فوراً ، لا تتوقعي أبداً رؤيتها حرة ، ستظل أمتي طالما كنت على قيد الحياة ، وعند وفاتي ستظل أمة لأطفالي ، وإذا ما اكتشفت أنك أو فيليب لكما أي علاقة بهروبها فسأقتله . وإذا ما قابلت « وليام » في الشارع وتجرأ على النظر إلي فسأجلده حتى يصل إلى آخر رمق في حياته ، أبعدي هؤلاء الأولاد عن ناظري . . . »

وعندما استدار ليذهب قالت جدتي شيئاً ما لتذكره بأفعاله ، فنظر إليها وكأنما كان يسره لو طرحها أرضاً .

لقد كان لي موسمي من الفرح وبذل الشكر ، وكانت تلك المرة الأولى منذ طفولتي التي أشعر فيها بسعادة حقيقية ، لقد سمعت تهديدات الدكتور العجوز ، ولكنها لم تعد بنفس القوة بحيث تزعجني ، إن الغيمة المظلمة التي اكتنفت حياتي زالت وتلاشت ، ومهما صنعت العبودية بي فانها لن تستطيع أن تقيد أطفالي ، وإذا ما سقطت في التضحية فان صغاري قد نجوا . لقد كان حسناً بالنسبة لي أن قلبي الساذج اعتقد بكل ما وعدوا به من أجل رفاههم . ومن الأفضل دائماً التسربل بالثقة والابتعاد عن الشك .

* * *

٢٠
مخاطر جديدة

لقد حاول الدكتور وقد استشاط غضباً أكثر من ذي قبل ، مرة أخرى أن ينتقم لنفسه من أقاربي فاعتقل خالي « فيليب » بتهمة المساعدة على هروبي . وقد مثل أمام المحكمة ، وأقسم بصدق أنه لم يعرف شيئاً عن نيتي في الهرب ، وأنه لم يرني منذ أن غادرت مزرعة سيدي ، وهنا طلب الدكتور منه كفالة قيمتها خمسمائة دولار تفيد أنه ليست له أي علاقة بي . وقد عرض عدة رجال أن يكونوا الكفلاء ولكن السيد « ساندز » أخبره أنه يجدر به أن يعود إلى السجن وهو سوف يسعى لأن يخرجه دون إعطاء كفالة .

ونقل نبأ اعتقاله إلى جدتي التي أوصلت النبأ إلى « بتي » ، وفي رقة قلبها هربتني إلى الطابق السفلي وبينما كانت تعود وتذهب انجازاً لواجباتها في المطبخ ، كان من الواضح أنها تتحدث إلى نفسها ولكن بقصد أن أسمع أنا ماذا كان يدور . أملت ألا يدوم سجن خالي سوى بضعة أيام ، ومع ذلك كنت قلقة وفكرت به ، فمن المحتمل أن الدكتور « فلنت » سوف يبذل أقصى جهده كي يعيّره ويشتمه ، وخشيت أن يفقد خالي ضبط النفس فيجيب بجفاف بطريقة ما تفسر إلى تهمة يعاقب عليها ، وكنت على علم بأن كلمته في المحكمة سوف لا يعتد بها ضد كلمة أي رجل أبيض ، وتجدد التفتيش عني ، لقد أثار الاشتباه شيء

ما في أنني كنت في الجوار ، وفتشوا المنزل الذي كنت فيه ، وسمعت وقع أقدامهم وأصواتهم . وفي الليل عندما كان الجميع نائمين أتت « بتي » إلي لإطلاق سراحي من مكان الاعتقال ، لقد جعلني الوضع القسري الذي عانيته . والخوف ورطوبة الأرض مريضة لعدة أيام ، وأخرج خالي من السجن فوراً ولكن كانت تراقب تحركات كل أقاربي وأصدقائي عن كثب .

رأينا كلنا أنني لا أستطيع البقاء حيث كنت لمدة أطول ، لقد سبق لي أن أقمت أطول مما قصدت وعرفت أن وجودي يجب أن يكون مصدر قلق دائم لمحسنتي اللطيفة ، وخلال هذا الوقت ، وضع أصدقائي خططاً عديدة لهروبي ، ولكن اليقظة المتطرفة لمضطهديّ جعلت من المستحيل وضعها موضع التنفيذ .

وذات صباح ، فزعت جداً لسماع أحدهم يحاول الدخول إلى الغرفة ، وقد جربت عدة مفاتيح ولكن لم يكن واحد منها مناسباً ، وظننت على الفور أنها كانت إحدى الخادمات ، واستنتجت أنها إما أن تكون قد سمعت بعض الضجيج في الغرفة ، أو لاحظت دخول « بتي »، وعندما أتت صديقتي في وقتها المعتاد ، أخبرتها بما حدث فقالت « أعرف من كانت ، لقد كانت « جني » تلك الزنجية تثير المتاعب دائماً » وقلت أنا ربما رأت أو سمعت شيئاً ما أثار فضولها .

هتفت « بتي » : « ها . . . ها . . . ياطفلتي ، هي لم ترو لم تسمع شيئاً ، فقط تتوقع شيئاً ما ، وهذا كل مافي الأمر وهي تريد أن تجد من قصر وخاط ثوبي ، ولكنها لن تعرف ذلك بكل تأكيد ، سوف أخلق لها مهمة تشغلها » . . . وفكرت لحظة ثم قلت « بتي ، يجب أن أغادر المكان الليلة ، »

أجابت « افعلي ما تشائين ياطفلتي المسكينة . أنا خائفة من أن زنجيبنا سوف يتلصصون عليك في بعض الأحيان » وروت الحادثة إلى سيدتها ، وتلقت أوامر بأن تجعل « جني » مشغولة في المطبخ حتى تستطيع أن ترى خالي « فيليب » ، وقد أخبرها أنه سيرسل صديقاً من أجلي في نفس تلك الأمسية ، وأخبرته أنها تأمل أنني ذاهبة إلى الشمال ، لأنه كان من الخطر جداً لي أن أبقى في أي مكان في الجوار ، وا أسفاه إنه لم يكن شيئاً سهلاً لمن كان في وضعي أن يذهب إلى الشمال ، فلمغادرة الساحل ، ذهبت هي من أجلي إلى الريف لقضاء اليوم مع أخيها وأخذت « جني » معها ، وكانت خائفة أن تأتي لوداعي لكنها تركت رسالة لطيفة مع « بتي » وسمعت صوت عربتها تسير من الباب ، ولم أعد أرها مرة أخرى . . تلك التي كانت تصادق الفقراء بكرم والهاربين المرتجفين ، ومع أنها مالكة عبيد إلا أن قلبي يباركها حتى هذا اليوم .

لم تكن لدي أدنى فكرة إلى أين كنت ذاهبة ، وأحضرت « بتي » طاقم ملابس بحار ومعطفاً وبنطالاً وقبعة من الخيش ، وأعطتني حزمة صغيرة قائلة أنني ربما أحتاجها حيثما ذهبت ، وبلهجة مرحة هتفت قائلة « إنني سعيدة جداً لأنك ذاهبة إلى الأقاليم الحرة ، لا تنسي « بتي » العجوز سوف أحضر عما قريب . . . وحاولت أن أخبرها كم شعرت بالسرور لمعاملتها اللطيفة ولكنها قاطعتني قائلة « أنا لا أريد أي شكر ياحلوة ، أنا مسرورة لأنني استطعت أن أساعدك ، وآمل أن الله الطيب سوف يفتح الطريق أمامك . إنني ذاهبة معك إلى البوابة السفلى . ضعي يديك في جيوبك ولمشي متخلخلة كالبحارة » .

ومارست ذلك مما حاز رضاها ، وعند البوابة وجدت « بيتر » وهو شاب ملون ينتظرني . لقد عرفته قبل عدة سنوات ، كان تلميذاً لوالدي ،

وكان دائماً ذا أخلاق حميدة ، لم أكن خائفة من الثقة به ، ودعتني « بتي » على عجل وانطلقنا ، وقال صديقي « بيتر » : « تشجعي ياليندا ، فلدي خنجر ولن يستطيع أي رجل أخذك مني ما لم يمر على جثتي » .

لقد مضى علي وقت طويل دون أن أسير خارج الأبواب ، وأنعش الهواء رئتي نفسي ، وكان أيضاً شيئاً سارا أن أسمع صوت آدمي يتحدث إلي بصوت أعلى من الهمس ، ومررت بعدد من الناس الذين أعرفهم ، ولكنهم لم يتعرفوا إلي في تنكري ، وصليت في سري كيلا يحدث شيء يضطر بيتر لتجريد خنجره من أجله أو من أجلي ، ومشينا حتى أتينا رصيف الميناء ، وكان زوج خالتي « نانسي » رجل بحر وشعرت أنه من الضروري اطلاعه على سري ، فأخذني في قاربه وجدف إلى أن وصلنا إلى سفينة قريبة ، وآنذاك جازفت بسؤاله ماذا يقترحون أن يصنعوا بي ، قال يجب أن أبقى على ظهر السفينة حتى قرب الفجر ، ومن ثم سوف يخفونني في مستنقع للأفاعي حتى يكون خالي فيليب قد هيأ مكاناً لاختفائي . وإذا كانت السفينة متجهة إلى الشمال فانها مجدية بالنسبة لي ، لأنه من المؤكد أنها قد فتشت ، وفي الساعة الرابعة جلست مرة أخرى في القارب ، وجذفنا ثلاثة أميال إلى المستنقع ، وتزايد خوفي من الأفاعي بسبب اللدغ السام الذي سبق وتلقيته وخشيت دخول مكان الاختفاء هذا ، ولكنني لم أكن في حالة اختيار بل قبلت شاكرة أفضل ما استطاع أصدقائي المضطهدون أن يصنعوا من أجلي .

وهبط « بيتر » أولاً ، وبسكين كبيرة قطع طريقاً خلال أعواد القصب والورد البري من كافة الأصناف وعاد فأخذني في ذراعه وحملني إلى مقعد بين القصب ، وقبل أن نصله غطانا مئات البعوض . .

وفي غضون ساعة تسمم جسمي حتى غدوت منظراً مؤسفاً للمشاهدة، وحالما تزايد النور ، رأيت أفعى تسعى حولنا ، لقد اعتدت على منظر الأفاعي طيلة حياتي ، ولكن هذه كانت أكبر من كل ما شاهدته في حياتي . . . وإلى يومي هذا أرتعد كلما أتذكر ذلك الصباح ، وحالما حل المساء تزايد عدد الأفاعي كثيراً حتى أننا اضطررنا بصورة مستمرة أن نبعدها بالعصي لنمنعها من الزحف فوقنا . . . لقد كان القصب عالياً وسميكاً حتى أنه من المستحيل رؤية أبعد من مسافة قصيرة . وقبل أن يهبط الظلام تماماً ، حصلنا على مقعد قريب من مدخل المستنقع خشية أن نضل طريقنا في العودة إلى القارب . . . ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا صوت المجاديف والصفير الخافت اللذين اتفق عليهما كاشارة ، وأسرعنا في الدخول إلى القارب وعدنا إلى السفينة . . . لقد مررت بليلة قاسية ، لأن حرارة المستنقع والبعوض والخوف المستمر من الأفاعي سبب لي حمى محرقة ، وما إن جلست حتى رحت في سبات عميق

ثم أتى من يخبرني أنه قد حان الوقت للذهاب إلى المستنقع المخيف ، وبشكل صعب استرجعت شجاعتي للنهوض ، ومع هذا أحسست أن هذه الأفاعي الكبيرة السامة كانت أقل تخويفاً لمخيلتي من الرجال البيض ، في تلك الجماعة المسماة بالمتحضرة ، وأخذ « بيتر » هذه المرة كمية من التبغ وأحرقها لإبعاد البعوض ، وحصل التأثير المطلوب ولكن ذلك سبب لي غثياناً وصداعاً مؤلمين ، وفي الظلام عدنا إلى السفينة وكنت مريضة جداً طيلة اليوم ، حتى أن « بيتر » صرح بأني يجب أن أعود إلى المنزل تلك الليلة حتى لو كان الشيطان نفسه قائماً على الحراسة، وأخبروني عن مكان اختفاء جهز من أجلي في منزل جدتي . ولم أستطع تصور كيف يكون الاختفاء ممكناً في منزلها ، لأن كل زاوية وناحية

فيه كانت معروفة لعائلة « فلنت » وأخبروني أن أنتظر وأرى . . . ثم جذفنا إلى الشاطىء وذهبنا بجرأة إلى الشوارع ثم إلى منزل جدتي ، وارتديت ملابس بحار وطليت وجهي بفحم حطب ، ومررت بالعديد من الناس الذين أعرفهم وكان والد أطفالي قريباً مني حتى أني لمست ذراعه ، ولكنه لم تكن لديه أية فكرة عمن كان ذلك .

وقال صديقي « بيتر » « يجب أن تستفيدي بقدر المستطاع من هذا السير ، لأنه لن تكون لك مسيرة أخرى عما قريب » ظننت أن في صوته رنة حزن ، لقد كان لطفاً منه أن يخفي عني أي جحر موحش سيكون بيتي لوقت طويل . . طويل جداً .

* * *

٢١
فتحة المأوى

أضيفت حظيرة جديدة لمنزل جدتي منذ سنوات ، فوضعت بعض الألواح عبر العوارض في القمة ، وبين هذه الألواح والسطح كان هناك مرتفع صغير لم يحتله أحد سوى الفئران والجرذان ، لقد كان سطحاً محصوراً مغطى بسقائف حسب العادة الجنوبية لمثل هذه الأبنية ، وكان طول المرتفع تسعة أقدام فقط وعرضه سبعاً ،وكان ارتفاع القسم الأعلى ثلاثة أقدام ، حيث ينحدر بسرعة إلى الأرض الخشبية السائبة ولم يكن هناك مجال للنور أو الهواء ، وقام خالي « فيليب » الذي كان يعمل نجاراً بصنع باب خفي بشكل ماهر كان يتصل بغرفة التخزين ، وبينما كان يصنع ذلك كنت انتظر في المستنقع ، وفتحت غرفة التخزين على رحبة وإلى ذلك الثقب تم إيصالي حالما دخلت المنزل ، كان الهواء خانقاً والظلام شاملاً ، ومد فراش على الأرض بحيث استطعت أن أنام براحة على جانب واحد ولكن الانحدار كان مفاجئاً حتى أنني لم أستطع التقلب إلى الجهة الأخرى دون أن اصطدم بالسقف . . . وركضت الجرذان والفئران فوق فراشي ولكني كنت متعبة ونمت كما يمكن أن يفعل أي بائس ، وقد مرت عاصفة فوقي ، وعندما جاء الصباح عرفته فقط من الأصوات التي سمعتها لأن النهار والليل كانا سواء في جحري الصغير . ولكني كنت مستريحة فقد سمعت أصوات أطفالي وكان هناك مرح وحزن في أصواتهم مما جعل دموعي تنهمر ، كم وددت

التحدث إليهم ، اشتقت إلى النظر في وجوههم ولكن لم يكن هناك ثقب ولا شق أستطيع أن أتلصص من خلاله . . هذا الظلام المستمر كان شديد الوطأة ، وبدا مفزعاً الجلوس والاضطجاع في وضع محصور يوماً بعد يوم دون أي بصيص من نور . . ومع ذلك كنت راضية به لأنه أفضل من وضعي كأمة ، مع أن كل الناس البيض يعتبرونه شيئاً هيناً وهو كذلك إذا ما قورن بمصير الآخرين . لم أكن أعمل بقسوة وفوق طاقتي . ولا جرحت بالسوط من الرأس إلى القدم . ولم أضرب فتصيبني رضوض حتى لا أستطيع التحرك من جنب إلى جنب ، ولم تكن خيوط عقبي مقطوعة لمنع هروبي ،ولم أقيد بالسلاسل إلى كتلة أو صخرة أو أجري إلى هنا أو هناك وأنا أتعب في الحقول من الصباح حتى الليل ، ولم أوسم بالحديد الساخن ، ولا مزقت من قبل كلاب الدم ، بل على العكس كنت دائماً أعامل بلطف وكنت موضع عناية وبشكل رقيق حتى وقعت بين يدي الدكتور « فلنت » ولم أنشد الحرية حتى ذلك الوقت، ولكن رغم أن حياتي في العبودية كانت خالية من المشقة فانني أرجو الله أن يرحم المرأة المضطرة لأن تعيش حياة كهذه .

وكان طعامي يدفع إلي من خلال الباب الخفي الذي كان قد صنعه خالي ، وكانت جدتي وخالي فيليب وخالتي نانسي يغتنمون كل فرصة حسبما يستطيعون للتسلق هناك والتحدث معي في الفتحة ولكن هذا بالطبع لم يكن مأموناً في وضح النهار ، وكان يجب أن يتم ذلك كله في الظلام ، وكان من المستحيل لي أن أتحرك في موضع منتصب ولكني كنت أزحف هنا وهناك في جحري للتريض . وذات يوم اصطدمت رأسي بشيء ما ، ووجدت أنه بريمة (مثقب النجار) تركها خالي عندما صنع الباب . وكنت مسرورة مثل (روبنسون كروزو) لوجود كنز

كهذا ، لقد تمثلت لي فكرة جيدة في ذهني فقلت لنفسي « الآن سأحصل على بعض الضياء والآن سوف أرى أطفالي » لم أجرؤ على البدء بعملي أثناء النهار خشية اجتذاب الانتباه ، ولكني تحسست هنا وهناك ولما وجدت الجانب التالي للشارع حيث استطعت أن أرى أطفالي بصورة متكررة أغلقت البريمة وانتظرت حتى المساء ، ثم حفرت ثلاثة صفوف من الثقوب ، الواحد تلو الآخر ثم وصلت ما بينها وهكذا نجحت في عمل ثقب طوله (انش) واحد وعرضه كذلك ، وجلست قربه حتى ساعة متأخرة من الليل لأتمتع بهبة النسيم الذي كان يطوف ، وفي الصباح ترقبت أطفالي ، وكان الشخص الأول الذي رأيته في الشارع الدكتور « فلنت » وكان لدي شعور مرتعش مشؤوم أن ذلك كان فألاً سيئاً ، ومرت وجوه مألوفة عديدة.وأخيراً سمعت ضحكة مرحةمن الأطفال ، وعلى الفور كان وجهان حلوان صغيران ينظران إلي وكأنما عرفا أنني كنت هناك ، وتمنيت أن أخبرهم بأنني كنت هناك .

تحسنت حالي الآن قليلاً ، ولكن لأسابيع مزقت بمئات من الحشرات الحمراء الصغيرة ، والتي كانت دقيقة كطرف الابرة انغرست في جلدي ، فاستحالت حرقاً لا يحتمل ، وأعطتني جدتي الطيبة شاي عشب وأدوية مرطبة حتى تخلصت منها أخيراً . . . وكان الحر في جحري شديداً لأنه ما من شيء يحميني من شمس الصيف الملتهبة سوى سقيفات رقيقة ولكن ما كان يعزيني هو ذلك الثقب الذي أستطيع أن أراقب أطفالي عن طريقه وعندما كانوا على مقربة مني بما يكفي استطعت أن أسمع حديثهم ، وجلبت الخالة « نانسي » لي كل الأخبار التي استطاعت أن تسمعها في منزل الدكتور « فلنت » ومنها علمت أن الدكتور قد كتب إلى نيويورك إلى امرأة ملونة كانت قد ولدت ونشأت في جوارنا

وتنفست جوه الملوث ، وعرض عليها جائزة فيما لو استطاعت إيجاد أي شيء يؤدي إليّ ، لم أعرف ماذا طبيعة جوابها ولكنه بعد ذلك انطلق فوراً إلى نيويورك قائلاً لعائلته إن لديه عملاً على غاية من الأهمية يجب إنجازه ، وتلصصت عليه بينما كان ماراً في طريقه إلى القارب البخاري ، لقد كان من دواعي الغبطة أن تكون هذه الأميال من الأرض والماء بيننا حتى ولو لبرهة قصيرة ، وكانت أيضاً غبطة كبيرة أن أعرف أنه اعتقد أني في الولايات الحرة . . . وبدا جحري الصغير أقل وحشة مما كان ، وعاد الدكتور خاوي الوفاض كما جرى في رحلته السابقة إلى نيويورك دون الحصول على معلومات مرضية ، وعندما مر بدارنا في الصباح التالي ، كان « بني » واقفاً على البوابة ، وسمعتهم يقولون أنه ذهب ليجدني ، ونادى : يادكتور فلنت هل أحضرت أمي إلى البيت ؟ أود أن أراها ، فداسه الدكتور بقدمه في غضب وقال « اغرب عن وجهي أيها الوغد الصغير اللعين وإلا قطعت رأسك . . . »

وركض « بني » فزعاً إلى البيت وهو يقول « لا تستطيع أن تضعني في السجن مرة أخرى ، إنني لا أخصك الآن » وكان جيداً أن الريح حملت الكلمات بعيداً عن أذن الدكتور ، وأخبرت جدتي بذلك عندما عقدنا مؤتمرنا التالي في (الباب الخلفي) ورجوتها ألا تسمح للأطفال أن يتواقحوا مع الرجل العجوز الغضوب .

وأتى الخريف وانخفضت درجة الحرارة بشكل لطيف ، لقد ألفت عيناي النور القاتم ، وبرفع كتابي أو عملي إلى موضع معين قرب الفتحة نجحت في القراءة والخياطة . وكان ذلك اسعافاً كبيراً للوتيرة الواحـــدة المملة في حياتي ، ولكن عندما حـــل الشتاء . نفذ

البرد من خلال السطح الرقيق وأصابتني قشعريرة باردة رهيبة ولم تكن فصول الشتاء هناك طويلة جداً وباردة كما هي الحال في خط العرض الشمالي ، ولكن البيوت ليست مبنية للحماية من البرد ، وجحري الصغير كان مزعجاً بشكل غريب ، لقد جلبت لي جدتي اللطيفة ملابس للنوم ومشروبات ساخنة . وغالباً ما كنت مضطرة إلى الاضطجاع في الفراش طيلة اليوم لأخذ الراحة ، ولكن مع كل احتياطاتي فان كتفي وقدمي تعرضت للصقيع ، آه هذه الأيام الطويلة المظلمة . ودون أي شيء تستريح إليه ، ولا أفكار تحتل ذهني سوى الماضي الموحش والمستقبل غير المضمون ، وكم كنت شاكرة لله عندما تحسن الطقس بشكل لطيف لأدثر نفسي وأجلس على الفتحة لمراقبة المارة . وللجنوبيين عادة التوقف والتحدث في الشوارع ، وسمعت العديد من المحادثات التي لم يقصد بها أن تصل إلى أذني ، وسمعت صيادي العبيد يخططون كيف سيمسكون هارباً مسكيناً ، وسمعت عدة مرات تلميحات حول الدكتور « فلنت » وحولي وحول تاريخ طفلي اللذين ربما كانا يلعبان قرب البوابة ، قال أحدهم : « لن أحرك اصبعي من أجل اعتقالها كممتلكات « لفلنت » العجوز » وقال آخر : « إنني أمسك بأي زنجي من أجل المكافأة لأن الإنسان يجب أن يحصل على ما يخصه إذا كان وحشاً لعيناً » والرأي الذي كان غالباً معبراً عنه أنني كنت في الولايات الحرة ، ونادراً جداً ما ذكر أحدهم أنني يمكن أن أكون في الجوار ، ولو اتجهت أبسط الشبهات حول منزل جدتي لأحرقوه كالهشيم ، ولكن كان ذلك آخر مكان فكروا فيه . ومع ذلك فلم يكن هناك مكان يتواجد فيه العبيد يمكن أن يقدم لي مكاناً جيداً للاختفاء كهذا المكان .

وحاول الدكتور « فلنت » وعائلته تكراراً إغراء ورشوة أطفالي ليقولوا شيئاً ما قد سمعوه عني وذات يوم أخذهم الدكتور إلى الدكان وعرض عليهم بعض النقود الفضية الصغيرة اللامعة والمناديل البهيجة فيما لو أخبروا أين كانت أمهم . وانكمشت « ايلين » بعيداً عنه . ولم تتكلم ولكن « بني » تكلم قائلاً : « يادكتور « فلنت » أنا لا أعرف أين أمي ، وأضمن أنها في نيويورك وعندما تذهب إلى هناك مرة ثانية آمل أنك سوف تطلب إليها العودة إلى المنزل لأنني أريد رؤيتها ، ولكن إذا وضعتها في السجن أو أخبرتها انك سوف تقطع رأسها فانني سأخبرها أن ترجع . . . »

* *

٢٢

مهرجانات الميـــلاد

كان عيد الميلاد يقترب ، وقد أحضرت لي جدتي أقمشة لأشغل نفسي بحياكة الثياب واللعب الصغيرة لأطفالي ، ولو لم يكن يوم التأجير مقترباً . والكثير من العائلات كانت تنتظر بفزع إلى احتمال الافتراق في مدى أيام قليلة لكان الميلاد موسماً للعبيد المساكين ، وحتى أمهات العبيد حاولن إسعاد قلوب صغارهن في تلك المناسبة ، وامتلأت سلال الميلاد الخاصة بـ (بني) و (إيلين) ولم تستطع أمهم السجينة أن يكون لها امتياز مشاهدة مفاجأتهم ومرحهم . ولكني سررت بالتلصص عليهم بينما كانوا ذاهبين إلى الشارع بثيابهم الجديدة وسمعت « بني » يسأل رفيقه الصغير ما إذا كانت القديسة كلوز (سانتا كلوز) قد جلبت له أي شيء ، وأجابه الصغير « نعم ولكن سانتاكلوز هي ليست رجلاً حقيقياً ، إن أمهات الأطفال هن اللواتي يضعن الأشياء في السلال » وقال « بني » : « كلا لا يمكن أن يكون ذلك ، لأن سانتاكلوز جلبت لي ولإيلين هذه الملابس الجديدة . وامي قد ذهبت كل هذه الفترة الطويلة . . . . » .

كم تمنيت أن أخبره أن أمه هي التي خاطت تلك الثياب ، وأن دموعاً غزيرة قد انهمرت بينما كانت تصنعها .

ينهض كل طفل باكراً صباح عيد الميلاد ليرى (جونكانوس) (*) ويرى تجرد عيد الميلاد من جاذبيته الكبيرة . ويتألف الموكب من جماعات من العبيد من المزارع . وعموماً من الطبقات الدنيا ، واثنين من

(*) من الواضح أنها مشتقة من كلمة افريقية تعني « يتيما » . و.ت .

الرياضيين مدثرين بالقماش القطني . وتلقى عليها شبكة مغطاة بكافة الألوان الزاهية المخططة . بينما تثبت ذيول البقر إلى ظهورهما . ويزين رأسيهما قرون . وهناك صندوق مغطى بجلد الماعز ويدعى (صندوق الخبيزة) ، ودزينة من الرجال تدق عليه بينما آخرون يضربون بمثلثات وعظام الفك وترقص عليها أيدي الراقصين ويستعدون لذلك قبل شهر . يؤلفون الأغاني التي تغنى في هذه المناسبة . وهذه الجماعات يتألف كل منها من مائة رجل يخرجون مبكرين في الصباح ، ويسمح لهم بالتجوال حتى الساعة (١٢) طالبين التبرعات ، ولا يترك باب دون زيارة حيث يكون هناك أمكانية في الحصول على بنس أو زجاجة من مشروب الروم وهم لا يشربون بينما هم في الخارج إنما يحملون شراب الروم في الجرار إلى المنزل حيث يكون هناك احتفال صاخب مخمور ، وتبلغ تبرعات الميلاد عشرين إلى ثلاثين دولاراً ، ومن النادر أن يرفض رجل أبيض أو طفل إعطاءهم شيئاً ولو كان زهيداً . وإذا رفض فانهم يقرعون أذنيه بالأغنية التالية :

السادة المساكين هكذا هم يقولون
في أسفل الجحيم هكذا هم يقولون
لا نقود لديهم هكذا هم يقولون
حتى ولا شلن هكذا هم يقولون
الله القدير يبارك هكذا هم يقولون

وعيد الميلاد هو يوم وليمة لكلا البيض والملونين . والعبيد الذين هم محظوظون بما يكفي . يحصلون على شلنات قليلة . ومن المؤكد أنهم سوف يصرفونها من أجل طيب الطعام والكثير من الديوك الرومية والخنزير المصطاد ، دون أن يقولوا « بعد إذنك سيدي » وأولئك الذين لا يستطيعون الحصول على ما ذكر يطبخون حيوان « البوسم » أو حيوان « الروكون » ويصنعون منها أطباقاً شهية . وقد وضعت جدتي

دجاجاً وخنازير برسم البيع ، وكان من عادتها دائماً أن تضع ديكاً رومياً وخنزيراً مشويين من أجل عيد الميلاد .

وبهذه المناسبة تم تحذيري في أن أكون هادئة تماماً ، لأنه قد تم دعوة ضيفين أحدهما شرطي البلدة ، والثاني ملون حر حاول بيع نفسه للبيض . والذي كان دائماً على استعداد لأن يقوم بأقذر الأعمال من أجل مداهنة البيض ، وكان لجدتي باعث لدعوتهما ، لقد رتبت أن يطوفا بكافة أرجاء المنزل . وتركت كافة أبواب الطابق السفلي مفتوحة كي يمرا بها ، وبعد العشاء دعيا للصعود للطابق العلوي لمشاهدة طائر ساخر ناعم كان خالي قد جلبه للتو وهناك أيضاً كانت الغرف مفتوحة لكي يدخلها الضيفان وعندما سمعتهم يتحدثون في الرواق كاد قلبي أن يتوقف عن الحركة ، وعرفت أن هذا الرجل الملون أمضى عدة ليال يتقصى أخباري ، وعرف كل انسان أن في عروق هذا الرجل الملون دم عبد من ناحية والده ، ولكن من أجل أن يبيع نفسه للبيض فانه كان على استعداد لأن يقبل أقدام مالكي العبيد . . كم أحتقره . أما فيما يتعلق بالشرطي فانه لم يظهر ألواناً مزيفة ، لقد كانت واجبات مكتبه خسيسة ، ولكنه كان أفضل من زميله لدرجة أنه لم يدع بأنه أفضل حالاً مما هو عليه . . فأي رجل أبيض يستطيع أن يدفع نقوداً لشراء عبد ، يعتبر نفسه منحطاً لكونه شرطياً ، فاذا وجد أي عبد في الخارج بعد الساعة التاسعة فانه يمكن أن يجلده بقدر ما يريد ، وذلك كان امتيازاً يحسد عليه .

وعندما كان الضيفان مستعدين للرحيل ، أعطت جدتي لكل منهما بعض الحلوى كهدية لزوجتيهما ومن خلال فتحة التلصص رأيتهما يغادران البوابة ، وكم كنت مسرورة عندما أغلق الباب خلفهما وهكذا مر علي أول عيد ميلاد في جحري .

* * *

٢٣

لا أزال في السجن

عندما عاد الربيع ، وضعت ذرعاً بالرقعة الخضراء التي أسيطر عليها من الفتحة الصغيرة وسألت نفسي ، كم من مواسم الصيف والشتاء علي أن أظل هكذا ، اشتقت إلى المزيد من الهواء المنعش وإلى تمديد أعضائي المتشنجة ، وأن يكون لي مكان لأنتصب وأشعر بالأرض تحت قدمي مرة أخرى . . . وكان أقربائي وبصورة مستمرة يتطلعون إلى أي مجال للهرب ولكن لم يعرض أحد شيئاً عملياً أو حتى سليماً وأتى الصيف الحار مرة ثانية جاعلاً زيت التربنتين يسيل من السقف بشكل قطرات على رأسي

وأثناء الليالي الطويلة كنت لا أهدأ بحثاً عن الهواء ، وليس لي مجال لرفع الرأس أو الاستدارة ، ولكن ما يعزيني في ذلك الجو الخانق هو عدم دخول البعوض إلى مخبئي وعدم التلطف بالطنين فيه ومع أني أكن للدكتور « فلنت » كراهية كبيرة ، الا أنني لم أرغب له أن يقاسي لأكثر مما قاسيته في صيف واحد سواء في عالمنا هذا أو في العالم الآخر ، ومع ذلك فان القوانين تسمح له بأن يظل حراً في الهواء الطلق ، بينما أنا التي لم أرتكب جريمة جلست هنا كوسيلة وحيدة لتجنب قسوة القوانين التي سمحت له بمعاقبتي ، ولا أدري ما الذي جعل الحياة تستمر في داخلي، ومرة بعد مرة ، فكرت أنه ينبغي أن أموت قبل مرور وقت طويل

ولكنني رأيت أوراق خريف آخر تدور في الهواء وشعرت بلمسة شتاء آخر ، وفي الصيف كانت عواصف الرعد المفزعة جداً مقبولة لأن المطر جاء عن طريق السطح ، ودحرجت فراشي لكي تترطب الألواح الخشبية الحارة تحتها وبعد أن مر وقت من الفصل كانت العواصف في بعض الأحيان تبلل ثيابي ولم يكن ذلك شيئاً مريحاً عندما كان البرد يشتد، فالعواصف اللطيفة كنت أبعدها بمشاقات الحبال القديمة .

ورغم أن حالتي لم تكن مريحة إلا أنه كانت لدي لمحات من الأشياء خارج الأبواب مما جعلني شاكرة مكان اختفائي التعس . وذات يوم رأيت أمة تمر قرب بوابتنا وهي تتمتم : « إنها له وهو يستطيع أن يقتلها إذا شاء » وأخبرتني جدتي تاريخ تلك المرأة ، لقد رأت سيدتها ذلك اليوم طفلها للمرة الأولى ، وفي أسارير وجهه اللطيف رأت شبهاً لزوجها ، فطردت الأمة وطفلها خارجاً . وحرمت عليها العودة . وذهبت الأمة إلى سيدها وأخبرته بما قد حصل ، فوعد بالتحدث إلى سيدتها لتصحيح الأمور وفي اليوم التالي بيعت هي وطفلها إلى تاجر من جورجيا .

ومرة ثانية رأيت امرأة تهرع مسرعة حيث كان رجلان يطاردانها. لقد كانت أمة مربية ولطيفة لأطفال السيدة . فمن أجل هفوة زهيدة أمرتها سيدتها بأن تتجرد لتضرب بالسياط ، وللتخلص من الخزي والتعذيب هرعت إلى النهر وقفزت إليه منهية أخطاءها بالموت .

ولم يستطع السناتور (براون) أن يتجاهل مثل هذه الحقائق الكثيرة

حيث أنها متكررة الحدوث في كل ولاية جنوبية(*) ، ومع ذلك فانه وقف في (الكونغرس) في الولايات المتحدة وصرح بأن العبودية كانت بركة أخلاقية واجتماعية وسياسية عظيمة بالنسبة للسيد والعبد .

وكانت معاناتي كبيرة جداً أثناء الشتاء التالي أكثر مما قاسيته في المرة الأولى ، لقد تخدرت أطرافي لقلة الحركة فامتلأت بالتشنج ، وشعرت ببرودة شديدة في رأسي وحتى وجهي ولساني تجمدا وفقدت القدرة على الكلام ، وبالطبع كان من المستحيل تحت هذه الظروف استدعاء طبيب ، وأتى أخي وليام وبذل ما بوسعه من أجلي ، كما أن خالي فيليب رعاني بلطف ، وتسللت جدتي المسكينة هنا وهناك مستعلمة ما إذا كانت هناك أي علامات لعودة الحياة ، واستعدت وعبي عندما سكبوا على وجهي الماء البارد ، ووجدت نفسي منحنية على ذراع أخي بينماانحنى هو علي بعينين دامعتين،وبعد ذلك أخبرني أنهظنبأني مت لأنني بقيت ست عشرة ساعة فاقدة الوعي ، وأصبحت بعدئذ في حالة انفعال وجابهتني مخاطر كثيرة في خيانة نفسي وأصدقائي، ولمنع ذلك خدروني بالعقاقير، وبقيت في الفراش ستة أسابيع متعبة الجسم ومريضة في القلب ، كيف يتم الحصول على استشارة طبية؟ ذلك هو السؤال وأخيراً ذهب وليام إلى طبيب ثومسونياني (**) وانتحل لنفسه كل آلامي وصداعي ، وعاد بالأعشاب والجذور والمرهم ، وكان من

(*) – البرت غالاتين براون (١٨١٣ – ١٨٨٠) رجل الكونغرس ، حاكم المسيسيبي وسناتور كان عنيفاً قاسياً ومعروفاً ، ونصيراً لحقوق الولايات والعبودية . وبصورة عامة فان كافة السياسات التي دافع عنها لدوائر صغار المزارعين ...

(**) – كان هذا الطبيب قد تم الترخيص له لممارسة النظام الثومسونياني الذي أوجده صموئيل ثومسون (١٧٦٩ – ١٨٤٣) الطبيب النباتي .

اختصاصه فرك المرهم بالنار ولكن كيف يمكن إدخال النار إلى جحري الصغير وجرت تجربة فحم الحطب في فرن ولكن دون أي مخرج للغاز وكلفتني حياتي تقريباً فكنت شديدة الضعف ومضى على تمتعي بدفء النار وقت طويل جداً حتى أن هذه الفحمات القليلة في الحقيقة جعلتني أبكي ، وأعتقد أن الأدوية أفادتني قليلاً ولكن شفائي كان بطيئاً ، ومرت أفكار سوداء في ذهني بينما كنت اضطجع هناك يوماً بعد يوم ، وحاولت أن أكون شاكرة لزنزانتي الصغيرة الموحشة ولكني بدأت أحبها وأحسست أنها جزء من الثمن الذي أديته من أجل خلاص أطفالي . وفي بعض الأحيان كنت أشعر أن الله رب رؤوف سوف يغفر لي أخطائي نتيجة معاناتي ، وفي أحيان أخرى بدا لي وكأنه ليس هناك عدل أو رحمة في العالم السماوي ، وتساءلت لماذا يسمح بوجود لعنة العبودية ، ولماذا اضطهدت بهذا الشكل ، واسيء إلي منذ الطفولة وهذه الأشياء اتخذت شكل سر غريب لم يزل حتى الساعة غير واضح لنفسي كما أثق أنها ستكون كذلك فيما بعد .

وفي وسط المرض ، انهارت جدتي تحت وطأة القلق والتعب . . . كنت أخشى فكرة فقدانها ، تلك التي كانت أفضل صديق لي وأماً لأطفالي ، وكانت تلك التجربة أشد إيلاماً مما حل بي . آه كم صليت بحرارة كي تستعيد عافيتها ، وكم بدا ذلك شيئاً قاسياً . حتى أنني لم أستطع أن أميل عليها ، تلك التي طالما اعتنت بي بكل لطف .

وذات يوم أثار أعصابي صراخ طفل ، مما أعطاني القوة لأن أزحف إلى ثقب التلصص ، فرأيت ولدي ملطخاً بالدم ، لقد أفلت عليه كلب

شرس كان في العادة مقيداً وقد أفلت وعضه ، [illegible] في طلب الطبيب وسمعت أنين وصراخ طفلي بينما كانت تجرى خياطة جروحه . آه أي عذاب لقلب الأم أن تصغي لهذا وتكون غير قادرة على الذهاب إليه .

ولكن الطفولة هي مثل النهار في الربيع . تتناوبه زخة خفيفة من المطر وأشعة الشمس . وقبل الليل عاد لـ (بني) لمعانه وحيويته مهدداً باتلاف الكلب ، ولكن كان سروره عظيماً عندما أعلمه الطبيب في اليوم التالي أن الكلب قد عض ولداً آخر ، وقد أطلق النار عليه ، واستعاد « بني » صحته وشفي من جروحه ولكن مضى وقت طويل قبل أن يستطيع المشي .

وعندما عرف العديد من السيدات اللواتي كن زبائن لجدتي أنها مريضة ، قمن بزيارتها لجلب الراحة لها ، وللاستفسار عما إذا كانت بحاجة لأي شيء ، وطلبت خالتي نانسي ذات ليلة السماح لها بالعناية بأمها المريضة ، وأجابت السيدة « فلنت » قائلة : « لا أجد حاجة لذهابك لأنني لا أستطيع الاستغناء عنك » . ولكنها عندما وجدت السيدات الأخريات في الجوار وكن مجاملات ولم تجد من المناسب لهن أن يتفوقن عليها في الإحسان المسيحي ، انطلقت في تعطف متميز ، ووقفت إلى جانب فراش تلك التي أحبتها في طفولتها ، والتي تلقت بالمقابل مثل تلك المعاملة المحزنة ، وبدت مندهشة لأن تراها شديدة المرض ، وعنفت الخال فيليب لعدم إخبار الدكتور « فلنت » وبعثت في طلبه فوراً . وجاء وقد كان من الممكن لي أن أفزع فيما لو عرفت رغم أنني كنت في أمان في موضعي . وخاصة أنه كان قريباً جداً مني . ووجد جدتي بحالة حرجة جداً وقال إذا كان الطبيب المعتني بها يرغب في ذلك فهو مستعد لزيارتها

وما رغب في أن يأتي هو إلى المنزل في كافة الساعات ولم نكن نميل إلى إعطائه الفرصة ليضع قائمة طويلة .

وبينما كانت السيدة « فلنت » ذاهبة إلى خارج الغرفة ، أخبرتها سالي أن سبب عرج « بني » هو أن كلباً عضه ، فأجابت هي : « إنني مسرورة وكم أرغب لو أنه قتله ، سيكون نبأ سارّاً ترسله إلى أمه ، ويومها سوف تأتي الكلاب ، وسوف تنتزعها فيما بعد » وبهذه الكلمات المسيحية ارتحلت هي وزوجها ، ولرضاي الكبير لم يعودا أبداً .

وسمعت من خالي « فيليب » تكلله مشاعر الفرح والشكر الهادئة ، أن الأزمة مرت وجدتي سوف تعيش ، أستطيع الآن أن أقول من صميم قلبي : « الله رحيم ، لقد كفاني مؤنة ألم الشعور في أني سببت موتها » .

* * *

٢٤
مرشـــح الكونغرس

انتهى الصيف تقريباً، عندما قام الدكتور «فلنت» بزيارة ثالثة إلى نيويورك بحثاً عني . . . وكان هناك مرشحان يسعيان لعضوية الكونغرس، وعاد في الموسم من أجل التصويت ، لقد كان والد أطفالي مرشح حزب الأحرار. وكان الدكتور عضواً صادق العضوية في حزب الأحرار، ولكنه الآن بذل كل طاقاته من أجل هزيمة السيد « ساندز » ودعا مجموعات كبيرة من الناس إلى العشاء في ظل أشجاره وزودهم بمقدار كبير من الروم والبراندي .

لقد صرف الدكتور شرابه عبثاً ، فقد تم انتخاب السيد «ساندز » وهي حادثة أوجدت لدي بعض الأفكار القلقة ، إنه لم يحرر أطفالي . وإذا حدث ومات فانهم سيكونون تحت رحمة ورثته ، صوتان صغيران يصلان إلى أذني دائماً وتكراراً بدأا يلحان علي ألا أدع والدهما يرحل دون الكفاح من أجل جعل حريتها مؤمنة . . لقد مضت سنوات منذ أن تحدثت إليه ، ورغم أنني لم أره منذ تلك الليلة التي مررت فيها به ، ولم يعرفني بسبب ملابس البحار التي ارتديتها ، وافترضت أنه سوف يزورني قبل المغادرة ليقول شيئاً ما لجدتي حول الأطفال ، وعلى ذلك قررت الاتجاه الذي سوف أسلكه .

وفي اليوم السابق لرحيله إلى واشنطن. عملت ترتيبات حوالي المساء

لأن أخرج من مكان اختفائي إلى غرفة التخزين في الطابق السفلي . ووجدت نفسي متيبسة تماماً وبشكل سيء . لقد استطعت بكل صعوبة أن أنتزع نفسي من المكان إلى مكان آخر . وعندما وصلت غرفة التخزين وقعت على عقبي وانطرحت أرضاً، وبدا وكأنني لن أستطيع أن أستخدم أطرافي مرة ثانية ، ثم زحفت على يدي وركبتي إلى النافذة . واختفيت خلف برميل انتظر قدومه . وأعلنت دقات الساعة التاسعة ، وعرفت أن القارب البخاري سوف يبحر بين العاشرة والحادية عشرة ، كادت آمالي تتلاشى ولكن في الحال سمعت صوته يقول لأحدهم : « انتظرني لحظة . أود أن أرى الخالة مارتا » وعندما خرج ماراً بالنافذة قلت : « قف لحظة ، ودعني أتحدث عن أطفالي » فتردد ثم استمر في سيره وخرج من البوابة ، وأغلقت الأباجور الذي كنت قد فتحته جزئياً وغرقت خلف البرميل ، لقد عانيت كثيراً ولكن نادراً ما وجدت ألماً مثل الذي شعرت به وبشكل حاد ، هل أصبح أطفالي عندئذ ذوي أهمية قليلة بالنسبة له ؟ وهل يحمل شعوراً ضئيلاً بالنسبة لأمهم التعسة ؟ حتى أنه لم يضع لحظة بينما كانت تتوسل إليه من أجلهم ؟ وأشغلتني ذكريات مؤلمة كثيراً حتى أنني نسيت أني لم أثبت الأباجور حتى سمعت بعضهم يفتح ونظرت ، لقد عاد قائلاً : « من نادى علي ؟ » وأجبته بصوت منخفض : « أنا ». قال : « آه يالبندا ، لقد عرفت صوتك ولكنني كنت خائفاً أن أجيب لئلا يسمعني صديقي ، لماذا أتيت إلى هنا ؟ أمن الممكن أن تجازفي بنفسك في هذا المنزل ؟ إنهم مجانين لأن يسمحوا بذلك ، وأعتقد أنكم ستكونون جميعاً في خراب » . لم أشأ توريطه بأن أجعله يعرف مكان اختفائي ، وهكذا قلت فقط « عرفت أنك سوف تأتي لوداع جدتي ، وهكذا أتيت لأتكلم بضع كلمات إليك حول تحرير أطفالي ، يمكن أن

تحدث تبدلات عديدة أثناء الأشهر الستة التي ستقضيها في واشنطن . ولا يبدو من حقك أن تعرضهم لخطر مثل هذه التغييرات ، إنني لا أريد شيئاً لي ، بل كل ما أطلبه هو أنك سوف تحرر أطفالي ، أو تفوض بعض الأصدقاء لأن يفعلوا ذلك قبل أن تذهب » .

ووعد أنه سوف يفعل ذلك . وأبدى أيضاً الاستعداد لعمل أية ترتيبات حيث يمكن شرائي .

وسمعت وقع الأقدام يقترب ، وأغلقت الأباجور بسرعة وأردت الزحف إلى جحري دون أن أجعل العائلة تعلم ماذا فعلت لأنني عرفت أنهم سوف يعتبرون ذلك عملاً طائشاً ، ولكنني خطوت عائدة إلى المنزل لإعلام جدتي بأنه تحدث إلي من نافذة التخزين . وأن أتوسل إليها أن تسمح لي بالبقاء في المنزل الليلة ، مع أنه قال أن هذا ذروة الجنون في أن أكون هناك ، لأن ذلك سيؤدي إلى هلاكنا جميعاً . ولحسن الحظ كان على عجلة من أمره فلم ينتظر جواباً وإلا لكانت المرأة العجوز العزيزة قد أخبرته بكل شيء .

وحاولت العودة إلى جحري ولكني وجدت صعوبة أكبر في النهوض . فالآن وقد انتهت مهمتي فان القوة القليلة التي دعمتني خلالها قد ذهبت ، وغرقت يائسة على الأرض . وأتت جدتي التي كانت قد فزعت من المجازفة التي قمت بها إلى غرفة التخزين في الظلام وأقفلت الباب خلفها ثم قالت « ليندا أين أنت؟» أجبتها « إنني هنا قرب النافذة . لم أستطع أن أدعه يذهب دون تحرير الأطفال ، من يدري ماذا يمكن أن يحدث ؟ » قالت: « تعالي ياطفلتي . ليس من المناسب بقاؤك

هنا دقيقة أخرى . لقد ارتكبت خطأ ولكنني لا أستطيع لومك أيتها المسكينة »

وأخبرتها أني لا أستطيع العودة دون مساعدة ، وأنها ينبغي أن تدعو خالي . وجاء خالي فيليب وقد منعته الشفقة من لومي ، وحملني إلى زنزانتي ووضعني بلطف على الفراش ، وأعطاني بعض الدواء وسأل إذا ما كان هناك شيء آخر يستطيع أن يفعله ، ثم ذهب وتركني مع أفكاري بلا نجوم في منتصف الليل المظلم حولي .

ولقد خشي أصدقائي أن أصبح مقعدة مدى الحياة ، ولكني كنت متعبة جداً بسبب طول مدة سجني ، حتى أنه لولا الأمل في خدمة أطفالي لكنت شاكرة للموت ، ولكن من أجلهم كنت عازمة على أن أتحمل .

* * *

٢٥

منافســـة في المكر

لم يتخل الدكتور « فلنت » عن طلبي ، وكان يقول بين الفينة والفينة لجدتي إنني سوف أعود وأسلم نفسي طواعية ، وانني عندما أفعل ذلك يمكن شرائي من قبل أقاربي أو أي شخص يرغب في ذلك وعرفت طبيعة مكره بشكل جيد ، ولكي أدرك أن هذا كان فخاً نصب لي وهكذا فهم كل أصدقائي ذلك وصممت على أن أنافسه مكراً بمكر . ولكي أجعله يعتقد أني كنت في نيويورك صممت على تحرير رســالة إليه مؤرخة من ذلك المكان . وأرسلت في طلب صديقي « بيتر » وسألته ما إذا كان يعرف من يثق به من الاشخاص الملاحين ، والذي يمكن أن يحمل رسالة كهذه إلى نيويورك ويضعها في دائرة البريد هنـــاك . قال إنه يعرف ذلك ولكنه كان عازماً على أن يعمل أي شيء لمساعدتي . وأعربت عن الرغبة في اقتناء صحيفة في نيويورك لأتأكد من أسماء بعض الشوارع ، قدس يده في جيبه وقال : « ها هنا نصف واحدة . وكانت حول القبعة التي اشتريتها من بائع جوال أمس » وأخبرته أن الرسالة ستكون جاهزة في الأمسية التالية ، وودعني مضيفاً « حافظي على معنوياتك يالیندا ، فان الأيام الأفضل سوف تأتي شيئاً فشيئاً » .

وظل خالي فيليب مراقباً البوابة حتى انتهت مقابلتنا القصيرة . وفي صباح اليوم التالي جلست قرب الفتحة الصغيرة لتفحص الصحف .

كانت قطعة من صحيفة نيويورك هيرالد (*) وكانت ذات يوم صحيفة تشتم الناس الملونين . وأصبحت مهيأة لتقدم لهم خدمة ، أما وقد حصلتُ على المعلومات التي أردتها بالنسبة للشوارع والأرقام فقد جلست أكتب رسالتين : الأولى إلى جدتي والثانية إلى الدكتور « فلنت » ذكرته كيف هو . الرجل الأشيب قد عامل طفلة وضعت تحت سيطرته ، وأي سنين من البؤس جلبها عليها . وإلى جدتي أعربت في الرغبة في ارسال أطفالي إلي في الشمال حيث أستطيع تعليمهم كيف يحترمون أنفسهم وسقت لهم مثالاً عفيفاً لم تكن الأم الأمة مسموحاً لها أن تفعله في الجنوب ، طلبت إليها أن توجه جوابها إلى شارع معين في بوسطن لأنني لم أسكن في نيويورك . وأنني كنت أذهب إلى هناك في بعض الأحيان ، ووضعت تاريخاً متأخراً للرسالتين من أجل الوقت الذي سوف يستغرقه حملهما ، وأرسلت مذكرة من التاريخ إلى المراسل ، وعندما أتى صديقي من أجل الرسائل ، قلت « ليباركك الله ويجزيك يا بيتر مقـــابل هذا اللطف ، أرجوك أن تكون يقظاً . وإذا ما اكتشف أمري فأنت وأنا سوف نعاني بشكل فظيع ، ليس لي قريب يجرؤ على فعل ذلك لي» ، فأجاب : « يمكنك الثقة بي يا ليندا ، أنا لاأنسى أن والدك كان أفضل صديق لي ، وأنا سأكون صديقاً لأطفاله ما حييت » .

لقد كان من الضروري إعلام جدتي بما قد فعلت لكي تكون مستعدة للرسالة ، ومتهيئة لسماع ما عساه يقول الدكتور « فلنت » حول كوني

(*) تم إنشاؤها عام ١٨٣٥ من قبل جيمس غوردن ، بنيت (١٧٩٥ – ١٨٧٢) هذه الصحيفة كانت إلى جانب العبودية حتى الحرب الأهلية ، ثم تحولت وأصبحت مع الأتحاد

(و.ت)

في الشمال ، وانزعجت هي بشكل حزين ، وشعرت بأن أذى سوف يعقب ذلك . كما أنني أعلمت الخالة نانسي بخطتي لكي تقول لنا ما يمكن أن يقال في منزل الدكتور « فلنت » . لقد همست بذلك لها من خلال الشق ، وأعادت هي الهمس قائلة : «آمل أن ذلك سيكون ناجحاً، أنا لا أهتم بكوني أمة طيلة حياتي إذا ما استطعت فقط أن أراك وأطفالك أحراراً » .

أصدرت تعليماتي بأن رسائلي يجب أن توضع في دائرة بريد نيويورك يوم ٢٠ من الشهر وعشية (٢٤) أتت إلي خالتي لتقول أن الدكتور « فلنت » وزوجته كانا يتحدثان بصوت منخفض حول رسالة كان قد تلقاها ، وأنه عندما ذهب إلى مكتبه وعد بجلبها عندما يعود لتناول الشاي ، وهكذا استنتجت أنني يجب أن أسمع بأن رسالتي سوف تقرأ في اليوم التالي . وأخبرت جدتي أن من المؤكد قدوم الدكتور « فلنت » وطلبت إليها أن تجلسه قرب باب معين . وتترك الباب مفتوحاً لكي أستطيع سماع ما يقوله ، وفي الصباح التالي ، اتخذت مكاني على مرمى البصر من الباب ، وبقيت بلا حراك وكأنني تمثال، لم يطل الوقت حتى سمعت البوابة تغلق بسرعة ووقع الأقدام المعروفة جيداً تتقدم من المنزل ، وجلس الدكتور على الكرسي الذي وجده أمامه وقال : « حسناً يامارتا . لقد جلبت إليك رسالة من ليندا ، لقد بعثت إلي برسالة أيضاً ، أنا أعرف تماماً أين أجدها ، ولكنني لا أريد اختيار الذهاب إلى بوسطن من أجلها . يجدر بها أن تعود برضاها ، وبطريقة محترمة . إن خالها فيليب هو الشخص المفضل للذهاب إليها . فهي ستشعر معه بحرية العمل تماماً . وأنا سوف أغطي مصاريفه في الذهاب والإياب وسوف تباع إلى أصدقائها وأطفالها سيكونون أحراراً . وأنا أفترض كذلك على

الأقل ، وعندما تحصلين على حريتها ستكونون جميعاً أسرة سعيدة ، وأفترض يامارتا أن لا اعتراض لديك على قراءة الرسالة التي بعثت بها إليك ليندا ».

وفض الخاتم ، ورأيته يقرأها ، ياللوغد العجوز ، لقد كتم الرسالة التي كتبتها إلى جدتي وهيأ بديلاً لها من عنده وكان فحواها كما يلي : « عزيزتي الجدة : لقد أردت الكتابة إليك منذ وقت طويل ولكن الطريقة المخزية التي تركتك بها وأطفالي جعلتني خجلة من فعل ذلك ، لو عرفت كم عانيت منذ أن هربت ستشفقين علي وتسامحينني ، لقد اشتريت الحرية بثمن عزيز ، إذا ما جرى ترتيب شيء من أجل عودتي إلى الجنوب دون عبودية فسوف آتي بكل سرور ، وإلا أرجوك أن تبعثي بأطفالي إلى الشمال . لا أستطيع العيش أبداً دونهم ،دعيني أعرف في الوقت المناسب ، وأنا سوف أقابلهم في نيويورك أو فيلادلفيا ، في المكان الأفضل الذي يناسب خالي ، اكتبي إلي بأسرع ما يمكن واكتبي إلى ابنتك الشقية — ليندا .

وقال المنافق العجوز ، : « هذا تماماً ما توقعت حدوثه » .

ونهض للمغادرة وهو يقول : « كما ترين فان الفتاة الغبية قد ندمت على طيشها ، وتريد العودة ، وعلينا مساعدتها على فعل ذلك يا مارتا ، تحدثي إلى فيليب حول ذلك ، وإذا ما شاء الذهاب إليها ، فانها ستثق به وتعود ، أريد جواباً غداً ، صباح الخير يا مارتا » .

وحالما خطا للخروج من الرواق ، تعثر بطفلتي الصغيرة وقال : « آه إيلين ، أهي أنت ؟ » قالها بلطف كبير مردفاً : « إنني لم أرك ، كيف حالك ؟ »

وأجابته هي : « جيدة جداً ياسيدي ، لقد سمعتك تخبر جدتي أن أمي آتية إلى هنا ، أريد أن أراها » . .

أجابها : « نعم يااايلين وسوف أحضرها هنا قريباً جداً . وسوف ترينها حسبما تشائين ، أيتها الزنجية الصغيرة المتجعدة الرأس » .

كان ذلك مبهجاً كملهاة بالنسبة لي . ولكن جدتي فزعت وأغتمت لأن الدكتور أراد أن يذهب خالي من أجلي .

وفي اليوم التالي أتى الدكتور « فلنت » في المساء ليتحدث في الموضوع وأخبره خالي أنه مما سمعه عن « مساسوشيتس» وفهم أنه سوف يهاجَم إذا ذهب إلى هناك في إثر أمة هاربة ، فأجابه الدكتور : « كله سقط المتاع بلا معنى يا فيليب ، هل تظن أنني أريدك أن تذهب سدىً إلى بوسطن ؟ إن العمل يمكن إنجازه بهدوء . ليندا كتبت أنها تود العودة ، وأنت قريبها . وهي سوف تثق بك . سوف تكون القضية مختلفة لو أنني ذهبت ، يمكن أن تعترض على القدوم معي ، ولو عرف المبطلون الدهاة أنني سيدها سوف لا يصدقونني إذا ما ذكرت لهم أنها رجت من أجل العودة ، هم سينهضون في صف وأنا لا أريد أن أرى ليندا تجر خلال الشوارع كزنجية أمة . . لقد كانت ناكرة للجميل مقابل كل معاملتي الرقيقة ولكنني أسامحها وأود أن أنجز عمل صديق تجاهها ، لست أرغب في التمسك بها كأمة . إن أصدقاءها يمكن أن يشتروها حالما تصل إلى هنا » . .

ولما وجد أن حججه أخفقت في إقناع خالي قال الدكتور :«دع القطة تخرج من الكيس» وبقوله أنه كتب إلى عمدة بوسطن للتأكيد ما إذا كان هناك شخص بأوصافي في الشارع والرقم اللذين دونا على

رسالتي وقد حذف ذلك التاريخ في الرسالة التي زورها لتقرأ إلى جدتي ولو أنني أرخّت من نيويورك . لكان الرجل العجوز قد قام على الأرجح برحلة أخرى إلى تلك المدينة ، ولكن حتى في تلك المنطقة المظلمة من حيث المعرفة يستثنى منها العبد تماماً ، سمعت كثيراً عن « مساسوشيتش » لكي أصل إلى الاستنتاج أن مالكي العبيد لم يعتبروها مكاناً مريحاً للذهاب بحثاً عن الهاربين . كان ذلك قبل ابرام قانون العبيد الأحرار ، وقبل أن تقبل « مساسوشيتس » أن تكون « صائدة العبيد » لحساب الجنوب .

وأتت جدتي التي كانت منقبضة لرؤية عائلتها دوماً في خطر ، أتت إلي بملامح مغتمة قائلة : « ماذا ستصنعين إذا أرسل عمدة بوسطن إليه بكلمة يقول فيها أنك لست هناك ؟ عندئذ سوف يشتبه بأن الرسالة كانت خدعة ، ويمكن أن يجد شيئاً ما حولها ، وسوف نقع كلنا في المتاعب ، آه ياليندا ، وددت لو أنك لم تبعثي بالرسائل » .

وقلت أنا : « لا تزعجي نفسك ياجدتي ، فعمدة بوسطن لن يزعج نفسه من أجل اصطياد الزنوج لحساب الدكتور « فلنت » إن الرسائل سوف تصنع حسناً في آخر الأمر ، سوف أخرج من هذا الثقب المظلم في وقت ما أو آخر . »

أجابت الصديقة الطيبة الصبورة العجوز : « آمل أنك ستفعلين ذلك ياطفلتي ، لقد مضى عليك هنا وقت طويل قرابة الخمس سنوات ، ولكن عندما تذهبين ستحطمين قلب جدتك العجوز ، أتوقع كل يوم أن أسمع أنك قد أعدت بالحديد وأودعت السجن . فليساعدك الله أيتها الطفلة المسكينة ، دعونا نبتهل إلى الله ، إنه في وقت ما أو آخر سوف نذهب إلى حيث يكف الأشرار عن الأزعاج ويستريح المتعبون وردد قلبي آمين .

وفي الحق أعجبتني فكرة أن الدكتور « فلنت » قد كتب بشأني إلى عمدة بوسطن في أنه ليس لديه شك في كوني في مكان ما من منطقة مجاورة ، وكان هدفي الاحتفاظ بهذا الوهم ، لأنه جعلني وأصدقائي نشعر بمقدار أقل من القلق . وسوف يكون ملائماً جداً إذا ما أتيحت فرصة للهرب ، ولذلك صممت على الاستمرار في إرسال الرسائل من الشمال من وقت لآخر .

ومر أسبوعان أو ثلاثة أسابيع ، وبما أنه لم ترد أنباء من عمدة بوسطن فان جدتي بدأت تصغي إلى توسلاتي بالسماح لي بمغادرة الزنزانة في بعض الأحيان وتمرين أطرافي حتى لا أصبح مقعدة وسمح لي بالانزلاق إلى غرفة التخزين الصغيرة في الصباح الباكر وأن أبقى هناك برهة قصيرة ، وكانت الغرفة الصغيرة مملوءة بالبراميل عدا فتحة صغيرة مكشوفة تحت باب المصيدة . وهذه كانت تقابل الباب الذي كان الجزء الأعلى منه من الزجاج . وقد ترك عمداً دون ستائر حتى يتمكن الفضوليون أن ينظروا منه. وكان الهواء في هذا المكان قريباً ولكنه كان أفضل بكثير من جو زنزانتي حتى أنني خشيت من العودة ، وحالما حل الضياء نزلت وبقيت حتى الساعة الثامنة عندما أوشك الناس أن يتوافدوا ، وكان هناك خطر من أن بعضهم قد يأتي إلى الرواق ، لقد عملت عدة تمرينات لجلب الدفء والاحساس إلى أطرافي ولكن دون نتيجة. كانت منملة جداً ومتصلبة ، حتى أنني كنت أبذل جهداً مؤلماً عندما أتحرك ، ولو جاء أعدائي في أثناء الصباح وفي الفترة التي حاولت فيها التريض قليلاً في هذا المكان الفارغ الصغير من غرفة التخزين ، لكان من المستحيل علي الهرب .

* * *

٢٦
فترة هامـــة في حيـــاة أخي

لقد فقدت الصحبة والالتفاتات اللطيفة من جانب أخي « وليام » الذي سافر إلى واشنطن مع سيده السيد « ساندز » ، وتلقينا عدة رسائل منه كتبت دون تلميح بالنسبة لي ، ولكنها معبرة بأسلوب كهذا ، مما جعلني أدرك أن أخي لم يغفلني ، وشحذت يدي وكتبت له بنفس الأسلوب

لقد كان فصلاً طويلاً ، وعند اختتامه كتب وليام يعلمنا أن السيد « ساندز » سافر إلى الشمال ليقيم هناك بعض الوقت وأنه كان عليه مرافقته ، وعرفت أن سيده وعد باعطائه حريته ولكن لم يحدد موعداً لذلك ، فهل يثق وليام بفرص العبيد ؟ تذكرت كيف اعتدنا أن نتحدث معاً في أيام طفولتنا حول نوال حريتنا ، وفكرت أنـــه من المشكوك فيه ما إذا كان سيعود إلينا .

وتلقت جدتي رسالة من السيد « ساندز » يقول إن « وليام » أثبت أنه خادم مخلص جداً وأنه صديق ذو قيمة ، وأنه لا وجود لأم قد دربت ولداً أفضل منه ، وقال أنه سافر إلى الولايات الشمالية وكندا ومع أن أنصار إلغاء الرق حاولوا إغواءه بعيداً ، إلا أنهم لم ينجحوا قط ، وانتهى إلى القول أنهم سوف يعودون إلى الوطن قريباً .

توقعنا رسائل من « وليام » يشرح طرائف رحلته ، إلا أنه لم ترد

أية رسالة ، وفي الوقت نفسه ذكر أن السيد « ساندز » سيعود في أواخر الخريف مصحوباً بعروسه ، ولا يزال « وليام » متوقفاً عن إرسال الرسائل ، لقد شعرت بالتأكيد أنني لن أراه ثانية على الأرض الجنوبية ، ولكن أليست لديه كلمة تسلية يبعث بها إلى أصدقائه في الوطن ؟ إلى الأسيرة المسكينة في زنزانتها ؟ وجالت أفكار الماضي المظلم والمستقبل المجهول . . . وجدتني وحيدة في زنزانتي لاعين سوى عين الله تراني ، وذرفت دموعاً سخية ، وصليت بخشوع لله كي يعيدني إلى أطفالي ، ويمكنني من أن أكون امرأة نافعة وأماً طيبة .

وأخيراً ، حان يوم عودة المسافرين ، وهيأت جدتي أشياء لطيفة للترحيب بعودة ولدها العائد إلى حجر الموقد ، وعندما فرشت مائدة العشاء ، احتل طبق « وليام » مكانه القديم ولكن عربة الرحلة عادت فارغة وانتظرت جدتي العشاء ، وظنت على الأرجح أنه قد احتجز من قبل سيده ، واصغيت من سجني بقلق متوقعة في كل لحظة أن أسمع صوت أخي العزيز وخطوته ، وفي فترة ما بعد الظهر ، أرسل فتى من قبل السيد « ساندز » ليعلم جدتي أن « وليام » لم يعد معه ، وأن أنصار الرق قد أغووه بعيداً ، ولكنه توسل إليها ألا تنزعج حول ذلك ، لأنه كان واثقاً أنها سوف ترى « وليام » في مدى أيام قليلة . . . فحالما يكون لديه وقت للتفكير فسوف يعود ، لأنه لم يتوقع أن يكون بهذه الراحة في الشمال حين كان معه .

لو رأيت الدموع ، وسمعت التنهدات لظننت أن المراسل قد جلب أخبار الموت بدلاً من الحرية ، وشعرت جدتي المسكينة أنها سوف لا ترى ابنها الحبيب مرة ثانية . أما أنا،فقد كنت أنانية ، لقد فكرت

أكثر ما فكرت فيما فقدت أكثر مما ربح أخي، وبدأ القلق يزعجني . فالسيد « ساندز » صرف مقداراً كبيراً من المال ، وبالطبع سوف يشعر بالغيظ من الخسارة التي حصلت . وخشيت كثيراً أن ذلك يمكن أن يؤثر في طموحات أطفالي اللذين أصبحا الآن ملكاً قيماً ، وتقت لأن يكون التحرير مؤكداً ، خصوصاً وأن سيدهم ووالدهم قد تزوج ، لقد كنت أعرف العبودية معرفة جيدة لأعرف قيمة الوعود المبذولة للعبيد ولو أنها بمقاصد لطيفة ، وصادقة في ذلك الوقت وتعتمد على عدة عوامل ضبط النفس لتحقيقها .

وبقدر ما رغبت « لوليام » أن يتحرر ، إلا أن الخطوة التي أقدم عليها جعلتني حزينة وقلقة ، وفي الأحد التالي ساد الهدوء والصفاء ، وبدا جميلاً جداً وكأنه يوم أحد في العالم الخالد . . . وأحضرت جدتي الأطفال خارجاً في الرواق لكي أستطيع أن أسمع أصواتهم . . وظنت أن ذلك سيكون مدعـــاة لراحتي في قنوطي وكان كذلك . لقـــد ثرثروا بمرح كما يستطيع الأطفال فقط أن يفعلوا ذلك ، وقال « بني » : « جدتي هل تعتقدين أن الخال « وليام» قد ذهب نهائياً ؟ أو لا يعود مرة أخرى أبداً ؟ ربما سيجد أمي ، وإذا فعل ذلك أفلا تكون مسرورة برؤيته ؟ لماذا لا نذهب والخال فيليب ونحن كلنا ونعيش حيث تكون أمنا ؟ أريد ذلك . ألست كذلك يا ايلين ؟»

وأجابت « ايلين » « نعم أود ذلك ولكن كيف نجدها ؟ هل تعرفين المكان ياجدتي ؟ لا أتذكر كيف كانت تبدو أمي . . هل تتذكرها يابني ؟ . . »

وكان«بني»على وشك أن يصفني عندما قاطعتهم أمة عجوز جارة

قريبة تدعى « آجي » هذه المخلوقة المسكينة شهدت مبيع أطفالها ، ورأتهم يحملون بعيداً إلى أماكن مجهولة ، دون أي أمل في أن تسمعهم مرة ثانية ، رأت أن جدتي كانت تبكي وقالت في لهجة تعاطفية : « ما المسألة يامارتا ؟ »

أجابتها : « آه ياأجي ، يبدو أنني لن أجد أحداً من أطفالي أو أحفادي يناولني جرعة ماء عندما أكون على فراش الموت ، ويوضع جسدي العجوز في الأرض ، حتى ولدي لم يعد مع السيد « ساندز » لقد بقي في الشمال » .

صفقت « آجي » المسكينة بيديها سروراً وتساءلت : « هل ذلك هو الذي تبكين من أجله ؟ اركعي على ركبتيك وصلي لله ، أنا لا أعلم أين أطفالي المساكين ولا أتوقع ان أعلم ، أنت لا تعرفين أين ذهبت ليندا المسكينة ، ولكنك تعرفين أين هو أخوها ، هو في أجزاء حرة وذلك هو المكان الصحيح ، لا تتأففي حيال أفعال الله ، ولكن اجثمي على ركبتيك واشكريه على طيبته » .

لقد وبخت نفسي على أنانيتي بما قالته « آجي » المسكينة ، فلقد اغتبطت هي بهرب واحد كان مجرد زميل لها في العبودية ، بينما شقيقته كانت تفكر فقط ماذا يمكن أن يكلف حظه الطيب أطفالها ، ركعت وصليت لله تعالى لكي يسامحني ، وشكرته من كل قلبي لأن واحداً من عائلتي قد نجا من قبضة العبودية .

ولم يطل الوقت قبل أن نتسلم رسالة من « وليام ». لقدكتب أن السيد ساندز عامله دائماً بلطف وأنه حاول أن يؤدي واجبه تجاهه باخلاص ، ولكن منذ أن كان صبياً تاق لأن يكون حراً ، وقد سبق له

وذهب بما فيه الكفاية ليقتنع بأنه يجدر به ألا يضيع الفرصة التي عرضت، واختتم رسالته يقول : «لا تنزعجي من أجلي ياجدتي العزيزة ، سوف أفكر فيكم دائماً ، وسوف يستحثني ذلك على العمل بجد ومحاولة عمل الشيء الصحيح. وعندما أكون قد جمعت المال الكافي لتأمين سكن ، ربما سوف تأتون إلى الشمال ونستطيع كلنا أن نعيش في سعادة معاً » .

أخبر السيد « ساندز » خالي « فيليب » التفاصيل حول مغادرة « وليام » له وقال : « لقد وثقت به وكأنه شقيق لي ، وعاملته بلطف، وقد تحدث إليه أنصار الرق في أماكن عديدة ، ولكن ليست لدي فكرة عن إمكانية إغرائه من قبلهم ، على أي حال أنا لا ألوم « وليام » فانه شاب وطائش ، وهؤلاء الأوغاد الشماليون أغووه ، علي أن أعترف أن المخالفة كانت جريئة ، قابلته هابطاً إلى الطابق السفلي من (أستور هاوس) وصندوقه على كتفه ، وسألته أين كان ذاهباً ، قال إنه كان ذاهباً لتغيير صندوقه القديم، أخبرته أنه كان رثاً نوعاً ما ، وسألته ما إذا كان بحاجة إلى نقود ، قال لا وشكرني ومضى ، ولم يعد بالسرعة التي توقعتها ، ولكنني انتظرت صابراً ، وأخيراً ذهبت لأرى ما إذا كانت صناديقنا قد حزمت تأهباً لرحلتنا، وجدتها مقفلة. ومن ملاحظتها مختومة على الطاولة علمت أنني أستطيع أن أجد المفاتيح ، وحاول الرجل أيضاً أن يكون متديناً ، وكتب أنه يأمل أن الله سوف يباركه دائماً ويكافئني مقابل لطفي ، حتى أنه لم يكن غير راغب في خدمتي ، ولكنه أراد أن يكون رجلاً حراً ، وأنني إذا ما فكرت في ارتكابه خطأ فهو يأمل أني سأسامحه وقد قصدت اعطاءه حريته في مدى خمس سنوات ، كان يمكن أن يثق بي ، لقد أظهر نفسه ناكراً للجميل وسوف لا أذهب في أثره أو أرسل في طلبه ، أشعر بالثقة أنه سوف يعود إلي فوراً» .

وسمعت بعد ذلك تقريراً عن القضية من « وليام » نفسه . . لم تجر استمالته من قبل أنصار إلغاء الرق ، حيث لم يكن بحاجة إلى معلومات يستطيعون تزويده بها عن العبودية لاستثارة رغبته في الحرية ، لقد نظر إلى يديه فتذكر أنهما كانتا ذات يوم في القيود ، فأي ضمان لديه أنهم سوف لا يفعلون ذلك مرة ثانية ؟ لقد كان السيد « ساندز » لطيفاً معه ، ولكن يمكن أن يؤجل دون تحديد وعده الذي قطعه لاعطائه حريته . . يمكن أن تحدث احراجات مالية ، وتصادر ممتلكاته من قبل الدائنين ، أو يمكن أن يموت دون أن يعمل أي ترتيبات لصالحه ، لقد عرف أكثر من مرة أمثال هذه الأحداث التي تقع مع العبيد الذين لهم سادة لطفاء ، وقد صمم بحكمة على التأكد من الفرصة الحالية ليمتلك نفسه ، لقد كان متشككاً حول أخذ أي نقود من سيده مقابل ادعاء كاذب ، وهكذا لجأ إلى بيع أفضل ملابسه ليدفع تكاليف رحلته إلى بوسطن ، وقرر مالكو العبيد أنه سافل وناكر للجميل وشقي ، لأنه استغل مسامحة سيده ، ولكن ماذا كان يمكن أن يفعلوا هم في ظروف مماثلة . . . ؟

وعندما سمعت عائلة الدكتور « فلنت » بأن « وليام » قد هجر السيد « ساندز » ضحك أفراد العائلة في سرهم كثيراً لهذا النبأ ، أما السيدة « فلنت » فقامت باظهار مشاعرها المسيحية المعتادة بقولها : « أنا مسرورة بذلك ، وآمل ألا يعثر عليه مرة ثانية ، أود أن أرى الناس يدفع إليهم بنفس عملتهم . أظن أن أطفال ليندا سوف يدفعون مقابل ذلك ، ويسرني أن أجدهم في يد المضارب مرة أخرى لأنني مللت رؤية هؤلاء الأطفال الزنوج الصغار وهم يتجولون في الشوارع هنا وهناك » .

* * *

٢٧

وجهة ســـفر جديدةللاطفال

أعلنت السيدة « فلنت » عن نيتها في إعلام السيدة « ساندز » من كان والد أطفالي ، وكذلك صممت على إخبارها أي شيطانة ماكرة كنت أنا ، لدرجة أنني سببت لها مقداراً كبيراً من المتاعب وكذلك لعائلتها ، وحتى أنه عندما كان السيد « ساندز » في الشمال ، لم تشك في أنني قد تبعته متخفية وأنني أغريت « وليام » على الهروب ، وكان لها بعض التبريرات لأن تحمل مثل هذه الأفكار ، لأنني كنت أكتب من الشمال من وقت لآخر ، وأرخّت رسائلي من أماكن مختلفة ، ومعظم هذه الرسائل سقطت في يدي الدكتور « فلنت » كما توقعت أن يحصل ، ولا بد أنه قد توصل إلى الاستنتاج أنني قد تجولت كثيراً ، وفرض حراسة مشددة على أطفالي ظناً منه أنهم سوف يصلون من حيث النتيجة إلى اكتشافي .

وكانت تجربة جديدة غير متوقعة بانتظاري ، ففي أحد الأيام ، بينما كان السيد « ساندز » وزوجته يسيران في الشارع قابلا « بني » ، ونظرت إليه السيدة قائلة : « أي زنجي صغير ظريف ، لمن ينتمي ؟ » لم يسمع «بني»الجواب ، ولكنه عاد إلى المنزل غاضباً جداً من سيدة غريبة سمته زنجياً ، وبعد ذلك ببضعة أيام زار السيد « ساندز » جدتي . وأخبرها أنه يريدها أن تأخذ الأطفال إلى بيته ، وقال إنه أعلم زوجته بعلاقته بهم . وأخبرها أنهم كانوا بلا أم ، وهي تريد أن تراهم .

وعندما ذهب ، أتت جدتي إلي وسألت ماذا أصنع ، بدا السؤال استهزاء ، ماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟ لقد كانوا عبيد السيد « ساندز » وكانت أمهم أمةذكر أنها ميتة،ربما فكر هو أنني كذلك تألمت كثيراً وحرت في الوصول إلى قرار ، ونقل الأطفال دون علمي .

وكان للسيدة « ساندز » أخت في ولاية « الينوا » تقيم معها ، وهذه السيدة التي لم يكن لها أطفال سرت غاية السرور « بايلين » حتى أنها عرضت أن تتبناها لتنشئها كابنتها ، أما السيدة « ساندز » أرادت أن تأخذ « بنيامين » ، وعندما نقلت جدتي الخبر إلي كنت متعبة بشكل يفوق الاحتمال ، أكان ذلك كل ما كسبته نتيجة ما قاسيت من أجل أن أحرر أطفالي ؟ في الحق أن المأمل بدا عادلاً ولكنني أعرف جيداً كم يقدر مـــالكو العبيد« علاقات أبوية » كهـــذه ، وإذا مـــا حلت المتاعب المالية أو لو حدث وطلبت الزوجة الجديدة مالاً أكثر مما هو موجود ، فان أطفالي يمكن أن يفكر فيهم كوسائل ملائمة لزيادة الأموال ، ليست لي ثقة بك أيتها العبودية ولن أعرف الراحة حتى يتحرر أطفالي مع كافة شكليات القانون المستحقة .

وكان كبريائي أكبر بكثير من أن أطلب إلى السيد « ساندز » أن يصنع أي شيء من أجل منفعتي.ولكن كان يمكن أن أتضرع له من أجل أطفالي ، وصممت على أن أذكره بالوعد الذي قطعه لي ، وأن أذكره بكلمة الشرف من أجل إنجاز ذلك الوعد . . . أغريت جدتي أن تذهب إليه وتخبره بأني لم أمت وأنني أتوسل إليه بحرارة أن يحافظ على الوعد الذي قطعه لي ، وأنني سمعت بالمقترحات الحديثة حول أطفالي ولا أشعر بالرغبة في قبولها ، وأنه وعد بتحريرهم وقد حان الوقت له لكي يفي بوعده ، وعرفت أنه كان هناك بعض المجازفة في خيانة كهذه.

حيث أنني كنت في الجوار ، ولكن ما الذي تفعله أم من أجل أطفالها؟ وتلقى الرسالة بدهشة قائلاً : « الأطفال أحرار ، وأنا لم أقصد أن أطالب بهم كعبيد ، ولينداً يمكن أن تقرر مصيرهم ، وفي رأيي يجدر بهم التوجه إلى الشمال ، إذ لا أظن أنهم ناجون هنا تماماً ، إن الدكتور « فلنت » يفاخر في أنهم ما يزالون تحت سلطته ، وهو يقول أنهم من ممتلكات ابنته ، وبما أنها لم تكن تبلغ السن عندما تم بيعهم فان العقد غير ملزم قانوناً . . »

وهكذا إذن ، فبعد كل ما تحملته من أجلهم ، فان أطفالي المساكين كانوا بين نارين : بين سيدي القديم وسيدهم الجديد ، وكنت أنا فاقدة القوة، ولم تكن هناك ذراع حامية من القانون أستغيث بها . واقترح السيد « ساندز » أن « ايلين » يجب أن تذهب في الوقت الحاضر إلى بعض أقاربه الذين نزحوا إلى بروكلين ، لونغ ايلاند ، ووعد بأن يعتني بها جيداً وأن ترسل إلى المدرسة ، ورضيت بذلك كأفضل ترتيب استطعت عمله من أجلها ، وبالطبع فاوضت جدتي عـــلى كل ذلك ، ولم تعرف السيدة « ساندز » أي شخص آخر في الصفقة ، واقترحت أن يأخذوا « ايلين » معهم إلى واشنطن ويحفظوها حتى تكون لهم فرصة جيدة لإرسالها مع الأصدقاء إلى « بروكلين » ، وكانت لديها ابنة رضيعة عرفت لمحة عنها عندما مرت المربية تحملها بين ذراعيها ، ولم تكن الفكرة سارة بالنسبة لي بأن طفلة المرأة الأمة يجب أن تعتني بأختها المولودة حرة ، ولكن لم يكن هناك من بديل ، وكانت « ايلين » مستعدة للرحلة ، آه كم يُتعب قلبي أن أبعث بها بعيداً وهي شابة وفي مقتبل العمر بين الأغراب ودون حب أم يحميها من عواصف الحياة، وعلى الأغلب دون ذكرى عن أمها ، وشككت فيما إذا كانت هي

و « بني » سيحملان لي المحبة الطبيعية التي يشعرها الأطفال تجاه والدتهم، وفكرت في نفسي أنني ربما لا أرى ابنتي مرة أخرى ، ولدي رغبة كبيرة أنها ينبغي أن تنظر إلي قبل أن تذهب ، إنها يمكن أن تأخذ صورتي معها في ذاكرتها ، وبدا لي شيئاً قاسياً أن أجلبها إلى زنزانتي ، لقد كان ذلك أسفاً كافياً لقلبها الشاب أن تعرف أن أمها كانت ضحية العبودية، دون أن ترى المكان الشقي الذي دفعتها إليه وتوسلت من أجل السماح لي بأن أمضي معها الليلة الأخيرة في إحدى الغرف المفتوحة مع ابنتي الصغيرة ، ولقد ظنوا أنني مجنونة لأن أفكر في الثقة بطفلة مثلها تحمل سري الخطر ، وأخبرتهم أنني راقبت أخلاقها وشعرت بالتأكيد أنها سوف لا تخونني ، وأنني كنت مصممة في الحصول على مقابلة ، وإذا لم تتم فسوف أتبع طريقي الخاص للحصول عليها ، وجادلوا إزاء مثل هذا الطيش ، ولكن عندما وجدوا أنهم لن يستطيعوا تغيير قصدي ، استسلموا وانزلقت من خلال باب المصيدة إلى غرفة التزيين ، وظل خالي يحرس البوابة ، بينما مررت إلى الرواق وصعدت إلى الطابق العلوي إلى الغرفة التي اعتدت أن أحتلها ، لقد مضى أكثر من خمس سنوات منذ أن رأيتها لآخر مرة ، وكيف تجمعت الذكريات علي . . هناك أخذت ملجأ عندما طردتني سيدتي من منزلها ، وهناك أتى ظالمي العجوز ليسخر ويشتم ويلعن، وهناك وضع أطفالي للمرة الأولى بين ذراعي. وهناك راقبتهم كل يوم مع حب أعمق وأكثر حزناً ، هناك انحنيت لله في قلب كرب ليسامح خطأي الذي ارتكبته . كم هي لذيذة عودة هذه الذكريات وبعد هذه الفترة الطويلة المظلمة ، وقفت هناك كالحطام .

وفي وسط هذه الأفكار ، سمعت وقع أقدام على الدرج ، وفتح الباب ودخل خالي فيليب يقود « ايلين » من يدها ، ووضعت ذراعي

حولها قائلة : « ايلين . ياطفلتي العزيزة ، أنا أمك » فتراجعت إلى الوراء قليلاً ونظرت إلي ثم بثقة عذبة وضعت خدها على خدي وضممتها إلى قلبي الذي كان لمدة طويلة مقفراً وكانت أول من تولى الكلام ورفعت رأسها متسائلة : « أنت حقيقة أمي ؟ » وأخبرتها أنني حقيقة أمها وأنه طيلة الوقت الذي لم ترني فيه أحببتها بشكل رقيق جداً،وأنها الآن سوف تذهب بعيداً أردت رؤيتها والتحدث إليها ،كي يمكن أن تتذكرني. وبتنهدة في صوتها قالت : « أنا مسرورة لأنك أتيت لرؤيتي ، ولكن لماذا لم تأتي من قبل ؟ « بني » وأنا أردنا رؤيتك كثيراً ، وهو يتذكرك وفي بعض الأحيان يخبرني عنك ، لماذا لم تعودي إلى المنزل عندما ذهب الدكتور « فلنت » لإحضارك ؟ . . »

أجبتها : « لم أستطع القدوم من قبل ياعزيزتي ، ولكني الآن معك، أخبريني ما إذا كنت ترغبين في السفر بعيداً » قالت باكية : « لا أدري، جدتي تقول أنه يجب علي ألا أبكي ، وأنني ذاهبة إلى مكان جيد، حيث أستطيع تعلم القراءة والكتابة ، وإنني أستطيع أن أكتب إليها رسالة شيئاً فشيئاً ولكن سوف لا يكون معي « بني » أوجدتي أو خالي « فيليب» ولا أي شخص يحبني ، أفلا تستطيعن الذهاب معي ؟ آه ، اذهبي معي يا أمي العزيزة . . . »

وأخبرتها أنني لا أستطيع الذهاب الآن ولكن في بعض الأحيان سوف آتي إليها وعندئذ ستكون هي و « بني » وأنا عائلة سعيدة نعيش معاً ، وتكون لنا أوقات سعيدة ، وأرادت أن تركض وتجلب لي « بني » كي يراني الآن ، فأخبرتها أنه كان ذاهباً إلى الشمال قبل وقت طويل مع خالي « فيليب » وحينذاك سوف آتي لأراه قبل أن يذهب ، وسألتها

ما إذا كانت تود أن أبقى لديها طيلة الليل وأنام معها ؟ قالت : « نعم » ثم التفتت إلى خالها وقالت بلهجة توسل : « هل من الممكن أن أمكث ؟ أرجوك ياخالي ، إنها أمي » فوضع يده على رأسها قائلاً بوقار : « ايلين هذا هو السر الذي وعدت جدتك بعدم إفشائه ، فاذا بحت به لأي شخص فلن يسمحوا لك برؤية جدتك مرة ثانية ، وأمك لا تستطيع أن تأتي إلى بروكلين »، فأجابت « ياخالي ، سوف لا أبوح به أبداً » وأخبرها أنه يمكن أن تبقى معي ، وعندما ذهب أخذتها بين ذراعي وأخبرتها أنني كنت أمة ، وأن ذلك كان السبب في عدم قولها بأنها رأتني ، وشجعتها بأن تكون طفلة جيدة ، وأن تحاول إرضاء الناس حيثما ذهبت ، وأن الله سوف يسمح لنا باللقاء مرة أخرى ، وأن تصلي من أجل أمها ، وأن تتذكرها دائماً » . . فبكت وبكيت ولم أضبط دموعها ، وربما لا تكون لها فرصة ثانية لأن تسكب دموعها في حضن أمها ، وقضت الليل وهي ملتصقة بين ذراعي ، ولم يكن بي ميل للنوم ، ومرة عندما فكرت انها كانت نائمة قبلت جبينها بنعومة فقالت : « لست نائمة ياأمي العزيزة » .

وقبل بزوغ الفجر أتوا ليعيدوني إلى زنزانتي ، فسحبت جانباً ستار النافذة لألقي نظرة أخيرة على طفلتي ، وبزغ شعاع القمر على وجهها ، وانحنيت عليها كما فعلت ذلك قبل سنين في تلك الليلة الشقية عندما هربت ، وضممتها بشدة إلى قلبي الخافق وسال الدمع بسخاء على خديها ، كم هو مؤلم لعينين شابتين مثلهما أن تذرفان هذه الدموع . . وحالما أعطت قبلتها الأخيرة ، همست في أذني : « ياأمي ، سوف لا أذيع السر » ولم تفعل ذلك أبداً .

وعندما عدت إلى زنزانتي ، ألقيت بنفسي على الفراش وبكيت هناك وحيدة في الظلام . . وبدا وكأن قلبي سوف ينفجر ، وعندما حان وقت « ايلين » للرحيل ، استطعت أن اسمع الجيران والأصدقاء يقولون لها : « وداعاً يا ايلين ، ونأمل أن أمك سوف تراك ، أو لا تكونين مسرورة لرؤيتها ؟ » وأجابت : « نعم ياأمي » وقليل منهم أدرك السر الخطير الذي أثقل صدرها الشاب ، كانت طفلة ودودة ولكنها بالطبع متحفظة جداً خلا مع أولئك الذين تحبهم ، وشعرت بالأمان لأن سري سيكون في أمان معها ، وسمعت صوت البوابة وهي تغلق بعدها ، إن مثل هذه المشاعر لا يمكن الاحساس بها إلا من قبل الأم الأمة ، وخلال النهار كانت أفكاري حزينة جداً ، وفي بعض الأحيان كنت أخشى من كوني أنانية جداً إذا لم أسلم كل إدعاء لها وأدعها تذهب إلى ولاية « الينوا » لتتبناها شقيقة السيدة « ساندز ». لقدكانت خبرتي في العبودية هي التي قررت عكس ذلك ، وخشيت أن الظروف يمكن أن تحل فتسبب لها أن تعاد ، وشعرت بالثقة في أنني يجب أن أذهب إلى نيويورك بنفسي حيث سأكون قادرة على مراقبتها وإلى حد ما حمايتها .

ولم تعرف عائلة الدكتور « فلنت » شيئاً حول الترتيب المقترح إلا بعد أن ذهبت « ايلين » وقد ساءهم النبأ جداً ، وزارت السيدة « فلنت » شقيقة السيدة « ساندز » لتستعلم عن المسألة،وأعربت عن رأيها بحرية بالنسبة للاحترام الذي يبديه السيد « ساندز » لزوجته من أجل شخصيته هو في الاعتراف بهؤلاء « الزنوج الشباب » أما فيما يتعلق بارسال « ايلين» بعيداً فقد أعلنته كما لو أنه سرقة كما لو أتى وأخذ قطعة من الأثاث في غرفة استقبالها ، وقالت إن ابنتها ليست في سن تمكنها من توقيع صك البيع ، وأن الأطفال كانوا ملكاً لها ، وأنها عندما تصل إلى سن البلوغ أو تتزوج تستطيع أن تأخذهم حينما تضع يدها عليهم . .

وأصبحت الآنسة « اميلي فلنت » الفتاة الصغيرة التي كنت إرثاً لها الآن في السادسة عشرة واعتبرت أمها أنه من حقها ومن أجل شرفها أو زوج المستقبل أن تسرق أطفالي . ولكنها لم تفهم كيف يمكن لأي شخص أن يرفع رأسه في المجتمع المحترم بعد أن اشترى أطفالهم كما فعل السيد « ساندز » . وقال الدكتور « فلنت » شيئاً قليلاً ، ربما ظن أن « بني » سيكون أقل احتمالاً لأن يرسل بعيداً فيما لو ظل هادئاً ، وكانت إحدى رسائلي التي وقعت في يديه مؤرخة من كندا ، وهو قليلاً مايتحدث عني الآن ، وقد مكنتني هذه الأشياء من النزول إلى غرفة التخزين بشكل متكرر أكثر حيث استطعت أن أقف مستقيمة وأحرك أطرافي بحرية أكبر .

ومرت الأيام والأسابيع والشهور ، ولم يصل نبأ عن « ايلين » وبعثت برسالة إلى بروكلين مكتوبة باسم جدتي للاستعلام ما إذا كانت قد وصلت إلى هناك ، وجاء الجواب بأنها غير موجودة ، وكتبت لها إلى واشنطن ولكن لم يأت بشأنها أية ملاحظة ، وكان هناك شخص واحد ينبغي أن تكون لديه عاطفة مشوبة بالقلق الذي يسيطر على أصدقاء الطفلة في المنزل ، ولكن كان من السهل تحطيم علاقات كهذه مثل التي أوجدها معي ، ومع ذلك فقد تحدث مرة بحماية وإغراء إلى الفتاة الأمة المسكينة ، ولكن كيف وثقتُ به تماماً، إن الاشتباه خيم على ذهني الآن ، أكانت طفلتي ميتة ؟ أم أنهم خدعوني فباعوها ؟ .

وإذا كان ينبغي نشر المذكرات السرية لعدة أفراد من الكونغرس، فان تفاصيل فضولية سوف يماط اللثام عنها ، فقد رأيت مرة رسالة من عضو في الكونغرس إلى أمة كانت أماً لستة أطفال منه ، وكتب متوسلاً إبعاد أطفالها عن البيت الكبير ، حيث أنه يتوقع أن يصحبه أصدقاؤه ، ولم تستطع المرأة القراءة واضطرت لاستخدام آخر ليقرأ الرسالة ،ولم

يزعج وجود الأطفال الملونين هذا السيد ، ولكن ازعاجه كان الخوف من أن أصدقاءه يمكن أن يعرفوا من ملامح الأطفال شبهه لهم .

وفي نهاية الأشهر الستة ورد كتاب من بروكلين إلى جدتي . كتبته سيدة شابة في العائلة ، وأعلنت فيه أن « ايلين » قد وصلت للتو ، واحتوت الرسالة التالية منها : « إنني أحاول أن أفعل تماماً كما أخبرتني ، وأنا أصلي من أجلك كل ليلة وصباح » وفهمت أن هذه الكلمات كانت موجهة لي وكانت بلسماً لقلبي ، واختتمت الكاتبة رسالتها بالقول : إن « ايلين » فتاة ظريفة ولطيفة ، ونحن نحب أن تكون معنا . ابن عمي السيد « ساندز » أعطاها لي لتكون خادمتي الصغيرة وسوف أبعث بها إلى المدرسة ، وآمل أنها ذات يوم سوف تكتب إليك بنفسها » هذه الرسالة أزعجتني وأقضت مضجعي ، هل دفع بها والدها إلى هناك فقط لتكبر بما يكفي لإعالة نفسها أم أنه أعطاها لابنة عمه كجزء من الممتلكات ؟ فاذا كانت الفكرة الأخيرة صحيحة ، فان ابنة عمه يمكن أن تعود إلى الجنوب في أي وقت ، وتحتفظ بايلين كأمة ، وحاولت إبعاد هذه الفكرة المؤلمة من أن خطأ قذراً كهذا يمكن أن يقع ضدنا ، وقلت لنفسي : « بالتأكيد يجب أن يكون بعض العدل موجوداً في الرجال » ثم تذكرت وأنا أتنهد كيف أفسدت العبودية كافة المشاعر الطبيعية للقلب الإنساني ، وأصابني ألم حاد أن أنظر إلى ولدي رقيق القلب ، الذي اعتقد نفسه حراً وأنه يمكن أن يقع تحت نير العبودية وهو أكبر مما أطيق احتماله . . كم وددت أن يخرج سالماً من سلطان العبودية .

* * *

٢٨

الخالــة نانســي

لقد ذكرتُ خالتي العظيمة « نانسي » والتي كانت أمة في عائلة الدكتور « فلنت » والتي كانت ملجأي أثناء الاضطهاد المؤلم الذي عانيت منه ، فقد تزوجت خالتي وهي في سن العشرين أي بقدر ما كان يسمح للعبيد أن يتزوجوا ، وحازت موافقة سيدها وسيدتها ، وأجرى كاهن مراسم الزواج ، ولكنه كان مجرد شيء شكلي ليس له أية قيمة قانونية(*) فان سيدها وسيدتها كانا يستطيعان إلغاءه في أي يوم يريدان وكانت تنام دائماً على الأرض في المدخل قرب باب السيدة « فلنت » لكي تكون على مدى النداء ، وعندما تزوجت أخبرت أنها ينبغي أن تستخدم الغرفة الصغيرة خارج المنزل ، وقد تم فرش الغرفة من قبل أمها وزوجها الذي كان بحاراً ، وسمح له بأن ينام هناك عندما يكون في المنزل ، ولكنه في عشية الزواج أمرت العروس أن تذهب إلى مكانها القديم على أرض المدخل :

لم يكن للسيدة « فلنت » أطفال آنذاك ، ولكنها كانت تتوقع أن تصبح أماً ، وإذا كانت تريد جرعة من الماء في الليل . فماذا تصنع إذا

(*) – ليست للعبيد حقوق مدنية أو سياسية ، لم يكن يستطيع العبد أن يبرم زواجاً (أو يكون طرفاً في أي عقد اخر) أو ممارسة السلطة على عائلته ، أو تحمل مسؤولية أطفاله ، لم يكن يستطيع أن يمتلك أو يشهد في المحكمة ، خلا ضد عبد اخر ، ولم يكن يستطيع أن يجتمع مع العبيد الآخرين دون حضور شخص أبيض ، كانت هناك قوانين ضد تعليمه القراءة والكتابة ..

لم تكن أمتها بقربها لتجلبها إليها ؟ وهكذا اضطرت خالتي أن تضطجع عند بابها حتى كان منتصف إحدى الليالي ، حيث اضطرت إلى المغادرة لتلد ولادة غير طبيعية لطفلة ، وفي مدى أسبوعين ، طلب إليها أن تعود إلى مكانها على أرض المدخل ، لأن طفلة السيدة « فلنت » احتاجت إلى عنايتها وحفظت مكانها هناك خلال الصيف والشتاء ، حتى وضعت ولادات غير طبيعية لستة أطفال ، وكانت طيلة الوقت تستخدم كممرضة ليلية لأطفال السيدة « فلنت ». وأخيراً ، وباعتبارها كانت تعبة طيلة النهار ، ومحرومة من الراحة في الليل ومحطمة تماماً ، فقد صرح الدكتور « فلنت » بأنه كان من المستحيل لها أن تصبح أماً بعد ذلك لطفل حي ، وخوفاً من فقدان الخادمة بموتها . فقد أغراهم بأن يسمحوا لها بالنوم في غرفتها خارج المنزل إلا حينما يكون هناك أحد من العائلة مريضاً ، وكان لها بعد ذلك طفلان ضعيفان ، توفي أحدهما في مدى أيام قليلة وتبعه الثاني في مدى أربعة أسابيع ، سوف أتذكر أسفها وهي صابرة ، تحمل آخر طفل لها ميت بين ذراعيها ، قالت : « أرغب لو أنه عاش ، ولكني سأحاول أن أكون جديرة بلقاء أرواح أطفالي في السماء . . . » .

وكانت خالتي « نانسي » ربة منزل وخادمة في عائلة الدكتور «فلنت » وفي الحقيقة كانت مستخدمة تؤدي مختلف المهام في المنزل ، ولم يكن يتم شيء بصورة حسنة بدونها ، لقد كانت توأم أمي الشقيق ، وقد أعطت ما في طاقتها مكان الأم لنا نحن الأيتام ، وكنت أنام معها طيلة الوقت الذي عشت فيه في بيت سيدي القديم ، وكانت العلاقة بيننا قوية جداً ، وعندما حاول أصدقائي إثنائي عن عزمي في الهرب ، كانت هي دائماً تشجعني ، وعندما ظنوا أنه يجدر بي أن أعود وأطلب السماح من سيدي لأنه لم يكن هناك مكان للهرب ، بعثت إلي

بكلمة بعدم الاستسلام ، قالت إذا أنا ثابرت ، ربما أحقق حرية أطفالي ، وحتى لو هلكت في سبيل ذلك ، فان ذلك كان أفضل من تركهم يئنون تحت ضغط نفس الاضطهاد الذي أفسد حياتي ، وبعد أن أغلق علي في زنزانتي المظلمة ، تسللت هي حيثما كانت تستطيع ، لتجلب لنا النبأ وتقول شيئاً ما مبهماً ، كم ركعت لأصغي إلى كلماتها المسلية ، تهمس من خلال الشق : « أنا عجوز وليس لدي وقت طويل للعيش ، ويمكن أن أموت سعيدة إذا مارأيتك فقط أنت وأطفالك أحراراً . عليك أن تصلي لله يا ليندا كما أفعل أنا من أجلك لكي يقودك إلى خارج هذا الظلام » . . وكنت أرجوها ألا تزعج نفسها من أجلي وأنه لابد من نهاية لكل المعاناة عاجلاً أم آجلاً ، وإنني سواء عشت في السلاسل أو في أجواء الحرية ، فسأتذكرها دائماً كصديق طيب كان تسلية حياتي . . . كلمة منها كانت تقويني ، ليس أنا فقط ، بل العائلة بكاملها اعتمدت على حكمتها ، وكانوا يذعنون لنصائحها

كان قد مضى علي في الزنزانة ست ستوات ، عندما استدعيت جدتي إلى فراش تلك التي كانت آخر ابنة باقية لها ، كانت مريضة جداً ، وقالوا أنها سوف تموت ، وكان قد مضى على دخول جدتي لبيت الدكتور « فلنت » عدة سنوات ، لقد عاملوها بقسوة ، ولكنها لم تفكر بأي شيء من ذلك الآن ، وكانت شاكرة على سماحهم لها بالجلوس إلى جانب فراش موت طفلتها ، لقد كانتا دائماً مكرستين لبعضهما البعض ، والآن جلستا تنظران إلى عيني بعضهما البعض ، تائقتين للحديث عن السر الذي أثقل قلبيهما ، لقد أصاب الشلل خالتي ، وعاشت يومين فقط ، وفي اليوم الأخير ، لم تستطع الكلام ، وقبل أن تفقد قوة النطق ، أخبرت والدتها ألا تحزن إذا لم تستطع أن تتحدث إليها ، وأنها سوف

تمسك يدها لتدعها تعرف أن كل شيء كان حسناً معها، وحتى الدكتور رق قلبه القاسي قليلاً عندما رأى المرأة التي تحتضر تحاول أن تبتسم لأمها العجوز التي كانت راكعة إلى جانبها ، وترطبت عيناه للحظة عندما قال إنها كانت دائماً خادمة مخلصة ، وأنهم سوف لايكونون قادرين على ملء مكانها ، وأتت السيدة « فلنت » إلى فراشها متأثرة تماماً بالصدمة، وبينما جلست جدتي وحيدة مع المتوفاة ، دخل الدكتور ممسكاً يد ابنه الكبير ، الذي كان مدللاً كثيراً من قبل الخالة « نانسي » وكان كثير الالتصاق بها ، وقال : « يا مارتا ، الخالة نانسي أحبت هذا الطفل ، وعندما يأتي إليك . أمل أن تكوني لطيفة معه من أجلها » أجابت : « إن زوجتك كانت طفلتي بالرضاعة يادكتور « فلنت » أخت بالرضاعة لنانسي المسكينة ، وأنت تعرف قليلاً عني فاني لن أشعر بغير الصداقة نحو أطفالك »

وقال الدكتور : « آمل أنه يمكن نسيان الماضي ، وألا نفكر فيه،وأن ليندا سوف تأتي لتحل محل خالتها،ستكون ذات قيمة أكثر بالنسبة لنا، أكثر من كل الأموال التي يمكن أن تدفع من أجلها . . أرغب في ذلك من أجلك يا مارتا ، الآن وقد ذهبت « نانسي » بعيداً عنك ، فان«ليندا» ستكون تسلية كبرى لشيخوختك »

عرف أنه كان يمس الوتر الرقيق ، وأجابت جدتي وهي مختنقة بالحزن : « لم أكن أنا التي طردت ليندا بعيداً ، أحفادي قد ذهبوا ، ولم يبق لي من تسعة أطفال إلا واحدة فقط ، فليساعدني الله . . . »

أما بالنسبة لي فقد كان موت هذه القريبة اللطيفة حزناً لا يعبر عنه. عرفت أنها كانت تقتل ببطء ، وشعرت أن متاعبي ساعدت في حدوث

ذلك ، وبعدما سمعت عن مرضها . كنت أصغي باستمرار لأسمع أي خبر كان يأتي من البيت الكبير . والتفكير في أني لا أستطيع الذهاب إليها، جعلني بائسة بشكل مطلق . وأخيراً عندما جاء خالي « فيليب » إلى المنزل، سمعت بعضهم : « كيف حالها ؟ » وكان الجواب : « لقد ماتت » وبدت زنزانتي الصغيرة تدور بي . ولم أعرف أي شيء أكثر حتى فتحت عيني لأرى خالي فيليب منحنياً علي . لم تكن بي حاجة لتوجيه أي سؤال ، وقد همس هو قائلاً : « ليندا . لقد ماتت سعيدة » لم أستطع البكاء ، إن نظرتي الثابتة أزعجته فقال : « لا تنظري هكذا ، لا تضيفي إلى متاعب أمي المسكينة ، تذكري كم عليها أن تتحمل ، وأننا يجب أن نبذل جهدنا لتعزيتها » آه نعم ، تلك الجدة العجوز المباركة التي حملت لثلاث وسبعين سنة ، عواصف حياة أم أمة، وهي في الحقيقة تحتاج إلى التعزية.

لقد أظهرت السيدة « فلنت » لشقيقتها المسكينة بالرضاعة . والتي كانت دون أطفال ، أنها فعلاً دون ضمير وذات أنانية قاسية ، وقد دمرت صحة هذه الخالة خلال سنوات من التعب المستمر الذي لم يلق مكافأة ، ولكنها الآن أصبحت عاطفية جداً ، وأعتقد أنها فكرت كم سيكون تصويراً جميلاً لذلك الارتباط بين العبد ومالكه إذا مادفنت جثة خادمتها العجوز المتلاشية عند قدميها ، وأرسلت في طلب الكاهن ، وسألت ما إذا كان لديه اعتراض على دفن الخالة « نانسي » في مدفن عائلة « فلنت » حيث لم يسمح بدفن أي شخص ملون في مقبرة الناس البيض ، والكاهن عرف أن كافة الموتى من عائلتنا قد استراحوا في مقبرة العبيد القديمة ، لذلك أجاب « ليس لدي مانع من العمل بموجب رغبتك . ولكن ربما كان لأم الخالة نانسي اختيار غير ذلك » .

ولم تشعر السيدة « فلنت » بأن العبيد أيضاً لهم أحاسيس ومشاعر ، وعندما استشارت جدتي قالت على الفور أنها تريد لنانسي أن ترقد مع كافة عائلتها ، وحيث سيتم دفن جثمانها هي ، وانصاعت السيدة « فلنت» لرغبتها مع أنها قالت أنه من المؤلم لها أن تدفن « نانسي » بعيدة عنها ،وكان يمكن أن تضيف بشكل مثير للشفقة « كنت لفترة طويلة وحتى الآن اضطجع إلى جانبها على أرض المدخل »

وقد طلب خالي « فيليب » السماح له بدفن شقيقته على حسابه الخاص ، ومالكو العبيد دائماً على استعداد لأن يمنحوا معروفاً كهذا لعبيدهم وأقربائهم . وكانت الترتيبات بسيطة ولكنها محترمة ، لقد دفنت يوم الأحد . وقرأ كاهن السيدة « فلنت » خدمة الجنازة ، كان هناك حشد كبير من الناس الملونين من العبيد والأحرار والقليل من الناس البيض الذين كانوا دائماً أصدقاء لعائلتنا ، وكانت عربة الدكتور « فلنت» في الجنازة ، وعندما أودعت الجثة مكان راحتها المتواضع ، ذرفت السيدة دمعة وعادت إلى عربتها ، مفكرة على الأرجح أنها قامت بواجبها بشكل نبيل .

لقد اعتبرها العبيد جنازة فخمة ، ولابد أن المسافرين الشماليين الذين مروا بالمكان يمكن أن يكونوا قد وصفوا هذا القدر من الاحترام لهذه الميتة المتواضعة كمظهر جميل من « العرف البطريركي » ودليل مؤثر للارتباط بين مالكي العبيد وخدمهم ، والسيدة « فلنت » ذات القلب الرقيق كانت ستؤكد هذا الانطباع ، بالمنديل الذي قربته من عينيها . وكان بامكاننا إعلامهم بقصة أخرى وإعطائهم فصلاً من المساوىء والمعاناة ، مما يمكن أن يلمس قلوبهم ، إذا كانت لهم قلوب يشعروا بها بالناس الملونين .

وكان من الممكن أن نخبرهم كيف تعبت والدة الأمة العجوز المسكينة سنة بعد أخرى ، لتوفر ٨٠٠ دولار لشراء حق ولدها «فيليب» بمكتسباته ، وكيف أن « فيليب » نفسه قد دفع مصاريف الجنازة التي يعتبرونها عملاً يدين به إلى السيد ، وكان يمكن أن نخبرهم عن مخلوقة شابة مسكينة ، مشرفة على الهلاك ، مغلق عليها في قبر حي لسنوات ، تجنباً للتعذيب الذي كان من الممكن أن يمارس عليها فيما لو جازفت بالخروج منه لتنظر إلى وجه صديقتها الراحلة .

كل هذا وأكثر منه فكرت فيه ، بينما كنت أجلس قرب الكوة ، منتظرة عودة العائلة من المقبرة ، باكية في بعض الأحيان أو نائمة ، أتعرض لأحلام مزعجة حول الموتى والأحياء .

كان مؤلماً أن نشاهد حزن جدتي الثكلى . لقد كانت دائماً قوية الاحتمال ، والآن حسب العادة أسعفها الاخلاص الديني . ولكن حياتها المظلمة غدت أكثر ظلاماً ، والسن والعذاب تركت آثاراً عميقة في وجهها الشاحب .

كانت لها أربعة أماكن لكي تدق لي فآتي إلى الكوة ، وكل مكان له معنى مختلف ، وأتت الآن على الأغلب لتتحدث إلي عن ابنتها الراحلة بينما تدحرجت الدموع ببطء على خديها المتجعدين ، وقالت ما استطعت من أجل تعزيتها ، ولكن ذلك كان انعكاساً حزيناً . لأنني بدلاً من أن أكون قادرة على مساعدتها كنت مصدراً دائماً للقلق والإزعاج ، لقد كان ظهر العجوز المسكينة ملتصقاً من شدة الإرهاق ، لقد انحنى ولكنه لم ينكسر .

* * *

٢٩

التحضير للهرب

أعتقد أن القارىء سيصدقني بصعوبة عندما أؤكد أني عشت في ذلك الثقب الموحش الصغير محرومة على الأغلب من النور والهواء والمكان الواسع لأحرك أطرافي قرابة السبع سنوات ، ولكنها الحقيقة وبالنسبة لي حقيقة محزنة ، فحتى الآن لا يزال جسمي يعاني من تأثير ذلك السجن الطويل ، ولا أقول شيئاً عن نفسي ، إن أفراد عائلتي يعيشون الآن في نيويورك وبوسطن ، وهم يستطيعون أن يشهدوا على حقيقة ما أقول .

وكانت الليالي لاتعد ولا تحصى ، تلك التي جلست فيها ساهرة في الكوة التي لاتكاد تسعني وتعطي لي لمحة عن نجمة متلألئة ، هناك كنت أسمع الدوريات وصيادي العبيد يأتمرون معاً حول اعتقال الهاربين . عارفة وبشكل جيد كم سيكون سرورهم كبيراً لو أمكن أن يعتقلوني .

وفصلاً بعد فصل ، وسنة بعد أخرى كنت أتلصص على وجوه أطفالي ، وأسمع أصواتهم الحلوة بقلب تائق طيلة الوقت لأن يقول « أمكم هنا » وفي بعض الأحيان تبين لي وكأنما مرت عصور منذ أن دخلت إلى ذلك الوجود المظلم الممل ، وفي أحيان أخرى كنت مخدرة . فاترة الهمة ، وأحياناً عديمة الصبر لأن أعرف متى ستنقضي هذه السنون الحالكة فيسمح لي ثانية بالتمتع بشعاع الشمس وتنفس الهواء النقي .

وبعد أن غادرتنا « إيلين » تزايد هذا الشعور ، ووافق السيد «ساندز» على ذهاب « بني » إلى الشمال حينما يستطيع خاله « فيليب » أن يذهب معه ، وكنت قلقة لأن أكون هناك أيضاً لمراقبة أطفالي وحمايتهم بقدر ما أستطيع ، وفوق ذلك كنت على وشك الغرق في زنزانتي لو بقيت أكثر قليلاً ، لأن السطح البسيط أصبح خرباً ولا يمكن اصلاحه ، وكان خالي «فيليب » يخشى أن يزيل الألواح الخشبية لئلا يلمحني أحدهم ، وعند حصول العواصف في الليل ، كانوا ينشرون الحصر وقطع السجاد التي تبدو في الصباح أنها وضعت لتجف ، ولكن هذه القطع التي قد تغطي السطح في وضح النهار كان يمكن أن تجتذب الانتباه وتبعاً لذلك فان ملابسي وفراشي كانت على الأغلب مبللة مما أدى إلى أوجاع في أطرافي المتشنجة والمتيبسة . ودرست عدة خطط في ذهني للهرب،والتي كنت في بعض الأحيان أنهي بها إلى جدتي عندما كانت تأتي لتهمس على باب المصيدة ، والمرأة العجوز ذات القلب الطيب ، لها تعاطف كبير مع الهاربين ، لقد عرفت الكثير عن القسوة التي كان يعامل بها أولئك الذين يعتقلون ، وتعود ذاكرتها دائماً إلى الوراء عن معاناة ولدها الوسيم اللامع «بنيامين » الأصغر والأحب إليها من بين قطيعها ، وهكذا عندما كنت ألمح إلى هذا الموضوع كانت تئن قائلة : « آه لا تفكري فيه ياطفلتي لأنك ستحطمين فؤادي » ولم تكن لي الآن خالتي « نانسي » كي تشجعني ولكن أخي « وليام » وأطفالي كانوا بصورة مستمرة يشيرون لي إلى الشمال .

والآن علي أن أعود بضعة أشهر في قصتي إلى الوراء ، لقد ذكرت أن اليوم الأول من كانون الثاني كان الوقت المحدد لبيع العبيد أو تأجيرهم لسادة جدد ، وإذا كان الوقت يعد بنبضات القلب ، فان العبيد المساكين

يمكن أن يشيروا بالسنين من المعاناة أثناء ذلك المهرجان الذي هو بهيج جداً للأحرار .

ففي اليوم الأول من السنة السابقة ، كانت إحدى صديقاتي واسمها « فاني » ستباع في مزاد لتسديد ديون سيدها ، وكانت أفكاري معها طيلة الوقت ، وفي الليل سألت بقلق ماذا كان مصيرها وأخبرت أنها قد بيعت إلى سيد كما بيعت بناتها الصغيرات الأربع إلى سيد آخر بعيداً جداً عنها ، وأنها هربت من مشتريها ، ولم يعثر لها على أثر ، وكانت أمها العجوز « آجي » التي تحدثت عنها قد عاشت في شقة صغيرة تخص جدتي وملاصقة لبيتها ، لقد فتش سكنها، وروقب ، وذلك جلب الدوريات قريباً جداً مني ، مما اضطرني أن أكون على حذر في زنزانتي ، والصيادون كانوا إلى حد ما مراوغين ، وبعد فترة قصيرة لمح « بني » « فاني » صدفة في كوخ أمها فأخبر جدتي التي أوصته ألا يبوح بذلك ، شارحة له النتائج المفزعة ، وهو لم يخن الثقة ، وقد حلمت « آجي » قليلاً بأن جدتي تعرف أين كانت ابنتها مختبئة ، وأن الشرفة الصغيرة لجارتها العجوز ، كانت تئن تحت عبء مماثل من القلق والخوف ، ولكن هذه الأسرار الخطرة عمقت التعاطف بين الوالدتين العجوزتين المضطهدتين

وبقيت أنا وصديقتي « فاني » أسابيع كثيرة مختبئتين في مدى نداء بعضنا البعض ، ولكنها لم تكن دارية بالحقيقة ، وتمنيت أن أراها تشاركني زنزانتي التي بدت مأوى أكثر أمناً من مكانها ، ولكنني جلبت الكثير من العناء إلى جدتي ، حتى أنه بدا من الخطأ الطلب إليها أن تتعرض لمخاطر أكبر . . . وازداد قلقي لقد عشت طويلاً جداً في ألم جسماني وكرب روحي ، وكنت أخشى دوماً أنه بالصدفة المحضة أو الحيلة يمكن

أن تنجح العبودية في اختطاف أولادي مني ؛ إن هذه الفكرة دفعت بي تقريباً إلى الهياج ، وصممت أن أتوجه إلى النجمة الشمالية (*) بكافة المجازفات ، وفي هذه الأزمة منحت العناية الإلهية طريقاً غير متوقعة للهرب ، أتى صديقي « بيتر » ذات مساء وطلب أن يتحدث قليلاً إلي قائلاً :« إن يومك قد حان باليندا ، لقد وجدت فرصة لك للذهاب إلى الولايات الحرة ، ولديك أسبوعان لتقرري » وكان النبأ جيداً جداً إذا كان صحيحاً ، ولكن « بيتر » شرح ترتيباته ، وأخبرني كل ما كان ضرورياً لي لأقول سوف أذهب ، كنت على وشك أن أجيبه بنعم في بهجة عندما مرت في ذهني فكرة « بني » لقد أخبرته أن الأغراء كان قوياً بشكل مفرط ولكني كنت خائفة بشكل مفزع من سلطة الدكتور « فلنت » المدعاة على طفلي ، وأنني لا أستطيع الذهاب وتركه خلفي ، واحتج « بيتر » بحرارة وقال إن مثل هذه الفرصة الطيبة لا يمكن أن تحدث مرة ثانية وأن « بني » كان حراً ويمكن أن يرسل إلي ، وأنه من أجل رفاه أطفالي علي ألا أتردد لحظة . . . وأخبرته أنني سوف أستشير خالي «فيليب » . . . واغتبط خالي للفكرة ، وأمرني أن أذهب بكل تأكيد ووعد إذا ما كتبت له الحياة أنه سوف يحضر أو يرسل ولدي إلي حالما أصل إلى مكان أمين ، وصممت على الذهاب ، ولكن فكرت أن لا شيء يجب أن يقال لجدتي حتى قرب وقت الرحيل ، ولكن خالي فكر أنها سوف تشعر بصعوبة أكثر إذا ما غادرتها فجأة ، وقال بدوره: «سوف أجادلها بالحجة وأقنعها كم هو ضروري ليس فقط من أجلك

(*) – كان هذا المرشد الوحيد للعديد من العبيد الهاربين ، والذين يختبئون بالنهار ويركضون في الليل .

(و . ت)

بل من أجلها أيضاً.إنك لا تستطيعين أن تنكري حقيقة أنها غارقة تحت وطأة أعبائها » . لم أكن أنكر ذلك ، عرفت أن اختفائي كان مصدر قلق دائم بالنسبة لها ، وأنها كلما كبرت ازدادت خوفاً وأصبحت عصبية، وتحدث خالي اليها وأخيراً نجح في اغرائها أنه كان ضرورياً بشكل مطلق لي أن أغتنم الفرصة التي عرضت بصورة غير متوقعة أبداً .

إن فكرة كوني امرأة حرة ، أثبتت على الأغلب أنها كثيرة جداً لكياني الضعيف ، لقد استحثتني إلاستشارة وفي نفس الوقت أذهلتني ، قمت باجراء الترتيبات العملية للرحلة ، ومن أجل أن يتبعني ولدي ، صممت أن أقابله قبل أن أذهب حتى أعطيه تحذيرات ونصائح وأخبره كيف سأكون بانتظاره بقلق في الشمال

وتسللت جدتي إلي بقدر المستطاع لتهمس كلمات التسلية ، وأصرت عليأنأكتبإلى الدكتور «فلنت»بمجرد وصولي إلىالولاياتالحرة أطلب إليه أن يبيعني لها ، قالت أنها ستضحي ببيتها وكل مالها في هذا العالم من أجل أن تحفظني سالمة مع أطفالي في أي جزء من العالم ، عند ذلك يمكنها أن تموت بسلام ، وعدت صديقتي المخلصة العجور العزيزة أنني سوف أكتب إليها حالما أصل ، وأضع الرسالة في طريقة أمينة لتصل إليها ، ولكنني صممت في ذهنيأنه يجب أن لا يصرف للدفع إلى مالكي العبيد الجشعين سنت واحد من مكاسبها الصعبة مقابل ما يسمونه ممتلكاتهم، وحتى لو كنت غير عازمة على شراء ما سبق وكان حقاً للامتلاك فان الانسانية العامة يمكن أن تمنعني من قبول عرض كريم على حساب اخراج قريبتي العجوز من دارها ووطنها ، بينما هي كانت ترتجف وعلى حافة قبرها

كان علي أن أهرب في سفينة ، ولكنني لا أعرف أية تفصيلات أخرى ، وكنت على استعداد ، ولكن السفينة ، احتجزت بصورة غير متوقعة عدة أيام . . . وفي خلال ذلك ، جاءت الأنباء إلى المدينة تتحدث عن جريمة قتل فظيعة ارتكبت ضد عبد هارب يدعى « جيمس » وكانت «شاريتي» والدة هذا الشاب سيء الحظ من معارفنا القدامى ، لقد أخبرت تفاصيل موتها الكئيبة في وصفي لبعض مالكي العبيد في الجوار . وكانت جدتي شديدة الحساسية وبشكل عصبي حول الهروب . وكانت فزعة بشكل رهيب . وشعرت بالتأكيد أن مصيراً مماثلاً بانتظاري إذا لم أكف عن مشروعي

وعلم صديقي « بيتر » بهذا الخبر ، وأصابته خيبة أمل وغضب وقال إنه بنـــاء على خبرته السابقة سيمضي وقت طويل قبل أن تحل فرصة أخرى لطرحها ، وأخبرته أنه لا لزوم لطرحها بعيداً . وأن لدي صديقة مختبئة بالقرب والتي يسرها تماماً أن تحل في المكان الذي كان قد جهز لي ، أخبرته حول المسكينة « فاني » وأبدى هذا الشخص النبيل ذا القلب الطيب ، والذي لم يدر ظهره تجاه أي شخص في حالة غم ، أبيض كان أم أسود ، استعداده لمساعدتها ، وقد دهشت«آجي»كثيراً عندما وجدت أننا قد عرفنا سرها ، وابتهجت لأن تسمع فرصة كهذه لـ « فاني » ، وعملت الترتيبات لها لتذهب إلى ظهر الباخرة في الليلة التالية . وكلاهما افترضت أني كنت في الشمال منذ فترة طويلة . ولذلك فان اسمي لم يذكر في الصفقة ، وحملت « فاني » على ظهر الباخرة في الوقت المحدد ، ووضعت في غرفة صغيرة جداً ، وكلفت هذه التسوية ما يمكن أن يسدد رحلة إلى انكلترا ، ولكن عندما يقترح المرء أن يذهب إلى انكلترا القديمة الجميلة فانه من المتوقع أن يحسب ما إذا كان يستطيع تأمين كلفة

المسيرة ، بينما نجد في عملية مساومة للهروب من العبودية ، فان الضحية المرتجفة مستعدة لأن تقول « خذوا كل ما لدي ولكن لا تخونوني فقط »

وفي الصباح التالي ، تلصصت من خلال الكوة ، فرأيت أن الظلام دامس ومغيم ، وفي الليل تلقيت نبأ بأن الريح أمامنا وأن السفينة لم تستطع الإبحار ، كنت قلقةحول «فاني» و «بيتر» أيضاً الذي كان يجازف مجازفة عظيمة بتحريض منه ، ،وفي اليوم التالي استمرت الريح والطقس على نفس الشكل ، وكانت « فاني » المسكينة نصف ميتة من الرعب عندما نقلوها إلى ظهر السفينة ، واستطعت أن أتخيل فوراً كم ستعاني هي الآن، وكانت جدتي تحضر باستمرار إلى زنزانتي لتعبر عن شكرها في عدم ذهابي ، وفي الصباح الثالث دقت بابي لأنزل إلى غرفة التخزين ، لقد كانت العجوز المسكينة المعانية تنهار تحت وطأة المتاعب،وكانت تضطرب الآن بسهولة ، وجدتها في حالة عصبية واستثارة ولكني لم أكن أعلم أنها نسيت إغلاق الباب خلفها كالعادة . . . وانزعجت بشكل كبير حول احتجاز الباخرة ،كانت تخشى أن كل شيء سوف ينكشف وعندها سوف نعذب جميعـــاً . فاني وبيتر وأنا حتى الموت كما حصل للعبد المسكين « جيمس » وكل ذلك من أجل لطفه في مساعدتي ، كم سيكون مفزعاً لنا جميعاً . واأسفاه لقد كانت الفكرة مألوفة لدي،وأطلقت عدة تنهدات حادة من صميم قلبي ، وحاولت إخماد قلقي والتحدث بشكل هادىء معها ، ولجأت إلى بعض التلميح عن خالتي « نانسي » الابنة العزيزة التي دفنتها مؤخراً ، ثم فقدت كل رقابة على نفسها ، وحالما وقفت هناك ترتجف وتتنهد وصل صوت من الرواق يقول : « أين أنت يا خالتي مارتا ؟ » فزعت جدتي وفي تهيجها فتحت الباب دون أن تفكر بي ، وخطت الخادمة « جني » المؤذية عدة خطوات إلى الداخل

تلك الخادمة التي حاولت دخول غرفتي عندما كنت مختبئة في منزل محسنتي البيضاء ، وقالت : « إنهم يحاولون الاصطياد في كل مكان من أجلك يا خالتي مارتا » وأردفت : « سيدتي تريدك أن ترسلي بعض البسكويت » تسللت خلسة خلف برميل اخفاني تماماً ، ولكنني تخيلت أن « جني » كانت تنظر مباشرة إلى الموضع ، وخفق قلبي بعنف ، وأحست جدتي بخطأها وخرجت بسرعة مع « جني » لجلب البسكويت مغلقة الباب خلفها ، وعادت إلي في مدى بضع دقائق في الصورة الحقيقية لليأس وقالت : « يا طفلتي المسكينة ، إن اهمالي قد دمرك ، القارب لم يذهب بعيداً ، استعدي فوراً واذهبي مع « فاني » ليس لدي أي كلمة أقولها ضد ذلك الآن ، لأنه لا أحد يعرف ماذا سيحصل هذا النهار »

وأرسلت في طلب خالي « فيليب » ووافق مع أمه في التفكير بأن «جني » سوف تعلم الدكتور « فلنت في أقل من أربع وعشرين ساعة، ونصح بصعودي إلى ظهر القارب إذا أمكن ، وإلا فمن المستحسن أن أبقى في زنزانتي ، حيث لا يستطيعون العثور علي دون تدمير المنزل ، وقال إنه لا يصح أن يترك المسألة لأن الاشتباه سوف يثار فوراً ، ولكنه وعد أن يتصل « ببيتر » ، وشعرت بالتلكؤ لأن أطلب إليه ثانية وقد سبق وورطته ، ولكن بدا أنه لم يكن هناك من بديل ، وكان غاضباً حيال ترددي ، وكان صادقاً مع طبيعته الكريمة ، وقال فوراً إنه سوف يبذل جهده لمساعدتي ، واثقاً أنني يجب أن أبدو امرأة قوية في هذه المرة .

وتقدم هو فوراً من الرصيف ، ووجد أن الريح قد تحولت ، وأن الباخرة كانت تضرب التيار ببطء وقد أعطى دولاراً لكل ملاح قارب

يلحق السفينة ليتمكن من الوصول إليها بسرعة ، وكان لون بشرته أقل سواداً من الرجلين المستأجرين ، وعندما رآهم الكابتن قادمين ، ظن أن المأمورين يتبعون السفينة بحثاً عن العبيد الهاربين . . . نشروا الأشرعة ولكن القارب لحقهم وقفز بيتر المتعب على ظهر السفينة .

وعرفه الربان فوراً ، وطلب بيتر إليه أن ينزل إلى الأسفل ، للتحدث عن فاتورة رديئة كان أعطاه إياها ، وعندما أخبر بمهمته أجاب الربان : «لماذا ، المرأة هنا منذ حين ، وأنا وضعتها حيث لا يمكن لك ولا للشيطان أن تكون لديه مهمة قاسية في إيجادها » .

قال بيتر : « لكنها امرأة أخرى أود أن أحضرها ، هي في غم كبير أيضاً ، وسوف يدفع لك أي شيء في حدود المعقول ؛ إذا ما توقفت وأخذتها »

قال الربان : « ما اسمها ؟ »

قال « بيتر » « ليندا »

قال الربان : « ذلك اسم المرأة التي سبق ووجدت هنا ، أقسم بجورج أنك تقصد خيانتي »

أجابه بيتر : « آه ، الله يعلم أنني لا أنوي أن تمس شعرة من رأسك، أنا شاكر لك جداً ، ولكن في الحقيقة هناك امرأة أخرى في خطر عظيم، كن إنسانياً وتوقف لأخذها » .

وبعد برهة وصلوا إلى تفاهم ، ولم تحلم « فاني » أنني كنت في ذلك الاقليم ، فانتحلت اسمي ، ولو أنها سمت نفسها جونسون ، وقال بيتر « ليندا هو اسم عام ، والمرأة التي أريد احضارها تدعى ليندا برنت »

ووافق الربان على الانتظار في مكان معين حتى المساء ، وقد دفع له بشكل رقيق من أجل الاحتجاز .

وبالطبع كان اليوم قلقاً لنا جميعاً ، ولكننا استنتجنا أنه إذا كانت «جني» قد رأتني فستكون عاقلة جداً بحيث تعلم سيدتها حول ذلك ، وأنها على الأرجح لن تجد فرصة لرؤية الدكتور « فلنت » حتى المساء ، لأنني عرفت جيداً ماذا كانت الأحكام في ذلك المنزل . وعرفت بعد ذلك أنها لم ترني ، لأنه لم ينتج شيء من ذلك وكانت هي واحدة من ذوات الأخلاق السيئة . بحيث تقفز لخيانة زميلة لها بائسة مقابل ثلاثين قطعة من الفضة

عملت كل الترتيبات للذهاب إلى ظهر الباخرة حالما يحل الغسق ، وصممت على قضاء الوقت الباقي على الموعد مع ابني ، إنني لم أتحدث إليه منذ سبع سنوات مع أنني كنت وإياه تحت سطح واحد ، وكنت أراه كل يوم عندما كنت بحال جيدة تماماً لأن أجلس عند كوتي ، ولم أجرؤ على المجازفة إلى أبعد من غرفة التخزين ، وهكذا جلبوه إلي هناك ، وأقفلوا علينا في مكان مخفي عند باب الرواق ، لقد كانت مقابلة مثيرة لكلينا ، بعد أن تحدثنا وبكينا معاً فترة قصيرة ، قال : « يا أمي إنني مسرور لأنك ذاهبة بعيداً . كنت أرغب في الذهاب معك ، عرفت أنك كنت هنا وكان خوفي كثيراً جداً أن يأتوا ويعتقلوك . . . »

وفوجئت كثيراً وسألته كيف اكتشف ذلك ؟ أجاب « كنت واقفاً تحت الافريز ذات يوم قبل ذهاب « ايلين » وسمعت أحدهم يسعل فوق الحظيرة الخشبية ، ولا أدري ما الذي جعلني أفكر أن ذلك كان أنت ولكني كنت واثقاً من ذلك ، فان « ايلين » وفي الليلة السابقة

لذهابها بعيداً ، جلبتها جدتي إلى الغرفة في الليل وفكرت في أنها ربما كانت هناك لتراك . قبل أن تغادر ، لأنني سمعت جدتي تهمس لها : «الآن اذهبي للنوم وتذكري ألا تخبري أحداً أبداً » .

سألته ما إذا كان قد ذكر اشتباهه لشقيقته ، قال إنه لم يفعل ذلك، ولكن بعدما سمع السعال وكانت تلعب مع الاطفال في ذلك الجانب من البيت ، كان يحاول دائماً جرها للجانب الآخر . خشية أن يسمعاني أسعل أيضاً . . . وقال إنه ظل ينظر عن كثب إلى الدكتور « فلنت » وإذا رآه يتحدث إلى الشرطي ، أو إلى دورية كان دائماً يخبر جدتي ، وأنا الآن أتذكر أنني رأيته يظهر جزعاً عندما كان الناس في ذلك الجانب من البيت . وكنت في ذلك الوقت حائرة حول الباعث على أفعاله ، وهكذا تبدو هذه الفطنة خارقة للعادة من جانب ولد في الثانية عشرة من عمره . ولكن العبيد ، لكونهم محوطين بالألغاز والخداع والأخطار يتعلمون منذ حداثة سنهم أن يكونوا متشككين ويقظين وحريصين ودهاة قبل الأوان ، وهو لم يسأل سؤالاً جدتي أو خالي فيليب وأنا كثيراً ماسمعته وهو منسجم مع الأطفال الآخرين عندما كانوا يتحدثون عن كوني في الشمال

وأخبرته أنني صممت الآن على الذهاب إلى الولايات الحرة ، وإذا ما كان ولداً طيباً شريفاً وطفلاً محباً لجدته العجوز ، فان الله سوف يباركه ويجلبه لي ، ونحن و « ايلين » سوف نعيش معاً ، وبينما هو يتكلم إذ انفتح الباب ودخلت جدتي مع كيس صغير من النقود أرادتني أن آخذه ، وتوسلت إليها أن تحتفظ بجزء منه على الأقل لدفع نفقات «بني » في سفره إلى الشمال ، ولكنها أصرت بينما كانت دموعها تنهمر

بغزارة إنني يجب أن آخذ الكل وقالت « يمكن أن تمرضي بين الأغراب . ويرسلونك إلى بيت فقير لتموتي هناك » ...آه لتلك الجدة الطيبة .

وللمرة الأخيرة ذهبت إلى زنزانتي ، إلى زاويتي ، إن مظهرها لم يعد يسبب لي قشعريرة . لأن شعاع الأمل قد بزغ في روحي . وحتى مع مطمح الحرية أمامي . شعرت بالحزن العميق لفراق ذلك المكان إلى الأبد، ذلك المسكن القديم وماحوله ، حيث كنت أحتمي فيه بمساعدة جدتي الطيبة العجوز . وحيث حلمت بأولى ومضات الحب في المراهقة، وحيث أتى أطفالي ليلتقوا حول قلبي المهجور . وحالما اقتربت ساعة رحيلي ، نزلت مرة أخرى إلى غرفة التخزين حيث جدتي و(بني) هناك، وأخذتني جدتي من يدي وقالت : « ليندا دعينا نصلي » وركعنا معاً وأنا أضغط طفلي إلى قلبي وذراعي الثانية حول الصديقة المخلصة والمحبة العجوز والتي سوف أفارقها قريباً إلى الأبد ، ولم يكن مقدراً لي أن أصغي لمثل هذا الحماس في التضرع من أجل الرحمة والحماية في أية مناسبة أخرى ، لقد ارتعشت في صميم قلبي . وألهمني ذلك الثقة بالله .

وكان بيتر ينتظرني في الشارع ، وفوراً كنت إلى جانبه ضعيفة الجسم ولكن قوية التصميم ، ولم أنظر خلفي إلى المكان القديم ، ولو أني شعرت بأني لن أراه مرة أخرى .

* * *

٣٠

المقصد هو الشمال

لن أستطيع أبداً أن أروي كيف وصلنا رصيف الميناء ، كان عقلي في دوامة ، وأطرافي تتمايل من تحتي وفي مكان معين التقينا بخالي «فيليب» الذي انطلق قبلنا في طريق مختلف لكي يصل الرصيف أولاً . . . ويعطينا تحذيراً سريعاً فيما لو كان هناك خطر . . وكان قارب التجديف جاهزاً ، وحالما كنت على وشك الصعود شعرت بشيء ما يجذبني بلطف ، والتفت لأرى (بني) وقد ظهر عليه الشحوب والقلق ، وهمس في أذني : «كنت أتلصص إلى نافذة الدكتور وهو في البيت ، وداعاً يا أمي ، لاتبكي ، سوف آتي » وأسرع بعيداً وعانقت يد خالي الطبيب ، الذي أدين له ولبيتر كثيراً ، نعم « بيتر » ذلك الصديق الشجاع الذي تطوع للقيام بمجازفات مخيفة كهذه لتأمين سلامتي ، وإلى هذا اليوم أتذكر كيف شع وجهه الطافح بالسرور عندما أخبرني أنه اكتشف طريقاً آمناً لي من أجل الهرب ، ومع ذلك فالرجل الذكي طيب القلب ، كان متاعاً وعرضة حسب قوانين البلاد التي تسمي نفسها متحضرة لأن يباع مع الخيول والخنازير

ارتحلنا في صمت ، وكانت أفواهنا جميعاً مليئة بالكلمات ، وانزلق القارب بسرعة فوق الماء ، وبعد برهة قال أحد البحارة : « لاتكوني رقيقة القلب يا سيدتي . . . سوف نأخذك إلى زوجك بسلام في . . . ؟ »

أولاً لم أستطع أن أتخيل ما عناه ، ولكن كان لدي حضور ذهن لأفكر أنه من الأرجح الإشارة إلى شيء ما قد يكون الربان قد أخبره بها ، وهكذا شكرته وقلت : آمل أن يصادفنا جو بهيج .

وعندما دخلت السفينة أتى الربان إلى الأمام للاقاتي ، كان رجلاً كهلاً ، ذا ملامح بهيجة . فقادني إلى صندوق صغير في الغرفة ، حيث جلست صديقتي « فاني » والتي بدت وكأنما قد رأت شبحاً ، وحملقت فيّ بدهشة مطلقة قائلة « ليندا . أيمكن أن تكوني أنت ؟ أم أن ذلك شبحك؟» وعندما أغلق علينا الباب ونحن في ذراعي بعضنا بعضاً ، لم تستطع مشاعري الهائجة أن تبقى حبيسة ، ووصلت تنهداتي إلى أذني الربان الذي جاء وذكرنا بلطف من أجل سلامته ومن أجل سلامتنا أنه يجدر بنا ألا نجتذب أي انتباه . وقال إنه عندما يكون هناك إبحار على مرأى البصر فيجدر بنا أن نظل في الأسفل . ولكن في أوقات أخرى ليس لديه مانع من كوننا على سطح المركب ، وأكد لنا أنه سوف يحتفظ برقابة جيدة ، وإذا ما تصرفنا نحن بفطنة ، فهو يعتقد أننا لن نصادف أي خطر ، وقد تمثلنا كنساء ذاهبات للاقاة أزواجهن في . . . . ؟ وشكرناه ووعدناه بأن نعمل بعناية حسب كافة التوجيهات المعطاة لنا !

وتحدثت « فاني » بصوت خفيض وهاديء في غرفتنا الصغيرة ، لقد أخبرتني عن معاناتها أثناء هروبها وعن رعبها عندما كانت متخفية في منزل والدتها ، وفوق كل شيء سكتت على سكرات الفراق عن كافة أطفالها في يوم المزاد ، ذلك اليوم المرعب . وقد أعجبت بشكل نادر بي عندما أخبرتها عن المكان الذي قضيت فيه قرابة السبع سنوات .

وقلت : « لنا نفس المآسي » وأجابت « كلا ، إنك سوف ترين أطفالك فوراً ، ولكن ليس هناك أي أمل في أنني سوف أسمع عنهم أبداً » .

وانطلقت الباخرة فوراً ، ولكننا حققنا نجاحاً بطيئاً ، لقد كانت الريح ضدنا ، ولم يكن ذلك ليقلقني لو كنا بعيدين عن مرمى النظر في البلدة ، ولكن حتى تكون أميال من الماء بيننا وبين أعدائنا ، سنظل ممتلئين بالرعب المستمر من أن الشرطة سوف تأتي إلى ظهر المركب ، ولم أشعر بالهدوء تماماً مع الربان ورجاله ، كنت غريبة جداً مع ذلك الصنف من الناس ، حيث سمعت أن البحارة كانوا فظين ، وفي بعض الأحيان قاسيين. كنا هكذا تماماً في قبضتهم ، حتى أنهم إذا ما كانوا رجالاً أوغاداً ، فان حالنا سوف يصبح مخيفاً

والآن وقد كان الربان قد تلقى ثمن رحلتنا ، أفلا يمكن أن يتم إغراؤه ليحصل على مال أكثر باعطائنا إلى أولئك الذين يطالبون بنا كممتلكات ؟ بالطبع كنت في وضع موثوق به ، ولكن العبودية جعلتني أشتبه بأي شخص ، أما « فاني » فلم تشاركني عدم الثقة بالنسبة للربان ورجاله ، وقالت إنها كانت خائفة قبل ذلك ولكنها قد مضى عليها ثلاثة أيام وهي على ظهر المركب ، والمركب في الحوض ولم يخنها أحد أو عاملها بطريقة غير لطيفة .

وأتى الربان بسرعة لينصحنا بالصعود إلى ظهر المركب لتنفس الهواء الطلق ، وكان أسلوبه الودي الاحترامي بالإضافة إلى شهادة « فاني » قد طمأنني ، وذهبنا معه وجلسنا على مقعد مريح ، وكان يأتي إلينا أحياناً ليحادثنا ، وذكر أنه كان جنوبياً من حيث الولادة ، وأنه

قضى جزءاً كبيراً من حياته في ولايات الرق ، وأنه مؤخراً فقد أخاً كان يتاجر بالعبيد ، وقال : « ولكن هذا عمل مؤسف ومخجل ، وقد شعرت دائماً بالعار لاعتراف أخي فيما يتعلق بالرق» . وحالما مررنا بمستنقع الأفاعي أشار إليه قائلاً : « هناك مقاطعة عبيد ، تتحدى كافة القوانين » وفكرت في الأيام الرهيبة التي قضيتها هناك . ومع أنه لم يكن يسمى مستنقع الكآبة (ويسمال سوامب) (*) . إلا أنه جعلني أشعر بالكآبة حالما نظرت إليه

سوف لاأنسى تلك الليلة ، فالهواء الباسمي للربيع كان منعشاً جداً ، وكيف أصف مشاعري عندما كنا مبحرين بلطف على خليج (شيسابيك)؟ آه من شعاع الشمس الجميل والنسيم المنعش ، لقد استطعت أن أتمتع بهما دون خوف أو قيد ، وأنا لم أدرك أبداً الأشياء العظيمة مثل الهواء وشعاع الشمس حتى حرمت منهما

وبعدما غادرنا الأرض بعشرة أيام ، كنا نقترب من فيلادلفيا ، وقال الربان : يجب أن نصل إلى هناك في الليل ، ولكنه فكر أنه يجدر بنا الانتظار حتى الصباح ، ونمضي على الشاطيء في وضح النهار كأفضل طريق تجنباً للشبهات .

أجبت : « أنت تعرف الأفضل ، ولكن هل نبقى على ظهر المركب وتحمينا ؟ » ولمح في عيني بعض الشك وقال إنه آسف الآن وقد وصلنا إلى نهاية رحلتنا أن يجد أنني قليلة الثقة فيه ، آه لو أنه كان يوماً ما عبداً .

(*) حوالي ٣٠ ميلا طول وعشرة عرض ، يقع في جنوب شرقي فرجينيا وشمال شرقي كارولينا الشمالية وأنه ربما يعرف بشكل أفضل من الأصقاع الممتدة في المستنقع في السهل الساحلي لفرجينيا وكارولينا .

لعرف كم من الصعب الثقة برجل أبيض ، على أنه أكد لنا أننا يمكننا أن ننام في الليل دون خوف وأنه سوف يعتني بنا بحيث لن نترك بلا حماية ، لقد قبلت كلمة شرف من ذلك القبطان الذي هو جنوبي مثلنا ، ولو كنت أنا و«فاني» سيدات بيضاوات ورحلتنا قانونية لما كانت معاملته لنا أكثر احتراماً. إن صديقي الذكي « بيتر » قد قدر بحق خلق هذا الرجل الذي أودعنا شرفه .

وفي الصباح التالي ، كنت على ظهر المركب حالما بزغ فجر اليوم ، وناديت « فاني » لترى الشمس تشرق للمرة الأولى في حياتنا على أرض حرة، لأنني اعتقدت عندئذ أنها كذلك ، راقبنا السماء المحمرة ، ورأينا الجرم السماوي الكبير يبزغ بطيئاً من الماء كما بدا ، وبدأت الأمواج فوراً تتكسر ، وكل شيء أمسك بالوهج الجميل ، لقد انتصبت أمامنا مدينة الأغراب ، نظرنا إلى بعضنا البعض ، وطفحت أعيننا بالدموع ، لقد هربنا من العبودية ، وافترضنا أنفسنا في سلام من الصيادين ، ولكننا كنا وحيدتين في العالم ، وقد غادرنا روابط عزيزة خلفنا ، روابط قطعت بقسوة من قبل العبودية ذلك العفريت البغيض .

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

٣١

احداث في فيلادلفيا

سمعت أن العبد المسكين له عدة أصدقاء في الشمال . ووثقت في أننا سوف نجد بعضاً منهم . وفي غضون ذلك سوف نأخذها قضية مسلماً بها أن الجميع كانوا أصدقاء ، حتى يثبت العكس . . . بحثت عن الربان اللطيف وشكرته على عنايته وأخبرته أنني سوف لاأكف عن الشكر للخدمات التي قدمها لنا ، وأعطيته رسالة إلى الأصدقاء الذين غادرتهم في الوطن ، ووعد بأن يسلمها . وانتقلنا إلى قارب تجديف . وفي مدى خمس عشرة دقيقة هبطنا على الرصيف الخشبي في فيلادلفيا ، وبينما وقفت متأملة حولي لمس الربان اللطيف كتفي قائلاً « هناك رجل ملون محترم النظرات خلفك . سوف أتحدث إليه عن قطارات نيويورك ، وأخبره أنك تريدين الذهاب مباشرة » . شكرته وسألته أن يقودني لبعض الدكاكين حيث أستطيع شراء قفازات وبراقع . وقد فعل ذلك وقال : إنه يريد التحدث إلى الرجل الملون حتى أعود» وعملت بسرعة قدر المستطاع . إن التمرين المستمر على ظهر الباخرة والتحريك المستمر في الماء المالح قد أعاد تقريباً من استخدام أطرافي ، وأربكني ضجيج المدينة . ولكني وجدت الدكاكين . اشتريت بعض البراقع والقفازات لي ولفاني . وأخبرني صاحب الدكان أن ثمنها عدداً

كبيراً من الليفز (*) وأنا لم أسمع بهذه الكلمة من قبل ، ولكنني لم أخبره بذلك ، لأنني خشيت إذا عرف أنني غريبة أن يسألني من أين أتيت ، وأعطيته قطعة ذهبية ، وعندما أعاد الباقي ، عددته ووجدت كم كان (الليفز) يساوي ، وشققت طريقي عائدة إلى الرصيف ، حيث قدمني الربان إلى الرجل الملون المحترم (يرميا دورهام) كاهن كنيسة (بيثيل) لقد أخذني من يدي ، وكأنما كنت صديقاً قديماً ، وأعلمنا أننا كنا متأخرين كثيراً عن عربات الصباح إلى نيويورك ، وعاينا أن ننتظر حتى المساء أو الصباح التالي ، ودعاني للذهاب إلى المنزل معه . مؤكداً لي أن زوجته سوف ترحب بي بشكل ودي ، وسوف يجد لصديقتي منزلاً لدى أحد جيرانه . شكرته على لطفه الكبير مع الغرباء . وأخبرته إذا ما قدر لي أن أحتجز فانني أرغب في أن أرى بعض الناس الذين ذهبوا قبل الآن من بلادنا ، وأصر السيد (دورهام) على أن أتغدى معه ، وهو بعد ذلك يساعدني في إيجاد أصدقائي ، وأتى البحارة ليودعونا ، وصافحت أيديهم القاسية والدموع في عيني . . . لقد كانوا جميعاً لطفاء معنا وقدموا لنا أعظم خدمة بشكل أكبر مما يمكن أن نتصور .

لم أر مدينة عظيمة كهذه ، ولم أك على اتصال بأناس في الشوارع مثل هؤلاء ، وقد بدا وكأنما هؤلاء الذين مروا نظروا إلينا بشكل فضولي ، وكان وجهي طافحاً بالسرور ، بالجلوس على ظهر المركب في الريح

(*) – العملة في عمق الشمال يسمونها شلناً ، وفي الجنوب ، قطعة كانت في بنسلفانيا ، ماريلاند – وويلاويز معروفة بـ (ليفي) ، تقليص لـ (١١) بنس ، كانت تساوي حوالي (١٢,٥) ...

وأشعة الشمس ، حتى أنني ظننت أنهم لن يقرروا بسهولة إلى أي الأمم أنتمي .

واستقبلتني السيدة « دورهام » بترحاب لطيف دون أن توجه أي سؤال ، كنت متعبة ، وكان أسلوبها الودي مبعث إنعاش مريح ، ليباركها الله ، كنت متأكدة من أنها قد سرت عن قلوب متعبة أخرى قبل أن أتلقى عاطفتها ، كانت محوطة بزوجها وأطفالها في بيت أصبح مقدساً بالقوانين الحامية ، وفكرت في أطفالي وتنهدت بحنين إليهم .

وبعد الغداء ذهب السيد « دورهام » معي بغية البحث عن أصدقائي الذين تحدثت عنهم . لقد ذهبوا من بلدة إلى أخرى،وتوقعت سروراً كبيراً في النظر إلى الوجوه المألوفة ، لكنهم لم يكونوا في البيت فعدنا من حيث أتينا خلال الشوارع بسرور بالغ . وعلى الطريق لاحظ السيد « دورهام » أنني تحدثت إليه عن ابنتي التي أتوقع أن أقابلها ، حتى أنه كان مندهشاً لأنني بدوت شاحبة جداً لدرجة أنه لم يأخذني كامرأة متزوجة ، كان يقترب من الموضوع الذي كانت لدي من أجله حساسية مفرطة ، وسيسأل هو عن زوجي بعد ذلك ، وفكرت أني إذا ما أجبته بصدق ماذا سيكون ظنه بي ؟ وأخبرته أن لدي طفلين أحدهما في نيويورك والآخر في الجنوب ، وسأل بعض الأسئلة الأخرى ، وأجبته بصراحة عن بعض الأحداث الأكثر أهمية في حياتي .

كان شيئاً مؤلماً لي أن أفعل ذلك ولكنني لم أود خداعه ، وإذا كان راغباً في كونه صديقي ، فكرت في أنه يجب أن يعرف إلى أي مدى أستحق ذلك ، وقال هو « سامحيني إذا حاولت اختبار مشاعرك ، أنا لم أسألك بدافع الفضول البليد ، أردت أن أفهم وضعك ، لكي أعرف

ما إذا كنت أستطيع أن أقدم أية خدمة لك أو لابنتك الصغيرة ، إن أجوبتك المستقيمة هي لصالحك ، ولكن لاتجيبي كل شخص بهذه الصراحة ، لأن ذلك يمكن أن يعطي بعض الناس ممن لاقلب لهم الحجة لمعاملتك بازدراء »

لقد أحرقتني تلك الكلمة (بازدراء) وكأنها فحمة النار ؛ وأجبت : « يعلم الله وحده كم قاسيت وأنني لأثق أنه سوف يسامحني ، وإذا ما سمح لي بالحصول على أطفالي ، فانني أنوي أن أكون أماً طيبة وأن أحيا بطريقة كهذه ، حتى لايعاملني الناس بازدراء . . . » .

قال « إنني أحترم مشاعرك ، ضعي ثقتك بالله . ولتحكمك المباديء الطيبة ، لن تفشلي في الحصول على أصدقاء . . . »

وعندما وصلنا إلى المنزل ، ذهبت إلى غرفتي مسرورة في أن أبتعد عن العالم لبرهة ، إن الكلمات التي تفوه بها أحدثت انطباعاً لديّ من الصعب إزالته ، لقد جلبت هذه الكلمات خيالات من الماضي الأليم وخلال تفكيري أجفلت بقرع على الباب ، ودخلت السيدة « دورهام » ووجهها يشع باللطف لتقول إنه كان هناك صديق يكره العبودية موجود في الطابق السفلي وأنه يود رؤيتي ، وتغلبت على فزعي من مواجهة الأجانب ، وذهبت معها ، وقد طرحت عدة أسئلة حول تجاربي وهروبي من العبودية ، ولكنني لاحظت حرصهم جميعاً على عدم قول أي شيء يمكن أن يجرح مشاعري . . . كم كان هذا مرضياً ، يمكن أن يتفهمه فقط أولئك الذين تعودوا أن يعاملوا وكأنهم ليس لهم اعتبار في عداد البشر . والصديق المناهض للعبودية أتى للاستفهام عن خططي ، ولتقديم مساعدته إذا مست الحاجة إليها . وكانت « فاني » في منتهى الراحة

في الوقت الحاضر مع صديق السيد « دورهام » وقد وافقت جمعية مناهضة العبودية (*) على دفع مصاريفها إلى نيويورك . وعرض علي الشيء نفسه ولكنني امتنعت عن قبوله . وأخبرتهم أن جدتي قد أعطتني ما يكفي لدفع مصاريفي حتى نهاية رحلتي ، وجرى حثنا على البقاء في فيلادلفيا بضعة أيام حتى يتيسر لنا بعض المرافقين . وقبلت ذلك الاقتراح بسرور لأنني خفت مقابلة مالكي العبيد . وبعض الخوف كان مصدره السكك الحديدية . لم أجرب رحلة عربات القطار في حياتي ، وبدا لي أنها حادثة مهمة جداً .

وفي تلك الليلة ، نشدت وسادتي بالمشاعر التي لم أحملها من قبل ، لقد اعتقدت دون شك أنني امرأة حرة ، بقيت مستيقظة لفترة طويلة ، ولم أكد أغرق في سبات عميق حتى أيقظتني أصوات أجراس النار ، فقفزت وأسرعت بارتداء ملابسي . وحيث كنت أسرع كل شخص في ارتداء ملابسه في مناسبات كهذه . وظن الناس البيض أن ناراً كبيرة يمكن أن تكون فرصة عظيمة للعصيان المسلح . وأنه كان من الأفضل الاستعداد. وأمر الناس الملونون بأن يخرجوا للعمل على إطفاء اللهب. كان هناك محرك واحد فقط في بلدتنا ، والنساء والأطفال الملونون كانوا على الأغلب مطلوبين لجره إلى حافة النهر لملئه ، ونامت ابنة السيدة « دورهام » في نفس الغرفة معي ، وعندما رأيتها نائمة خلال كل ذلك الضجيج ، فكرت أن من واجبي إيقاظها . قالت وهي تفرك عينيها : « ما المسألة ؟ » .

(*) – كان هناك العديد من المنظمات المناهضة للعبودية في الشمال في السنوات الثلاثين التي سبقت الحرب الأهلية ، وعلى الأغلب بمئات الأعضاء ...

أجبتها : « إنهم يصرخون : النار في الشوارع والأجراس تدق » . . .

قالت وهي ناعسة : « وماذا في ذلك ؟ نحن معتادون عليها ، نحن لاننهض إلا إذا اقتربت النار منا ، ماذا يفيدنا ذلك » .

فوجئت تماماً في أنه لم يكن من الضروري لنا أن نذهب ونساعد في ملء المحرك . لقد كنت طفلة جاهلة بدأت للتو تعلم كيف تسير الأشياء في المدن الكبرى .

وفي وضح النهار ، سمعت النسوة يصرخن : سمك طازج ، توت ، فجل ، وأشياء مختلفة أخرى . . . . كل هذا كان جديداً بالنسبة لي ، لقد ارتديت ملابسي في ساعة مبكرة وجلست إلى النافذة لأراقب ذلك المد المجهول من الحياة . . وبدت لي فيلادلفيا مكاناً عظيماً يثير دهشتي ، وعلى مائدة الفطور كانت فكرة الذهاب لجر المحرك مثيرة للضحك ، واشتركت بالمرح .

وذهبت لرؤية « فاني » حيث وجدتها راضية تماماً بين أصدقائها الجدد ، لدرجة أنها لم تكن على عجلة في المغادرة ، وكنت سعيدة بلطف مضيفتي وكانت لديها فوائد التعليم حيث أنها تتفوق علي بسرعة ، ففي كل يوم بل في كل ساعة كنت أضيف إلى مخزوني البسيط في المعرفة شيئاً جديداً ، وأخذتني مضيفتي للمدينة بقدر ما تراه مناسباً ، وذات يـــوم أدخلتني إلى غرفـــة فنانة . وأرتني اللوحات لبعض أطفالها ، لم أر أية لوحة للناس الملونين من قبل . . وبدت لي جميلة .

وفي نهاية خمسة أيام ، عرضت إحدى صديقات السيدة « دورهام » مرافقتنا إلى نيويورك في الصباح التالي . وعندما أمسكت بيد مضيفتي لوداعها عانقتها ، تقت لأن أعرف ما إذا كان زوجها قد كرر

على مسامعها ما أخبرته به ، افترضت أنه قد فعل ذلك ولكنها لم تلمح بشيء واعتقد أنه كان صمتاً لائقاً بعاطفة نسوية .

وعندما أعطانا السيد « دورهام » بطاقاتنا ، قال : أخشى أن يكون ركوبكم غير مناسب ، ولكنني لم أستطع أن أشتري بطاقات لعربة الدرجة الأولى »

وظناً مني أنني لم أعطه نقوداً كافية ، عرضت عليه أكثر فقال « آه ، كلا . . لم يكن ممكناً الحصول عليها بأي نقود ، إنهم لايسمحون للناس الملونين بالذهاب في عربات الدرجة الأولى » .

كانت تلك أول رشة باردة لتعاطفي مع الولايات الحرة ، لقد كان مسموحاً للناس الملونين أن يركبوا في عربة قذرة خلف البيض ، كما في الجنوب ، ولكن هناك لم يكن يطلب منهم أن يدفعوا من أجل الامتياز ، حزنت لأن أجد كيف قلد الشماليون عادات العبودية .

حشرنا بعيداً في عربة كبيرة فظة مع نوافذ من كل جانب . عالية جداً لنا إذا ما أردنا النظر منها دون الوقوف ، كانت مكتظة بالناس ، من الواضح أنهم من كافة الأمم . وكانت هناك أسرة وأراجيح كثيرة ، تحوي أطفالاً يصرخون ويركلون ، وكان كل رجل معه سيكار أو غليون في فمه ، وأباريق الويسكي تدار هناك بحرية ، وكان الدخان والويسكي والتبغ المكثف ، كلها تؤلم أحاسيسي . وكدت أصاب بالغثيان بسبب النكات الفظة ، والأغاني السفيهة حولي . لقد كان ركوباً سيئاً جداً ، ومنذ ذلك الوقت بدأ التحسن في هذه الأمور .

* * *

٣٢
لقاء أم وابنة

عندما وصلنا نيويورك . كنت نصف مهووسة بحشود سائقي العربات الذين كانوا ينادون « عربة يا سيدتي » وساومنا مع إحدى العربات لتنقلنا إلى شارع « سوليفان » بـ ١٢ شلن . وتقدم منا رجل ايرلندي فظ قائلاً « آخذك بستة شلنات » لقد كان تخفيض السعر للنصف هدفاً لنا . وسألنا ماإذا كان ممكناً أن يأخذنا فوراً ، أجاب : « نعمْ سوف أفعل ذلك سيداتي » ولاحظت أن أصحاب العربات قد ابتسموا لبعضهم البعض واستعلمت ماإذا كان ايصاله محتشماً ، « نعم إنه محتشم يا سيدتي. سأكون شيطاناً قليلاً عندما أسعي وراء السيدات في العربة ، ألم يكن ذلك محتشماً ؟ » وأعطيناه أمتعتنا ، فتوارى ثم ظهر ثانية وهو يقول « إلى هذا الطريق من فضلكن » وتبعناه ووجدنا حقائبنا في (الكميون) ، وقلنا له إن ذلك لم يكن ما تساومنا عليه وأنه يجب أن يأخذ الصناديق بعيداً . وأقسم أنها لن تمس حتى ندفع له ستة شلنات ، وفي وضعنا لم يكن من الفطنة جلب الانتباه ، وكنت على وشك أن أدفع له ماطلب عندما أومأ رجل بقربنا ألا أفعل ذلك ، وبعد نقاش طويل تخلصنا من الرجل الايرلندي وأخذنا حقائبنا المثبتة على العربة ، لقد أوصي بنا إلى بيت داخلي في شارع « سوليفان » ومن هناك مضينا . وهناك افترقنا أنا و«فاني » تمد قدمت جمعية مناهضة العبودية منزلاً لها . وبعد ذلك سمعت أنها ذات ظروف طيبة ، .

أرسلت في طلب صديق قديم لي من منطقتي من البلاد ، والذي كان لبعض الوقت يمارس عملاً في نيويورك . وأخبرته ، وأتى على الفور ، حيث أعلمته أنني أريد الذهاب إلى ابنتي ، وطلبت منه مساعدتي في تدبير مقابلة

حذرته ألا يدع العائلة تعرف ذلك ، وأنني وصلت للتو من الجنوب . لأنهم يفترضون أنني كنت في الشمال منذ سبع سنوات ، أخبرني بوجود امرأة ماونة في « بروكلين » أتت من نفس البلدة التي أتيت منها ، وأنه يجدر بي أن أذهب إلى منزلها وأقابل ابنتي هناك ، وقبلت الاقتراح مع الشكر

ورضي بمرافقتي إلى « بروكلين » وعبرنا « فولتون » ثم وصلنا إلى جادة « ميرتل » وتوقفنا في البيت الذي ذكره . وكنت على وشك الدخول عندما مرت فتاتان ، لفت صديقي نظري إليهما . استدرت وعرفت الكبرى « سارة » ابنة المرأة التي اعتادت أن تقيم مع جدتي . ولكنها غادرت الجنوب منذ سنوات وكنت مندهشة ومسرورة بهذا اللقاء غير المتوقع فأحطتها بذراعي وسألتها عن أمها .

وقال صديقي : « ألا تلاحظين شيئاً بالنسبة للفتاة الثانية ؟» فأمعنت النظر فاذا بها ابنتي « ايلين » فضممتها إلى صدري ، ثم أبعدتها قليلاً لأتأملها ، لقد تغيرت بشكل كبير في السنتين اللتين ابتعدت فيهما عني ، وكانت علامات الإهمال واضحة بعينين أقل ملاحظة من عيني الأم .

دعانا صديقي لنذهب إلى المنزل . ولكن « ايلين » قالت إنها أرسلت في مهمة وسوف تنجزها بأسرع ما يمكن . وتعود إلى المنزل وتطلب إلى السيدة « هوبس » أن تدعها تراني . واتفقنا على أن أرسل في طلبها

في اليوم التالي ، وأسرعت رفيقتها « سارة » بابلاغ أمها عن وصولي . وعندما دخلت البيت وجدت أن سيدته غائبة ، فانتظرت عودتها . وقبل أن أراها سمعتها تقول : « أين ليندا برنت ؟ لقد عرفت والدها ووالدتها » وفوراً جاءت « سارة » مع أمها وهكذا كانت جمعتنا وكلهم من جيران جدتي ، إن هؤلاء الأصدقاء تجمعوا حولي وتحدثت معهم بشوق . وضحكوا وبكوا وصرخوا وشكروا الله على خروجي سالمة من يد مضطهدي ، ووصلت سالمة إلى « لونغ ايلاند » ، وكان يوماً مثيراً للغاية ، كم كان مختلفاً عن الأيام الصامتة التي أمضيتها في زنزانتي الموحشة

وفي الصباح التالي ، وكان يوم الأحد . كانت أفكاري المستيقظة تحتلها الملاحظة التي كنت سأرسلها إلى السيدة « هوبس » السيدة التي سكنت ايلين معها . وكان قدومي إلى المنطقة المجاورة واضحاً ، وإلا لكنت استعلمت فوراً عن ابنتي ، وليس من اللائق أن أدعهم يعرفون أنني قد وصلت للتو من الجنوب . لأن ذلك سيثير الاشتباه حول نزولي هناك ، ويمكن أن يجلب المتاعب إن لم يكن الدمار لعدة أفراد من الناس

إنني أريد منهاجاً مستقيماً ، وأنا دائماً متلكأة باللجوء إلى الحيلة ، وحتى الآن وبما أن طرقي كلها كانت خديعة . فانني أتهمهم جميعاً بالعبودية ، لقد كان ذلك النظام من العنف والخطأ بحيث لم يترك لي مجالاً إلا أن أمثل الكذب . وبدأت ملاحظتي بالقول أنني وصلت للتو من كندا ، وكنت راغبة في أن تأتي ابنتي لتراني ، وجاءت ابنتي حاملة رسالة من السيد « هوبس » يدعوني إلى منزله ويؤكد لي أنني لن أجابه مخاوف أبداً . والحديث الذي أجريته مع طفلتي لم يسترح

له عقلي . . . وعندما سألت ماإذا كانت تعامل معاملة حسنة قالت نعم ، ولكن لم تكن هناك حرارة قوية في لهجتها ، وبدا لي أنها قالت ذلك لتجنب انزعاجي بسببها ، وقبل أن تغادرني سألت بحرارة : « ياأمي ، متى ستأخذينني للعيش معك ؟ » أحزنني ألا أستطيع أن أمنحها بيتاً قبل أن أشتغل وأحصل على وسائل للعيش . وذلك يقتضي وقتاً طويلاً

وعندما وضعت « إيلين » مع السيدة « هوبس » كان الإتفاق أنها سوف ترسلها إلى المدرسة . لقد أمضت سنتين . وأصبحت الآن في التاسعة من عمرها . وهي لاتعرف الحروف تقريباً . ولم يكن هناك مبرر لهذا نظراً لوجود مدارس عامة في « بروكلين » وكان يمكن إرسالها إليها دون مصاريف

وبقيت معي حتى هبوط الظلام ، وذهبت إلى المنزل معها . واستقبلتنا العائلة بطريقة ودية واتفق الجميع على القول بأن « ايلين » كانت فتاة طيبة ومفيدة ، وبدت السيدة « هوبس » شاحبة الوجه وقالت : « أظن أنك تعرفين أن ابن عمي السيد « ساندز » قد أعطاها لابنتي الكبرى ، وستكون خادمة لطيفة لها عندما تكبر » لم أنبس ببنت شفة ، إذ كيف تستطيع هي التي عرفت بالتجربة عمق حب الأم لابنتها والتي كانت تدرك تماماً علاقة السيد « ساندز » بأطفالي ، كيف تستطيع أن تنظر في وجهي بينما هي تغرس الخنجر في قلبي

لم أعد مندهشة لاحتفاظهم بابنتي في وضع كهذا دون دراسة ، وكان السيد « هوبس » غنياً ذات يوم ، ولكنه فشل . وبعد ذلك حصل على وظيفة ثانوية في الجمارك ، ربما كانوا يتوقعون العودة إلى الجنوب ذات يوم ، وتعتبر معرفة « ايلين » كافية لأحوال العبيد ، لقد نفذ

صبري من أجل الذهاب للعمل لأكسب النقود التي يمكن أن أغير بها وضعاً مزعزعاً لأطفالي ، ثم إن السيد « ساندز » لم يحافظ على وعده بتحريرهم ، وأنا أيضاً خدعت حول مصير « ايلين » فأي ضمان لي بالنسبة « لبنيامين » ؟ وشعرت أن لاشيء لدي من هذا

وعدت إلى دار صديقتي في حال غير مستقرة ذهنياً ، ومن أجل حماية أطفالي ، كان من الضروري أن أمتلك نفسي ، وقد سميت نفسي حرة وشعرت في بعض الأحيان بذلك ، ولكنني عرفت أني لم أكن آمنة .

وجلست في تلك الليلة ، فسطرت رسالة إلى الدكتور « فلنت » طالبة إليه أن يبين الحد الأدنى الذي يطلبه من أجل بيعي ، وبما أنني — من حيث القانون — أخص ابنته،فلقد سطرت لها رسالة أيضاً طالبة نفس الطلب .

ومنذ وصولي إلى الشمال،لم أكن غافلة عن أخي العزيز «وليام» لقد قمت باستعلامات نشطة من أجله ، أما وقد سمعت عنه في بوسطن ، فلقد ذهبت إليها ولكنه كان قد ذهب إلى « نيوبدفورد » ، كتبت لذلك المكان فأخبروني أنه ذهب في رحلة صيد الحيتان ، ولن يعود قبل بضعة أشهر ، وعدت إلى نيويورك لأحصل على عمل قرب «إيلين» ، وتلقيت جواباً من الدكتور «فلنت» الذي لم يزودني بتشجيع . لقد ذكر أن من واجبي أن أعود لأقدم نفسي لمالكي الحقيقيين ، وعندئذ فان أي طلب أتقدم به ، سوف يلبى . أعرت هذه الرسالة إلى صديق لي فأضاعها وإلا لكنت قدمتها لقارئي

* * *

٣٣

الحصول على بيت

كان همي الأكبر الآن هو الحصول على عمل . لقد تحسنت صحتي بشكل كبير ، ولو أن أطرافي استمرت في ازعاجي بالانتفاخ والالتهاب عندما أمشي كثيراً . . . إن الصعوبة الكبرى التي أجابهها هي أن أولئك الذين يستخدمون الغرباء ، يطلبون توصية ، وفي وضعي الشاذ ، لم أكن لأستطيع الحصول على شهادات من العائلات التي خدمتها باخلاص شديد .

وذات يوم أخبرني أحد معارفي عن سيدة تريد مربية لطفلها ، وعلى الفور قدمت طلباً للوظيفة وأخبرتني السيدة أنها تفضل أن تكون لديها امرأة كانت أماً ، ومعتادة على العناية بالأطفال الرضع فأخبرتها أنني أشرفت على تربية طفلين لي ، ووجهت لي عدة أسئلة ولكن ولحسن حظي لم تطلب توصية من مستخدمي السابقين ، وقالت إنها امرأة انكليزية ، وكان ذلك أمراً حسناً بالنسبة لي ، لأنني سمعت أنهم أقل إجحافاً ضد الملونين من الأمريكان . واتفقنا على أن نجرب بعضنا أسبوعاً ، حيث أثبتت التجربة أنها مرضية لكلا الطرفين . والتحقت بالعمل لمدة شهر

وكان الرب السماوي رحيماً جداً بي بحيث ساقني إلى هذا المكان ، كانت السيدة « بروس » طيبة ولطيفة . وأثبتت أنها صديقة حقيقية

ومتعاطفة ، وقبل أن ينتهي الشهر المشروط . سببت الحاجة إلى الصعود والهبوط على السلم انتفاخاً في أعضائي بشكل مؤلم . حتى أنني أصبحت غير قادرة على ممارسة مهامي ، إن العديد من السيدات كان يمكن ببساطة أن يطردنني . ولكن السيدة « بروس » عملت ترتيبات تريحني من الدرج ، واستخدمت طبيباً لمعالجتي ، ولم أخبرها بعد أنني أم هاربة . وقد لاحظت أنني كنت حزينة دائماً واستعلمت عن السبب بشكل لطيف ، فتحدثت عن كوني افترقت عن أطفالي وعن أقاربهم الذين كانوا أعزاء علي ، ولكن لم أذكر الشعور المستمر حول عدم الضمان الذي أخمد معنوياتي . واشتقت لأحدهم كي أئتمنه على سري ، ولكن نظراً لأنني خدعت من قبل الناس البيض فقدت كل ثقة بهم . فاذا تحدثوا بكلمات لطيفة إلي ظننت أن ذلك يخفي هدفاً أنانياً . لقد دخلت هذه العائلة مع الشعور بعدم الثقة التي جلبتها معي من العبودية ولكن قبل مضي ستة أشهر . وجدت دوماً التصرف اللطيف من جانب السيدة « بروس » والابتسامات من جانب طفلها المحبوب ، فكان ذلك برداً وسلاماً على قلبي المرتعش ، وبدأ عقلي المحدود أيضاً في التوسع بتأثير حديثها الذكي ، وتدريجياً أصبحت أكثر نشاطاً ومرحاً ، وكانت تسمح لي بالقراءة عند فراغي من مهامي .

وقد ألقى الشعور القديم بعدم الأمان . وخاصة بالنسبة لأطفالي على الأغلب – ظلالاً قاتمة على أشعة شمسي وعرضت السيدة « بروس » بيتاً « لايلين » ، ولكن مع سروري بذلك لم أجرؤ على قبوله خشية الإساءة إلى عائلة « بروس » فمعرفتهم بحالي غير المستقرة وضعتني تحت سلطتهم . وشعرت أنه كان من المهم لي أن أظل في الجانب الصحيح منهم حتى أستطيع بقوة العمل والاقتصاد أن أؤمن منزلاً لأطفالي . كنت أبعد

ماأكون عن الرضى بوضع « ايلين » ولم يكن أحد يعتني بها بشكل جيد ، فأحياناً كانت تأتي إلى نيويورك لزيارتي ولكنها عموماً كانت تنتهي إلي برجاء من السيدة « هوبس » أن أشتري لها زوج أحذية أو قطعة من الملابس ، وكان ذلك يرافقه وعد بالدفع عندما يستحق راتب السيد هوبس الدفع ، ولكن لسبب ما أو آخر لم يحل يوم الدفع . وهكذا ، فان العديد من الدولارات التي وفرتها ، استنزفت لجعل طفلتي مكسوة براحة على أية حال كان ذلك ازعاجاً خفيفاً إذا ما قورن بالخوف من ارتباكاتهم الغريبة ، يمكن أن تغريهم ببيع ابنتي الشابة الثمينة ، وعرفت أنهم كانوا على اتصال مستمر بالجنوبيين ، ولديهم فرص متكررة ليفعلوا ذلك ، ولقد ذكرت أنه عندما وضع الدكتور « فلنت » ايلين في السجن . وكانت في الثانية من عمرها . كان هناك التهاب في عينيها سببه الحصبة . وكان هذا المرض ما يزال يزعجها . واقترحت السيدة « بروس » اللطيفة أنها يجب أن تحضر إلى نيويورك لفترة ، لتكون تحت عناية الدكتور « ايليوت » طبيب العيون المعروف ولم أر في ذلك شيئاً غير لائق في تلبية أم لذلك الطلب ، ولكن السيدة « هوبس » غضبت غضباً شديداً ورفضت أن تدعها تذهب ، وفي الوضع الذي أنا فيه لم يكن من المناسب الاصرار على ذلك . ولم أسطر أي شكوى . ولكنني تقت لأن أكون حرة تماماً لأقوم بدور الأم تجاه أطفالي . . وفي المرة الثانية ذهبت إلى بروكلين ، وأخبرتني السيدة « هوبس » وكأنما تعتذر عن غضبها أنها كلفت طبيبها الخاص بمعالجة عيني « ايلين » وأنها رفضت طلبي لأنها لم تعتبر ايداعها في نيويورك شيئاً أميناً . قبلت الشرح في صمت ولكنها أخبرتني أن طفلتي تخص ابنتها . واشتبهت أن دافعها

الحقيقي كان خوفاً من أخذ ممتلكاتها بعيداً عنها ، ربما أجحفت بحقها ، على أن معرفتي بالجنوبيين جعلت من الصعب علي أن أشعر خلاف ذلك .

لقد امتزجت الحلاوة والمرارة في كأس حياتي ، وكم كنت شاكرة لأنها لم تكن المرارة فقط ، أحببت طفلة السيدة « بروس » عندما كانت تضحك وتصيح في وجهي وتحيط ذراعيها الرقيقتين حول عنقي ، وذلك جعلني أفكر في الوقت الذي كان فيه « بني » و « ايلين » طفلين ، وقلبي الجريح كان يهدأ . . . وذات صباح جميل بينما وقفت قرب النافذة والطفلة بين ذراعي ، لفت انتباهي رجل شاب في ملابس بحار كان يراقب كل بيت عن كثب . نظرت إليه بحرارة ، أيمكن أن يكون أخي وليام ؟ لاشك أنه هو . ومع ذلك كيف تغير ؟ وضعت الطفلة بهدوء وذهبت إلى الطابق السفلي ، وفتحت الباب الأمامي وأشرت إلى البحار ، وفي أقل من دقيقة كنت أعانق أخي .

ماأكثر الأشياء التي كانت لدينا لنرويها لبعضنا البعض . كيف ضحكنا وكيف بكينا على مغامرات كلينا أخذته إلى بروكلين وأريته « ايلين » الطفلة العزيزة التي أحبها واعتنى بها عندما كنت سجينة في زنزانتي الموحشة . . . ومكث في نيويورك أسبوعاً . إن مشاعره القديمة في المحبة لي ولايلين كانت كما هي . ليست هناك روابط أقوى من تلك التي تضمها المعاناة إلى بعضها

* * *

٣٤

العدو القديم مرة اخرى

لم تبعث سيدتي الشابة الآنسة « ايملي فلنت » بأي جواب على رسالتي التي توسلت فيها أن تقبل كوني مباعة . ولكن بعد فترة . تلقيت جواباً يظهر أن أخاها الأصغر قد كتبه . ومن أجل أن تتمتع تماماً بمحتوى هذه الرسالة ، فان القارىء يجب أن يحمل في ذهنه أن عائلة « فلنت » افترضت أني في الشمال لعدة سنوات ، ولم تكن لديها فكرة أنني عرفت برحلات الدكتور الثلاث القصيرة إلى نيويورك بحثاً عني ، وأنني سمعت صوته عندما جاء ليقترض خمسمائة دولار لهذا الغرض . وأنني رأيته يمر في طريقه إلى القارب البخاري وكذلك لم يكونوا واعين أن كافة تفاصيل موت ودفن خالتي « نانسي » قد وصلت إلي وقت حدوثها ، لقد حفظت الرسالة التي ألخصها فيما يلي :

« رسالتك إلى شقيقتي وصلت منذ أيام قليلة ، استنتجت منها أنك راغبة في العودة إلى موطنك بين أصدقائك وأقربائك ، لقد كنا كلنا ممتنين بمحتويات رسالتك ، ودعيني أؤكد لك أنه إذا كانت لدى أي فرد في العائلة مشاعر غضب نحوك ، فانهم لم يعودوا يشعرون بذلك ، وأننا كلنا نتعاطف معك في حالتك المؤسفة ، ومستعدين لأن نفعل ما في وسعنا لنجعلك راضية سعيدة ، من الصعب عليك أن تعودي إلى الوطن كشخص حر . فلو تم شراؤك من قبل جدتك . فمن المشكوك فيه ما إذا كان يسمح لك بالبقاء ، مع أنه سيكون شيئاً قانونياً لك أن تفعلي ذلك ،

فاذا سمح لخادمة بشراء نفسها بعد أن تغيبت هذه الفترة الطويلة عن مالكيها ، لتعود حرة ، فان ذلك سيكون له تأثير جارح . من رسالتك أستنتج أن حالتك صعبة وغير مريحة ، عودي إلى الوطن ، إن ذلك في مقدورك لترجعي إلى محبتنا ، سوف نتلقاك بأذرع مفتوحة ، وبدموع الفرح ، لا تخشي أي معاملة غير لطيفة ، لأننا لم نتزعج أو نصرف شيئاً للحصول عليك ولو كنا فعلنا ذلك لكان شعورنا مختلفاً ، أنت تعرفين أن شقيقتي كانت دائماً متعلقة بك ، وأنك لم تعاملي كأمة ، ولم توصفي للعمل الصعب أبداً ، ولا أجبرت على العمل في الحقل ، بل على العكس أخذت إلى البيت . وعوملت كواحد منا وعلى الأغلب كحرة ، ونحن على الأقل شعرنا أنك كنت أكبر من أن تخزي نفسك بالهرب ، لقد دفعني اعتقادي أنك يمكن أن تكوني مقتنعة بالرجوع إلى الوطن طواعية ، إلى الكتابة إليك نيابة عن شقيقتي ، ستسر العائلة برؤيتك ، وقد أعربت جدتك العجوز المسكينة عن رغبتها الكبيرة في عودتك عندما سمعت رسالتك . في آخر أيامها تحتاج إلى التسلية لوجود أطفالها حولها . . . دون شك سمعت بوفاة خالتك ، لقد كانت خادمة أمينة وعضواً مخلصاً في الكنيسة الأسقفية ، وفي حياتها المسيحية علمتنا كيف نعيش ـــ آه ما أفدح سعر المعرفة ، علمتنا كيف نموت ، لو استطعت أن ترينا حول فراش موتها مع أمها ، لقد اختلطت دموعنا جميعاً في جدول عـــام واحد ، إذن لاعتقدت بنفس الرابطة القلبية التي تجمع السيد وخادمه ، كتلك التي بين الأم وطفلها ، ولكن هذا الموضوع مؤلم جداً ، وينبغي أن أنهي رسالتي . إذا كنت مقتنعة بأن تبقي بعيدة عن جدتك العجوز ، وطفلك والأصدقاء الذين يحبونك ، فابقي حيث أنت ، سوف لا نجسم أنفسنا عناء ملاحقتك ، ولكن لو فضلت العودة إلى

الوطن . فسنفعل كل ما في وسعنا لنجعلك سعيدة ، وإذا لم ترغبي أن تظلي في العائلة ، فأنا أعرف أن والدي إذا ما أغريناه سوف نستحثه على بيعك لأي شخص تختارينه من طائفتنا ، يرجى الجواب على هذا بأسرع ما يمكن ، دعينا نعرف قرارك . شقيقتي تبعث إليك بالحب الكبير ، وفي أثناء ذلك ثقي بي كصديق مخلص يريد لك الخير » .

وقد وقع الرسالة شقيق « ايملي » الذي كان مجرد فتى . وعرفت من الأسلوب أنها لم تكتب من قبل شخص في مثل سنه . ومع أن الكتابة مقنعة ، إلا أنني شقيت بسببها ، خلال السنوات السابقة . ألا أعرف يد الدكتور « فلنت » ؟ آه من نفاق مالكي العبيد . هل ظن الثعلب العجوز أنني كنت إوزة ؟ حتى أذهب إلى هذه المصيدة ؟ في الحق أنه اعتمد كثيراً على « غباء العرق الافريقي ». أنا لم أرد لعائلة « فلنت » أي شكر لدعوتهم الودية . وهذا إهمال سوف أتهم به لأنني ناكرة الجميل بشكل معيب .

ولم يمض وقت طويل حتى تلقيت رسالة من أحد أصدقائي في الجنوب ، يعلمني أن الدكتور سوف يزور الشمال ، إن الرسالة تأخرت وافترضت أنه يمكن أن يكون في الطريق ، والسيدة « بروس » لم تعلم أين كنت هاربة. لقد أخبرتها أن عملاً هاماً دعاني إلى بوسطن حيث أخي موجود هناك ، وطلبت السماح بجلب صديقة تحل محلي كمربية لفترة أسبوعين ، وبدأت رحلتي فوراً. وحالما وصلت كتبت إلى جدتي أنه اذا ما جاء « بني » فيجب إرساله إلى بوسطن . عرفت أنها كانت تنتظر فرصة طيبة لإرساله إلى الشمال . . ولحسن الحظ فان لديها الصلاحية القانونية لأن تفعل ذلك دون طلب الأذن من أي شخص . . لقد

كانت امرأة حرة ، وعندما تم شراء أطفالي فضل السيد « ساندز » أن تكون وثيقة البيع باسم جدتي ، ويقول حدسي أنه سلف المال ولكن لم يكن ذلك معروفاً وفي الجنوب يحق للسيد أن يقتني فوجاً من الأطفال الملونين دون أن يكون هناك خزي ، ولكن لو عرف بأنه اشتراهم بقصد إطلاقهم كأحرار . فان المثال يبدو خطراً « لمجتمعهم الشاذ » ويصبح هو غير محبوب .

كانت هنالك فرصة طيبة لإرسال « بني » في باخرة قادمة إلى نيويورك فوراً . . . فوضع « بني » على ظهر الباخرة مع رسالة إلى صديق، وطلب إليه أن يودعه في بوسطن . وذات صباح باكر ، كان هناك طرق عنيف على بابي . واندفع « بنيامين » يلهث قائلاً : « آه ياأمي . . ها أنذا، ركضت طيلة الطريق وأتيت بمفردي كيف حالك ؟ » .

آه ياقارئي ، أتستطيع أن تتصور سروري ؟ كلا إنك لن تستطيع مالم تكن أماً أمة ، لقد ثرثر « بنيامين » بقدر ما يستطيع لسانه أن يلفظ ، وقال : « ياأمي ، لماذا لا تحضرين « ايلين » إلى هنا ؟ » وأجبته « لقد ذهبت إلى بروكلين لأراها ، وشعرت بالألم عندما ودعتها ، حيث قالت: آه يابن أود لو أذهب أيضاً » ظننت أنها تعرف بهذا القدر ، ولكنها لا تعرف قدر ما أعرف . لأنني أستطيع القراءة بينما هي لا تستطيع ذلك » قال « بني »: « فقدت كل ثيابي ياأمي عندما أتيت ، ماذا أصنع لأحصل على ملابس أكثر ؟ أعتقد أن الأولاد الأحرار يستطيعون أن يسايروا هنا في الشمال الأولاد البيض »

لم أكن أريد أن أخبر الشخص الصغير السعيد المتفائل . كم كان مخطئاً . أخذته إلى خياط . واشتريت له بديلاً لملابسه ، وأمضينا سحابة

النهار في أسئلة وأجوبة متبادلة نتمنى بصورة مستمرة لو كانت الجدة العجوز الطيبة معنا ، وكان بني يكرر بضرورة أن أكتب إليها حالاً والتأكيد على إعلامها بكل شيء حول رحلته وسفره إلى بوسطن .

وقد قام الدكتور « فلنت » بزيارة نيويورك . وبذل كل جهد ليراني ويدعوني للعودة معه . ولكن باعتباره غير قادر على التأكد من أنني موجودة في مكاني ، فان نواياه الكريمة تعطلت . والعائلة الودودة التي كانت تنتظرني « بأذرع مفتوحة » أصابتها الخيبة .

وحالما عرفت أنه قد عاد سالماً إلى الوطن ، وضعت « بنيامين » في رعاية أخي « وليام » وعدت إلى السيدة « بروس » وبقيت هناك طيلة الشتاء والربيع جاهدة في إنجاز مهامي باخلاص أشعر بسعادة كبيرة في حب الطفلة « ماري » واللطف المتزايد من جانب أمها الرائعة والمقابلات العرضية مع ابنتي الحبيبة .

على أنه عند قدوم الصيف راودني الشعور القديم بعدم الأمان ، وكان من الضروري لي أن آخذ « ماري » الصغيرة إلى الخارج يومياً للرياضة والاستمتاع بالهواء الطلق ، وكانت المدينة تعج بالجنوبيين الذين يعرفني بعضهم ، وقد جلب الطقس الحار معه الأفاعي ومالكي العبيد ، وأنا أحب طبقة واحدة من هذه المخلوقات السامة بقدر ما أشعر قليلاً بالآخرين ، أي راحة هذه ، أن أكون حرة في قول ذلك ؟ .

* * *

٣٥

الاجحاف ضد الملونين

لقد كان راحة لذهني أن أشهد التحضير لمغادرة المدينة ، ذهبنا إلى (الباني) في قارب بخاري وعندما دق جرس الشاي قالت السيدة « بروس » : ليندا ؛ إنه وقت متأخر ، ويجدر بك أنت والطفلة أن أن تأتيا إلى الطاولة معي » أجبت : « أعرف أنه حان وقت عشاء الطفلة ، ولكن يجدر بي ألا أذهب معك لو سمحت ، أخشى أن أشتم » قالت : « آه كلا ، إنك معي » ورأيت مربيات بيضاوات كثيرات يذهبن مع سيداتهن ، وجازفت بالقيام بذلك . كنا في أقصى طرف من الطاولة ، ولم أكد أجلس حتى سمعت صوتاً أجش يقول « إنهضي ، أنت تعلمين أن من غير المسموح لك الجلوس هنا » ونظرت ولدهشتي وسخطي رأيت أن المتكلم كان رجلاً ملوناً ، وإذا كان مركزه يجبره على أن يطبق قوانين القارب الداخلية ، فيمكنه أن يفعل ذلك على الأقل بصورة مؤدبة » أجبته : « سوف لا أنهض مالم يأت الربان ويجبرني على ذلك». لم يقدم لي حتى ولا كأساً من الشاي ، ولكن السيدة « بروس» ناولتني كأسها وطلبت أخرى ، ونظرت لأرى ما إذا كانت المربيات الأخريات عوملن بنفس الطريقة ، لكنهن خدمن بشكل لائق .

وفي الصباح التالي ، توقفنا في (تروي) للفطور ، واندفع كل شخص إلى الطاولة ، فقالت السيدة « بروس»: « امسكي ذراعي ياليندا،

وسنذهب معاً » وسمعها السيد فقال « أيتها السيدة ، هل تسمحين للمربية والطفلة أن تأخذا الفطور مع عائلتي ؟ » عرفت أن ذلك كان مبعثه لون بشرتي ، ولكنه تكلم بلطف ولذلك لم أهتم .

وفي « مساراتوغا » وجدنا فندق الولايات المتحدة مزدحماً . وأخذت السيدة « بروس » أحد الأكواخ الصغيرة الخاصة بالفندق ، وفكرت بسرور بالذهاب إلى الريف حيث الهدوء . وحيث أقابل القليل من الناس . ولكن هنا أجد نفسي في وسط سرب من الجنوبيين . نظرت حولي بخوف وارتجاف خشية أن أرى أحدهم ممن يعرفني ، وسرني أننا سوف نمكث فترة قصيرة فقط .

وعدنا فوراً إلى نيويورك لعمل الترتيبات من أجل قضاء ما تبقى من الصيف في (روك اوي) وبينما كانت الغسالة تضع الثياب بشكل مرتب ، اغتنمت الفرصة لأذهب إلى بروكلين لرؤية « ايلين » .

ووجدتها ذهبة إلى البقال . وكانت الكلمات الأولى التي تفوهت بها هي « آه ياأمي ، لا تذهبي إلى بيت السيد « هوبس » إن أخاها السيد « ثورن » حضر من الجنوب ، وربما يخبر أين أنت » وقبلت التحذير وقلت لها أنني كنت سأذهب في اليوم التالي مع السيدة « بروس » وأنني سأحاول أن أراها عندما أعود .

ولما كنت في عبودية العرق الانكلو — سكسوني — فانني لم أصعد إلى عربة جيم كراو(*) في طريقنا إلى (روك أوي) . ولا دعيت لأركب خلال الشوارع على الصناديق في كميون . ولكن في كل مكان

(*) كان هذا مكاناً للسود فقط — شكل عام منتشر للتمييز العنصري .

وجدت نفس الأسلوب الذلك الاجحاف القاسي الذي يثبط المشاعر ويخمد طاقات الناس الملونين .

وصلنا إلى (روك اوي) قبل حلول الظلام ، واستقرينا بـ (بافليون) وهو فندق كبير يقع بشكل جميل إلى جانب البحر كأنه مصيف عظيم في العالم الحديث . . . وكانت هناك ثلاثون أو أربعون مربية من مختلف الأمم ، وبعض السيدات كانت لهن خادمات ملونات ، وسائقو عربات ، ولكنني كنت المربية الوحيدة المشوبة بدم افريقيا ، وعندما دق جرس الشاي ، أخذت ماري الصغيرة وتبعت المربيات الأخريات ، وقدم العشاء في قاعة طويلة ، ثم أخذني رجل شاب يتولى إعطاء الأوامر في دورة أو دورتين حول الطاولة وأخيراً أشار لي بأن أجلس في الطرف المنخفض منها ، ولأنه لا يوجد سوى كرسي واحد فقط فقد جلست وأخذت الطفلة في حجري ، حيث أتى الرجل الشاب قائلاً بلهجة مهذبة قدر الامكان « هل تجلسين الطفلة الصغيرة على الكرسي ، وتقفين خلفها كي تطعمينها ؟ وبعد أن ينتهوا سوف تساقين إلى المطبخ لكي تتناولي عشاءً فاخراً »

لقد كان ذلك هو الذروة ، ووجدت من الصعب علي ضبط نفسي ، عندما نظرت حولي فرأيت النسوة اللواتي كن مربيات مثلي ، وربما كن ألطف قليلاً من حيث البشرة ، يرمقنني بنظرات تحد ، وكأنما كان وجودي شيئاً ملوثاً ، على كل حال ، لم أقل شيئاً . . . بل أخذت الطفلة بين ذراعي بهدوء وذهبت إلى غرفتنا ، وقد رفضت الذهاب إلى المائدة مرة أخرى . . . وأمر السيد « بروس » بالطعام أن يرسل إلى الغرفة للطفلة الصغيرة ماري ولي أيضاً ، وقد استمر هذا لبضعة أيام ولكن

خدم المؤسسة كانوا بيضاً وقد بدأوا فوراً بالشكوى . قائلين إنهم لم يستأجروا الخدمة الزنوج ، وتوسل السيد إلى السيد « بروس » أن يبعث بي إلى الاسفل لإطعامي ، لأن خدمه ثاروا ضد إحضار الطعام ، وإلى الأعلى والخدم الملونون للضيوف الداخليين كانوا غير راضين ، لأنهم لم يكونوا كلهم يعاملون سواء

وكان جوابي أن الخدم الملونين ينبغي أن يكونوا غير راضين عن أنفسهم ، بسبب انعدام احترام الذات بشكل متزايد . فيخضعوا لمثل هذه المعاملة ، حتى أنه لم يكن هناك فرق في السعر والطعام للخدم الملونين والبيض ، ولم يكن هناك مبرر للتفريق في المعاملة ، ومكثت شهراً بعد ذلك ، وباعتبارهم وجدوا أنني مصممة على الدفاع عن حقوقي فقد بدأوا في معاملتي بشكل جيد .

فليفعل كل رجل ملون أو امرأة ملونة مثل ذلك ، وتكون النتيجة أن يكف مضطهدونا عن دوسنا بأقدامهم .

* * *

٣٦

الهروب لمسافة قصيرة

بعد أن عدنا إلى نيويورك ، اغتنمت أول فرصة فذهبت لرؤية «ايلين» ، وطلبت منها أن تنزل إلى أسفل المبنى ، لأنني افترضت أن شقيق السيدة « هوبس » الجنوبي ، يمكن أن يكون مايزال هناك ، وكنت راغبة في تجنب رؤيته إذا أمكن ذلك . ولكن السيدة « هوبس » أتت إلى المطبخ وأصرت على ذهابي إلى الطابق العلوي قائلة : « إن أخي يريد أن يراك ، وهو آسف لأنك تتجنبينه ، ويعرف أنك تقيمين في نيويورك وقد قال لي أن أخبرك أنه مدين بالشكر إلى الخالة اللطيفة العجوز « مارتا» لعدة أفعال صغيرة وحميدة قدمت له ولن يكون نذلاً بحيث ينحون حفيدتها »

لقد أصبح هذا السيد « ثورن » فقيراً ومتهوراً قبل أن يغادر الجنوب بوقت طويل ، إن مثل هؤلاء الأشخاص على الأغلب يذهبون إلى أحد العبيد العجائز المخلصين ليقترض دولاراً ، أو يحصل على غذاء جيد بدلاً من أن يذهب إلى شخص يعتبره مساوياً له ، لقد جعلته أفعال اللطف هذه يعترف بشعوره بالامتنان لجدتي وددت لو أنه كان بعيداً ، ولكن بما أنه كان هنا وعرف مكان وجودي ، استنتجت أنه لن يكون هناك أي نفع في تجنبه ، بل على العكس يمكن أن يكون وسيلة لاستثارة نيته الوضيعة ، تبعت شقيقته إلى الطابق العلوي ، حيث قابلني بطريقة ودية جداً ، وهنأني

على الهرب من العبودية ، وأبدى الأمل في أن يكون لدي مكان جيد أشعر بالسعادة فيه

واستمريت في زيارة « ايلين » بقدر ما أستطيع ، وهي الطفلة ذات الأفكار الجيدة ، لم تنس حالتي الخطرة ولكنها كانت دائماً تحتفظ بترقب حذر لسلامتي ، لم تقدم أية شكوى حول مضايقاتها ومتاعبها.. ولكن عين الأم الملاحظة ، تدرك بسهولة أنها لم تكن سعيدة . . . وبمناسبة إحدى زياراتي ، وجدتها جدية بشكل غير عادي ، وعندما استفسرت منها عن المسألة قالت أنه ليس هناك شيء ، ولكنني أصريت عليها لمعرفة سبب كآبتها الشديدة . . . تأكدت أنها شعرت بالمتاعب حول التهديد الذي كان يجري بصورة مستمرة في البيت ، وكانت تذهب غالباً من أجل شراء (الروم) و (البراندي) وكانت تشعر بالخجل عند طلبهما دائماً ، وقالت أن السيد « هوبس » والسيد « ثورن » شربا مقداراً كبيراً وكانت أيديهما ترتجف ، فيناديان عليها لتصب الشراب لهما ، وقالت: «ومع ذلك فالسيد « هوبس » لطيف معي ولا أستطيع إلا أن أحترمه، وأنا أشعر بالأسف من أجله » وحاولت أن أريحها بأن ذكرت لها بأني قد وفرت مائة دولار ، وأنه قبل مضي وقت طويل آمل أن أصبح قادرة على إعطائها وبنيامين منزلاً ، وأرسلهما إلى المدرسة ، لقد كانت ترغب دائماً في ألا تزيد من متاعبي ، وأنا لم أكتشف حتى بعد سنوات من ذلك أن ادمان السيد « ثورن » لم يكن الشيء الوحيد المزعج لها ، مع أنه اعترف بالكثير من الشكر لجدتي بحيث لا يؤذي أياً من ذريتها ، إلا أنه كان يصب لغة سافلة في أذن حفيدتها البريئة .

وكان من عادتي أن أذهب إلى « بروكلين » لقضاء بعد ظهر الأحد، وذات أحد وجدت « ايلين » تنتظرني بقلق قرب البيت ، وقالت : «آه

يا أمي ، كنت أنتظرك كل هذا الوقت الطويل . إنني أخشى أن يكون السيد « ثورن » قد كتب يخبر الدكتور « فلنت » عن مكان وجودك ، أسرعي وادخلي ، وسوف تخبرك السيدة هوبس بكل شيء حول ذلك » .

وفوراً أخبرتني بالقصة ، فبينما كان الأطفال يلعبون تحت عريشة الكرمة ، جاء السيد « ثورن » وبيده رسالة مزقها ونثرها ، وكانت« ايلين » تنظف الباحة في ذلك الوقت ، وذهنها مليئاً بالشكوك منه والتقطت قطع الورق وحملتها إلى الأطفال قائلة : « أتساءل إلى من كتب السيد ثورن الرسالة ؟ »

أجابها أكبر الأطفال « أنا متأكد من أنني لا أعرف ولا يهمني ذلك . ولا أرى كيف يهمك ذلك » .

أجابته « ايلين » : « ولكنه يهمني ، لأنني أخشى أنه كان يكتب إلى الجنوب عن أمي »

فضحكوا منها ووصفوها بالبليدة ،ولكن طبيعتها الجيدة رتبت القطع الممزقة والمكتوبة معاً لتقرأ حالاً ولم يكد يتم ذلك حتى صرخت الطفلة الصغيرة : « أعتقد يا ايلين أنك على صواب » .

لقد كانت محتويات رسالة السيد« ثورن » بقدر ما أستطيع التذكر كما يلي : « لقد رأيت أمتك ليندا وتحادثت معها ، ويمكن الحصول عليها بسهولة إذا مارتبت الأمور بذكاء ، إذ يوجد هنا أناس بما فيه الكفاية للقسم بأنها ملك لك ، إنني وطني ، ومحب لبلادي ، وأفعل ذلك كعمل من عدالة القانون » وأنهى الرسالة باعلام الدكتور عن الشارع والرقم حيث أسكن .

وحمل الأطفال القطع إلى السيدة « هوبس » التي توجهت فوراً إلى غرفة أخيها طالبة التفسير ، لم يكن موجوداً ، وقالت الخادم أنها رأته يذهب ومعه رسالة ، ويفترض أنه ذهب إلى دار البريد .

وكان الاستنتاج الطبيعي أنه أرسل نسخة إلى الدكتور « فلنت » من هذه القطع ، وعندما عاد اتهمته شقيقته بذلك . ولم ينكر التهمة ،وذهب فوراً إلى غرفته ، وفي الصباح التالي اختفى أثره . لقد ذهب إلى نيويورك قبل أن يستيقظ أحد من أفراد العائلة

وكان من الواضح أنه ليس لدي وقت أضيعه . وأسرعت إلى المدينة بقلب مثقل ، كنت سأطرد مرة ثانية من بيت مريح ، وكادت كافة خططي لرفاه أطفالي تصبح مهددة بتلك العبودية اللعينة ، وأسفت هذه المرة لأنني لم أخبر السيدة « بروس » بقضيتي ، لم أخف ذلك لكوني هاربة فقط ، فذلك كان سيجعلها قلقة . ولكن كان يمكن أن يثير في قلبها الحنون العاطفة ، قيّمت رأيها الطيب وكنت خائفة من فقده فيما لو أخبرتها بكل تفاصيل قصتي الحزينة . . . ولكن شعرت الآن أنه كان من الضروري لها أن تعلم وضعي ، لقد تركتها مرة بشكل غير متوقع دون أن أشرح السبب ، وليس من اللائق أن أفعل ذلك مرة أخرى... وذهبت إلى المنزل وأنا مصممة على إعلامها في الصباح ، ولكن وجهي الحزين لفت انتباهها ، وجواباً على استعلاماتها الطيبة ، سكبت مافي قلبي لها قبل النوم ، وقد أصغت إلي بعاطفة نسوية حقيقية ، وأخبرتني أنها ستفعل مابوسعها لحمايتي ، باركها قلبي

في الصباح التالي ، تمت استشارة القاضي « فاندربول » والمحامي «هوبر » وقالا إنه يجدر بي أن أغادر المدينة فوراً ، لأن المجازفة تكون

كبيرة إذا ما أثيرت الدعوى أمام المحكمة، وأخذتني السيدة « بروس» في عربة إلى بيت أحد أصدقائها ، حيث أكدت لي بأنني سأكون في أمان حتى يمكن أن يصل أخي وكان يستلزم وصوله أياماً قليلة.وفي هذه الفترة ، شغلت أفكاري كثيراً « بايلين » وكانت تعتبر لي بالولادة وبموجب القانون الجنوبي، لأن جدتي تحمل وثيقة البيع التي جعلتها كذلك، ولم أشعر أنها في مأمن مالم آخذها معي . وانصاعت السيدة «هوبس» التي شعرت بسوء من خيانة أخيها لتوسلاتي ، على أن أعود في مدى عشرة أيام ، وتجنبت بذل أي وعد ، وأتت إلي مكسوة بثياب رقيقة وحقيبتها على ذراعيها فيها بعض الحوائج ، كان ذلك في أواخر تشرين الأول وخلعت تنورتي « الفانيلة» وعدلتها بحيث تصبح على مقاسها ، وأتت السيدة الطيبة « بروس » لوداعي وعندما رأت أنني خلعت كل ملابسي من أجل طفلتي ، طفحت عيناها بالدموع وقالت : « انتظريني يا ليندا» وذهبت ثم عادت فوراً وهي تحمل شالاً دافئاً ومعطفاً لإيلين ، وفي الحق إن روحاً مثل روحها تعادل مملكة السماء

وصل أخي إلى نيويورك يوم الأربعاء ، وأعلمنا المحامي « هوبر » أن نذهب إلى بوسطن بطريق « ستوننغتون » لأنه كان هناك القليل من المسافرين الجنوبيين ، وأعطت السيدة « بروس » تعليماتها لخدمها أن يخبّروا المستفسرين أنني سكنت هناك سابقاً ، ولكنني فيما بعد رحلت عن المدينة

وصلنا إلى القارب البخاري (رودايلاند) بسلام ، ويستخدم ذلك القارب أيدي ملونة ، ولكنني عرفت أن الركاب الملونين لم يكن يسمح لهم بالجلوس في الغرفة ، وكنت راغبة في عزلة الغرفة ليس فقط بسبب

التعرض إلى هواء الليل ، ولكن لتجنب الملاحظة أيضاً . . . وكان المحامي «هوبر» ينتظر على ظهر القارب من أجلنا ، وتحدث مع المضيفة طالباً إليها كمعروف خاص أن تعاملنا جيداً وقال لي : « اذهبي إلى الربان، وتحدثي إليه بنفسك شيئاً فشيئاً ، خذي ابنتك الصغيرة معك ، وأنا متأكد أنه لن يدعها تنام على ظهر المركب . وبهذه الكلمات اللطيفة وبعد مصافحة الأيدي ذهب

وعلى الفور كان القارب في طريقه يحملني بسرعة من المنزل الودي ، حيث كنت أجد الأمان والراحة

وغادرني أخي لشراء البطاقات ظناً منه أنه يمكن أن يكون حظي أفضل في النجاح . وعندما أتت المضيفة إلي دفعت لها ما طلبت وأعطتني ثلاث تذاكر ذات زوايا مثقوبة ، وبأسلوب شديد البعد عن المغالطة قلت : « لقد ارتكبت خطأ طلبت إليك تذاكر غرفة ، أنا لا يمكن أن أرضى بالنوم على ظهر المركب مع ابنتي الصغيرة » فأكدت لي أنه لم يكن هناك خطأ ، وقالت أنه في بعض الطرق كان يسمح للناس الملونين بالنوم في الغرف ، ولكن ليس في هذا الطريق ، الذي يسافر فيه الأغنياء ، وسألتها أن تريني مكتب الربان ، قالت أنها سوف تفعل ذلك بعد موعد أخذ الشاي وعندما حان الوقت ، أخذت بيد ابنتي « ايلين » وذهبت إلى الربان بأدب طالبة إليه تبديل تذاكرنا ، لأننا سوف نكون غير مرتاحتين أبداً على ظهر المركب ، قال إن ذلك كان خلافاً لعادتهم ، ولكنه سوف يرى ربما يكون لنا مضجع في الأسفل . وسوف يحاول أيضاً الحصول على مقاعد مريحة لنا في العربات ، ولكنه لم يكن متأكداً حول ذلك وهو سوف يتحدث إلى المرشد عندما يصل القارب . وشكرته وعدت إلى

غرفة السيدات . وجاء بعد ذلك وأخبرني أن مرشد السيارات كان على ظهر المركب وأنه تحدث إليه ووعده بالإعتناء بنا ، وفوجئت كثيراً لتلقي مثل هذا اللطف الزائد ، ولا أعرف ما إذا كان وجه ابنتي الصبوح قد اجتذب قلبه ، أم أن المضيفة استنتجت من أسلوب المحامي « هوبر » أنني كنت هاربة وتوسلت إليه نيابة عني

وعندما وصل القارب إلى ستونغتون ، حافظ المرشد عـلى وعده ، وأخذنا إلى مقاعد في العربة الأولى قرب المحرك ، وطلب إلينا الجلوس مباشرة بعد الباب ، ولكنه حالما مر ، جازفنا بالتحرك إلى الأمام في الطرف الآخر من العربة . ولم نجابه بأي سوء ووصلنا بوسطن بسلام .

وبعد وصولي بيوم وكان أحد أسعد أيام حياتي ، شعرت وكأنما كنت أبعد عن متناول كلاب الدم ، وللمرة الأولى خلال سنين عديدة كنت أضم طفليّ كليهما معاً ، وهما يتمتعان كثيراً بالتحامهما ،وضحكنا وثرثرنا بمرح ، وراقبتهما بقلب منفتح . وكانت كل حركة منهما مبعث سرور لي

ولم أستطع الشعور بالأمان في نيويورك ، وقبلت عرض صديقة أن أشاركها المصروف ونحتفظ بالبيت معاً. وعرضت على السيدة «هوبس» وجوب ذهاب « إيلين » إلى المدرسة ، وأن تبقى معي لهذا الغرض ،إذ أنها كانت تشعر بالخجل لكونها غير قادرة على القراءة أو التهجئة وهي في تلك السن ، وهكذا بدلاً من إرسالها مع (بني) إلى المدرسة دربتها بنفسي حيث أصبحت لائقة لدخول مدرسة متوسطة ، ومر الشتاء بشكل بهيج وأنا مشغولة بابرتي وطفلاي مشغولان بكتبهما

* *

٣٧

زيارة الى لنـــدن

وردتنا في الربيع أنباء محزنة ، لقد توفيت السيدة « بروس » ، لن أرى وجهها النيّر مرة ثانية في هذا العالم ؛ ولن أسمع صوتها المتعاطف ، لقد فقدت صديقة ممتازة ؛ بينما فقدت ماري الصغيرة أماً رقيقة.ورغب السيد « بروس » للطفلة أن تزور بعض أقارب أمها في انكلترا ، وأن أكون مسؤولة عنها ، ذلك أن الطفلة التي فقدت أمها تعودت علي وتعلقت بي ، وفكرت في أنها ستكون أسعد في عنايتي من كونها مع امرأة أخرى غريبة ، واستطعت أيضاً أن أحصل على مال أكثر مماكانت تمدني به إبرتي ، وهكذا ، وضعت « بني » ليتعلم مهنة وغادرت ايلين لتبقىفي البيت مع صديقتي وتذهب إلى المدرسة

وأبحرنا من نيويورك ، وبعد رحلةبهيجة استمرت اثني عشر يوماً. . وصلنا إلى ليفربول وتوجهنا مباشرة إلى لندن حيث حجزنا في فندق أديليد ، وبدا لي العشاء أقل رفاهية مما كنت قد شاهدته في الفنادق الامريكية ، ولكن حاليكان لا يوصف من السعادة المتزايدة ؛ فللمرة الأولى في حياتي وجدت نفسي في مكان عوملت فيه بشكل لائق دون الإشارة إلى بشرتي ، وشعرت وكأنما حجر الرحى الكبير قد أزيح عن صدري وكنت مستلقية على فراشي في غرفة بهيجة مع الصغيرة التي في عهدتي ، حيث وضعت رأسي على الوسادة ، وللمرة الأولى في حياتي نتابني شعور مفرح من الحرية الخالصة غير المزيفة .

وبما أنني كنت في رعاية مستمرة للطفلة ، فقد كانت لدي فرصة ضئيلة لرؤية عجائب تلك المدينة ، ولكنني راقبت مد الحياة التي كانت تنساب خلال الشوارع ، ووجدتها مغايرة بصورة غريبة للخمود في بلادنا الجنوبية ، وأخذ السيد « بروس » ابنته الصغيرة لتقضي بضعة أيام مع الأصدقاء في « اوكسفورد كريسنت » وبالطبع كان من الضروري لي أن أرافقها ، لقد سمعت الكثير عن الأسلوب النظامي للتعليم الانكليزي ، وكنت راغبة أن تسير عزيزتي ماري الصغيرة بصورة مستقيمة ، وسط الكثير من آداب المجتمع ، وراقبت عن كثب رفيقاتها الصغيرات ومربياتهن وهن جاهزات لأخذ دروس في علم الادارة الجيدة ، وكان الأطفال أكثر ودية من الأطفال الأمريكان ، ولكنني لم أجد أي اختلاف مادي بينهم في مجالات أخرى ، وكانوا مثل باقي الأطفال أحياناً سلسي القياد وأحياناً أخرى متمردين

وذهبنا بعد ذلك إلى ستفنسون في يركشاير التي كانت صغيرة ، ويقال أنها الأفقر في المقاطعة ، ورأيت رجالاً يعملون في الحقول مقابل ستة شلنات وسبعة شلنات في الأسبوع والنساء مقابل ستة بنسات وسبعة بنسات في اليوم ، ويتناولن طعامهن منها ، وبالطبع كن يعشن بأسلوب بدائي تماماً ولا يمكن أن يكون خلاف ذلك حيث أن أجور المرأة ليوم كامل لم تكن كافية لشراء رطل من اللحم ، وكن يدفعن إيجارات منخفضة جداً ، وكانت ملابسهن مصنوعة من الخيوط الرخيصة ، ولو أنها أفضل بكثير من تلك التي يتم شراؤها في الولايات المتحدة بنفس الأسعار ، وسمعت الكثير عن اضطهاد الفقراء في أوربا ، والناس الذين رأيتهم حولي كانوا في معظمهم بين أفقر الفقراء ، ولكن عندما زرتهم في أكواخهم الصغيرة المصنوعة من القش ، شعرت أن أحوال أكثرهم

فقراً وجهلاً كانت أفضل و بشكل كبير من أحوال معظم العبيد المفضلين في أمريكا ، هم يعملون بشكل قاس . ولكنهم لا يؤمرون بأن يكدحوا مع النجوم في السماء ، ولا يطردون ولا يجلدهم المراقب في الحر والقر حتى تشع النجوم مرة أخرى . كانت منازلهم متواضعة جداً ، فعندما يغلق الأب باب كوخه ، يشعر بالأمن مع عائلته فلا سيد ولا مراقب يستطيع أن يأتي ويأخذ منه زوجته أو ابنته . يجب أن يفترقوا ليكسب كل قوت يومه ، ولكن الوالدين يعرفان أين يذهب أطفالهما . ويستطيعان الاتصال بهم عن طريق الرسائل ، والعلاقات بين الزوج والزوجة والوالد والطفل، كانت مقدسة جداً ، بحيث لا يستطيع السيد النبيل أن يخرقها وينجو من العقوبة . . . وقد تم عمل الكثير من أجل تنوير هذا الشعب الفقير ، وانشئت المدارس بينهم والجمعيات الخيرية كانت نشطة في جهودها لتحسين أحوالهم ، لم يكن هناك قانون يمنعهم من تعلم القراءة والكتابة ، وإذا ما ساعد بعضهم بعضاً في تهجئة كلمات الكتاب المقدس فلن يكونوا في خطر ٣٩ جلدة كما كانت الحال معي ومع (الفرد) العجوز حيث التقي به ، إني أكرر أن الأكثر جهلاً وحرماناً من هؤلاء الفلاحين كان أفضل ألف مرة من العبد الامريكي المدلل .

لا أنكر أن الفقراء مضطهدين في أوربا ، إذ أنني لم أقرر رسم أحوالهم باللون الوردي كما فعلت الآنسة المحترمة « موريه » (*) التي

(*) – المحترمة (اميليا ماتيلدا موريه) ١٧٩٥ – ١٨٨٤ – كانت زائرة انكليزية ومؤلفة « رسائل من الولايات المتحدة ، كوبا ، كندا » نشرت في لندن ونيويورك عام ١٨٥٦ ، وخاتمة كتابها تمثل مواقفها : « إن اعتقادي ، ويمكنكم أنتم أيضاً أن تحاولوا تحسين المعنويات ، وتضيفوا إلى سعادة البلهاء ، بتحويلهم من الملاجىء ، كما تتصورون أنكم تستفيدون من (العمي) بقوانين الإلغاء المخلصة ا.م.م.

(و.ت)

رسمت حال العبيد في الولايات المتحدة . . . إن جزءاً صغيراً من تجاربي سوف يمكنها من قراءة صفحاتها بالذات بعينين مدهونتين بالزيت ، وإذا كانت تبعد لقبها جانباً وبدلاً من زيارة أصحاب الأزياء ، تصبح مروضة كمربية أطفال مسكينة في بعض المزارع في لويزيانا أو الأباما، ولكانت سترى وتسمع أشياء تجعلها تروي القصة بطريقة مختلفة تماماً .

إن زيارتي إلى انكلترا كانت حادثة لا تنسى في حياتي ، وتركت عندي انطباعاً دينياً قوياً ، لقد كان الأسلوب المزري الذي عومل به الناس الملونون في العشاء الرباني في موطني ، وعضوية الدكتور « فلنت» ومن هم على شاكلته وشراء وبيع العبيد من قبل كهنة مزعومين ، كان كل هذا يولد لدي اجحافاً ضد الكنيسة الاسقفية ، حتى الصلاة العامة ، لقد بدت لي مظهراً كاذباً زائفاً ، ولكن منزلي في وسط عائلة كاهن في «سيتفنسون » أظهر لي كأن الكاهن في الحقيقة تلميذ المسيح ، فجمال حياته اليومية يوحي بالاخلاص في حقيقة إيمان المسيح ، ودخلت النعمة الإلهية قلبي وركعت أمام طاولة العشاء الرباني ، واثقة بحقيقة تواضع الروح

ومكثت هكذا عشرة أشهر ، وهذا كان أطول مما توقعت ، وخلال تلك الفترة بكاملها لم أشاهد إشارة ولو طفيفة للاجحاف ضد اللون ، وفي الحق أني نسيت ذلك كله ، حتى حان الوقت من أجل العودة إلى أمريكا

* * *

٣٨

دعوات متجددة من أجل العودة الى الجنوب

كانت الرحلة الشتوية مملة في طريق العودة ، وبدت الأطياف البعيدة تدل على سواحل الولايات المتحدة ، إنه لشعور حزين أن يكون الإنسان خائفاً من بلده ، ووصلنا إلى نيويورك بسلام ، وأسرعت إلى بوسطن للعناية بطفليَّ ، وجدت « ايلين » في حالة حسنة وهي تتقدم في مدرستها، ولكن « بني » لم يكن هناك للترحيب بي ، لقد تركته في مكان جيد ليتعلم مهنة ، وقد تم كل شيء بشكل حسن ولعدة أشهر . لقد أحبه معلمه وكان محبوباً لدى زملائه من المتدربين ، ولكن ذات يوم اكتشفوا بالصدفة حقيقة لم يتوقعوها أبداً من قبل – أنه كان ملوناً – وهذا ما حوله على الفور إلى شخص مختلف ، كان بعض المتدربين أمريكان ، والبعض الآخر من أصل ارلندي ولكن ولدوا في أمريكا ، وكان شيئاً (جارحاً) لكرامتهم أن يكون بينهم « زنجي » . وعند علمهم بكونه زنجياً بدأوا يعاملونه بازدراء صامت ، ولما وجدوا أنه رد بنفس الطريقة، لجأوا إلى الشتائم والسباب كانت لديه شهامة بحيث لا يستطيع تحمل ذلك، فانطلق هارباً ، ولما كان راغباً في عمل شيء ما لإعالة نفسه ولم يكن لديه أحد يسدي إليه النصح ، فانه أبحر في رحلة لصيد الحيتان ، وعندما تلقيت هذه المعلومات ، ذرفت دموعاً غزيرة ، ولمت نفسي بمرارة لأنني تركته طيلة هذه المدة ، على أنني فعلت ذلك من أجل الأفضل ولكن كل ما

أستطيع عمله الآن هو الصلاة إلى الرب السماوي من أجل أن يهديه ويحميه .

وبعد عودتي بقليل ، تلقيت الرسالة التالية من الآنسة « اميلي فلنت» التي أصبحت الآن السيدة « دودج » .

في هذه الرسالة ، سوف تعرفين يد صديقتك وسيدتك ، أما وقد سمعت أنك ذهبت مع إحدى العائلات إلى أوربا ، فقد انتظرت لأسمع بعودتك كي أكتب إليك ، كان علي أن أجيب على الرسالة التي بعثت بها إلي منذ مدة طويلة ، ولكن بما أنني لم أكن آنذاك أتصرف بشكل مستقل عن والدي عرفت أنه لن يكون هناك شيء يتم عمله بصورة مرضية لك ، كان هنا أشخاص ينوون شراءك والمجازفة في الحصول عليك ، لم أرض بهذا ، كنت دائماً ملتصقة بك ، ولم أحب أن أراك أمة لغيري، أو أن تتلقي معاملة خشنة ؛ إنني الآن متزوجة وأستطيع حمايتك ، زوجي يتوق الانتقال إلى فرجينيا في هذا الربيع حيث نفكر في الاستيطان ، إنني قلقة جداً ، متمنية أن تحضري وتعيشي معي ، وإذا كنت غير راغبة في القدوم فيمكنك شراء نفسك ، ولكنني أفضل أن تعيشي معي ، فاذا جئت فيمكنك إذا شئت أن تقضي شهراً مع جدتك وأصدقائك ، ثم تأتين إلي في نورفولك – فرجينيا – فكري في هذا واكتبي لي بأسرع ما يمكن ودعيني أعرف القرار ، آملة أن يكون طفلاك في حالة جيدة ، لا أزال صديقتك وسيدتك

وبالطبع لم أكتب لأرد الشكر على هذه الدعوة (الودية) شعرت بالإهانة لأن يظن بي غبية بما يكفي بحيث تجتذبني أمثال هذه الادعاءات...

قال يوماً العنكبوت للذبابة : « تعالي إلى مضافتي ، فانها أجمل مضافة صغيرة . يمكنك أن تتفحصينها »

لقد كان من الواضح أن عائلة الدكتور « فلنت » على علم بتحركاتي. لأنهم عرفوا برحلتي إلى أوربا وتوقعت أن يحصل لي متاعب من جانبهم، ولكن وبعد ابتعادي عنهم إلى هذا الحد ، رجوت أن أصادف نفس النجاح في المستقبل ، أما بالنسبة للنقود التي جمعتها ، فقد كنت راغبة في تكريسها لتعليم طفليّ ، وتأمين سكن لهما ،

لقد بدا ليس فقط صعباً ، بل من الظلم أن أشتري نفسي ، لم أكن من الممكن أن أعتبر نفسي كقطعة من الممتلكات ، وفوق ذلك ، لقد عملت سنوات طويلة دون أجر ، وخلال ذلك الوقت ، كنت مضطرة للاعتماد على جدتي بعدة أمور متعلقة بالطعام واللباس ، وبالتأكيد طفلاي يتبعانني ، ومع أن الدكتور « فلنت » لم يتكبد أية مصاريف لأعالتهما، إلا أنه تلقى مبلغاً كبيراً من المال ثمناً لهما ، أنا أعرف أن القانون ينص على أنني ملك له ، وأنه لا يزال يعطي ابنته الادعاء بأطفالي ، ولكنني أعتبر أمثال هذه القوانين كقوانين اللصوص الذين ليست لديهم حقوق ، وكنت مضطرة لاحترامها

لم يكن قانون العبيد الهاربين قد أجيز بعد ، ثم إن قضاة ولاية «مساسوشتس » لم يكونوا قد طأطأوا رؤوسهم تحت السلاسل ليدخل ما يسمى بمحاكم العدل ، عرفت أن سيدي القديم كان نوعاً ما نافراً من «مساسوشتس » واعتمدت على حبها للحرية ، وشعرت بالأمان على أرضها ، وأنا أعلم الآن أنني قد احترمت رابطة الشعوب القديمة إلى أبعد من أصحابها

* * *

٣٩

الاعتراف

وخلال سنتين ، قمت أنا وابنتي بالعناية بأنفسنا بصورة مريحة في بوسطن ، وفي نهاية تلك الفترة ، عرض أخي أن يرسل « ايلين » إلى مدرسة داخلية ، وتطلب ذلك مجهوداً كبيراً من جانبي لكي أقبل بفراقها لقلة الروابط القريبة لدي . وكان حضورها هو الذي جعل غرفتيّ الصغيرتين كبيت كبير ، ولكن حكمتي تغلبت على مشاعري الأنانية ، وأجريت الترتيبات لرحيلها ، وخلال السنتين اللتين عشناهما معاً ، صممت على الأغلب أن أخبرها بشيء عن والدها ، ولكنني لم أستطع أن أستجمع الشجاعة الكافية كنت أخشى أن يصغر حب طفلتي لي ، وعرفت أن لها فضولاً حول الموضوع ولكنها لم تسألني أبداً أي سؤال ، كانت دائماً حريصة ألا تقول شيئاً يذكرني بمتاعبي ، والآن وهي راحلة عني فكرت أني لو مت قبل عودتها يمكن أن تسمع قصتي من بعضهم ممن لم يفهموا الظروف المبررة ، وانها إذا كانت تجهل الموضوع بصورة كلية ، فان طبيعتها الحساسة يمكن أن تتلقى صدمة شديدة

وعندما كنا على وشك النوم ، قالت : « يا أمي ، يصعب علي فراقك وأنت وحيده ، وأنا على الإغلب آسفة لأنني ذاهبة ، ولو أنني أود تحسين نفسي . ولكنك سوف تكتبين لي دائماً أليس كذلك يا أمي ؟»

لم ألفها بذراعي ، ولم أجيبها . ولكن بطريقة وقورة هادئة كلفتني جهداً كبيراً قلت : أصغي إلي يا إيلين لدي شيء ما أود إعلامك به... وأعدت سرد معاناتي المبكرة من العبودية . وأخبرتها كم أن هذه المعاناة قد سحقتني تقريباً ، وبدأت أخبرها كيف دفعوني إلى الخطيئة الكبرى، وعندئذ طوقتني بذراعيها قائلة « آه يا أمي أرجوك لا تكملي » وقلت : « ولكن يا طفلتي . أريدك أن تعرفي أباك » فأجابت : « أعرف كل شيء يا أمي ، أنا لا شيء بالنسبة لوالدي . وهو لا شيء بالنسبة لي ، كل حبي لك ، كنت معه خمسة أشهر في واشنطن ، وهو لم يعتن بي أبداً ، حتى أنه لم يتحدث إلي أبداً كما كان يفعل مع صغيرته « فاني» عرفت طيلة الوقت أنه كان أبي ، لأن مربية « فاني » أخبرتني بذلك ، ولكنها قالت أنني يجب ألا أخبر أي شخص . وأنا لم أفعل ذلك ، كنت أتمنى أنه سوف يأخذني بين ذراعيه ويقبلني كما فعل مع « فاني » أو أنه سيبتسم في بعض الأحيان كما كان يفعل معها ، فكرت في أنه إذا كان والدي . فيجب أن يحبني . كنت فتاة صغيرة عندئذ ولم أعرف أفضل ولكنني الآن لا أفكر أبداً في أي شيء حول والدي ، إن كل حبي هو لك». وقد عانقتني وهي تتكلم وشكرت الله أن المعرفة التي خشيت كثيراً إفشاءها ، لم تقلل من محبة طفلتي ، لم تكن لدي أبسط فكرة أنها عرفت ذلك الجزء من تاريخي ، ولو كانت لدي لكنت تحدثت اليها قبل ذلك بوقت طويل . لأن مشاعري المكبوتة تاقت على الأغلب إلى الالتحام مع بعض الذين أستطيع الثقة بهم ، ولكنني أحببت الفتاة العزيزة أكثر للرقة التي أبدتها تجاه أمها الشقية

وفي اليوم التالي ، بدأت إيلين وخالها ، الرحلة إلى القرية في نيويورك حيث كانت ستوضع في المدرسة وبدا وكأنما أشعة الشمس قد توارت.

وكانت غرفتي الصغيرة موحشة بشكل رهيب ، وقد شكرت الله عندما تلقيت رسالة من سيدة ، اعتادت أن تستخدمني ، تطلب إلي الحضور لأخيط للعائلة عدة أسابيع ، وعند عودتي وجدت رسالة من أخي«وليام» لقد فكر في افتتاح غرفة قراءة ضد العبودية في روشستر بالإضافة إلى بيع بعض الكتب والقرطاسية . وأرادني أن أعمل معه وقد جربناها ولكنها لم تكن ناجحة ، ووجدنا أصدقاء ضد العبودية متحمسين هناك، ولكن الشعور لم يكن عاماً بما يكفي لمساندة مؤسسة كهذه .

أمضيت قرابة السنة لدى عائلة « إسحق وإمي بوست » (*) المعتقدين العمليين بالمبدأ المسيحي للأخوة الانسانية . كانوا يعتبرون الرجل بأخلاقه لا بلون بشرته . إن ذكرى هؤلاء الأصدقاء المحبوبين النبلاء ، ستظل معي حتى ساعتي الأخيرة .

* * *

(*) – المئات من السود ، كما قيل ، مدينون بحريتهم – لا سحق بوست – وزوجته إمي ، الرائدين ضد العبودية ومعاناة المرأة والاصلاحات الأخرى ، منزلهما في روشستر ، نيويورك ، كان محطة معروفة جيداً على سكة الحديد تحت الأرض ، وكان الأمر يقوم على نظام التعاون بين الناس النشيطين ضد العبودية لمساعدة العبيد الهاربين على الوصول إلى الشمال أو كندا .

(و.ت)

٤٠

قانون العبيـــد الهاربين

أما وإن أخي أصيب بخيبة أمل في مشروعه . فقد قرر الذهاب إلى كاليفورنيا ، واتفق على أن بنيامين يجب أن يذهب معه . وقد أحبت إيلين مدرستها ، وكانت محبوبة تماماً هناك . ولم يعرفوا هم تاريخها ، كما أنها لم تفصح عنه ، لأنها لم تكن ترغب في استخراج رأس مال من عاطفتهم ، ولكن عندما اكتشف بطريق الصدفة أن أمها كانت أمة هاربة ، استخدمت كل أسلوب لزيادة منافعها وتقليص مصاريفها

وعدت وحيدة مرة أخرى ، كان من الضروري لي أن أوفر النقود ، وفضلت أن يكون ذلك بين أولئك الذين عرفوني ، وعند عودتي من روشستر ، مررت ببيت السيد « بروس » لأرى « ماري » الطفلة الصغيرة الحبيبة ، التي شعر قلبي بالدفء معها عندما كان يرتجف من عدم الثقة بزملائي في الانسانية ، لقد شبت وأصبحت فتاة طويلة الآن ، ولكنني أحببتها دائماً لقد تزوج السيد « بروس » مرة أخرى واقترح بأني يجب أن أكون المربية للطفلة الجديدة . ولكني كنت مترددة من شيء واحد وهو شعوري بعدم الأمان في نيويورك. والآن. ازداد بعد أن تمت الموافقة على قانون العبيد الهاربين . وعلى أي حال قررت أن أدخل في التجربة وكنت مرة أخرى محظوظة بمستخدمتي ، إن السيدة « بروس » الجديدة . كانت أمريكية نشأت في ظل نفوذ

أرستقراطي . ولا زالت تعيش كذلك . ولكن إذا كان لها إجحاف حول اللون . فانها لم تجعلني أدرك ذلك أبداً ، أما فيما يتعلق بنظام العبودية . فانها كانت تكرهه من صميم فؤادها . ولم تستطع مغالطات الجنوبيين أن تحجبها عن كراهيته . لقد كانت شخصية ذات مبادىء سامية وقلب نبيل . فبالنسبة لي منذ تلك الساعة حتى الوقت الحاضر كانت صديقة حقيقية ومتعاطفة . فلتحل عليها وعلى ذويها البر كات .

وخلال الوقت الذي التحقت فيه بعائلة « بروس » حصلت حادثة ذات فحوى مأساوي للناس الملونين . كان العبد «هاملين»(*) هو أول هارب انطبق عليه القانون الجديد . لقد سلم من كلاب الدم في الشمال إلى كلاب الدم في الجنوب . وكانت بداية عهد الإرهاب بالنسبة للسكان الملونين ، واندفعت المدينة الكبيرة مسرعة في استثارة غير عابئة بـ « الحوليات القصيرة والبسيطة للفقراء » ولكن بينما كان الخاصة يصغون إلى صوت (جني لند) المثير في قاعة (متر وبوليتان) فان الأصوات المثيرة للناس الملونين الفقراء الذين تم اصطيادهم . ارتفعت في عذاب الضراعة إلى الله من كنيسة « زيون » . والعديد من العائلات التي عاشت في المدينة لعشرين عاماً ، هربوا منها الآن ، وأكثر من غسالة ، أمنت لنفسها بالعمل الشاق بيتاً مريحاً . كانت مضطرة للتضحية بأثاثها . ووداع أصدقائها بسرعة تنشد حريتها بين الغرباء في كندا ، وأكثر من زوجة . اكتشفت سراً لم تكن تعرفه من قبل — ان زوجها

(*)— يمكن أن يكون هذا إشارة إلى«جيمس هاملت » الذي يقال أنه أول شخص أوقف بموجب قانون العبيد الهاربين في عام ١٨٥٠ ، وهو عبد حر من نيويورك ، وقد أدخل في العبودية في بلتيمور ، ولكنه افتدي فيما بعد مقابل ثمانمائة دولار دفعتها شخصيات خاصة . (و.ت)

كان هارباً ويجب أن يغادرها تأميناً لسلامته ، وأسوأ من ذلك أن أكثر من زوج اكتشف أن زوجته قد هربت من العبودية .وكما يتبع الطفل وضع أمه ، فان الأطفال المحبوبين كانوا عرضة للاعتقال والدخول في العبودية ، وفي كل مكان ، وفي تلك البيوت المتواضعة كان هنالك فزع وقلق ، ولكن ماذا كان يهم مشرعي « العرق المتسلط » بالنسبة للدم الذي كانوا يسحبونه من القلوب المنكسرة .

عندما قضى أخي « وليام » آخر أمسية له معي ، قبل ذهابه إلى كاليفورنيا ، تحدثنا تقريباً طيلة الوقت عن الغم الذي جلبه على شعبنا المضطهد إقرار القانون الجائر ، ولم ألحظه من قبل أبداً يبدي مرارة في الروح كهذه المرارة . وعداء شديداً لمضطهدينا كهذا العداء . لقد كان هو نفسه حراً من عملية القانون ، لأنه لم يهرب من ولاية مالكي العبيد . بل جلبه إلى الولايات الحرة سيده ، ولكنني كنت خاضعة له ، وهكذا شأن المئات من الناس الأذكياء الدؤوبين من حولنا ، وكنت نادراً ما أجازف بالخروج إلى الشوارع ، وعندما كان من الضروري الذهاب في مهمة للسيدة « بروس » أو أي من أفراد العائلة ، كنت أذهب بقدر الإمكان من الشوارع الخلفية والطرق الفرعية أي خزي لمدينة تسمي نفسها حرة أن يكون السكان الذين لا ذنب لهم . بل ينشدون إنجاز واجباتهم بضمير حي ، أن يكونوا محكومين بالعيش في رعب لا ينقطع كهذا الرعب . وليس لديهم أي مكان يلجأون إليه من أجل الحماية ؟ وقد أوجبت الأوضاع هذه بالطبع نهوض العديد من لجان اليقظة المرتجلة ، وكل شخص ملون وكل صديق لعرقهم المضطهد احتفظوا بأعينهم مفتوحة جيداً . وكنت كل مساء اتفحص الجرائد بعناية ، لأرى أي من الجنوبيين قد حل في الفنادق ؟ . . فعلت ذلك من

أجلي ، متذكرة أن سيدتي الشابة وزوجها يمكن أن يكونا في القائمة ، ورغبت أيضاً في إعطاء معلومات للآخرين إذا كان ذلك ضرورياً ، لأنه إذا كان العديدون يركضون ذهاباً وإياباً . فلقد صممت على أن « المعرفة يجب أن تتزايد » .

وبهذا استرجعت إحدى ذكرياتي الجنوبية ، التي أرويها باختصار هنا « كنت إلى حد ما قد تعرفت على عبد يدعى « ليوك » وكان تابعاً لرجل غني في جوارنا ، ومات سيده تاركاً ولداً وابنة وريثين لثروة ضخمة وفي تقسيم العبيد ، كان (ليوك) من نصيب الابن ، وغدا هذا الشاب فريسة الرذائل المتنامية بفضل « المؤسسة المتنامية الموقرة » وعندما ذهب إلى الشمال لإتمام دراسته حمل رذائله معه ، وقد أعيد إلى وطنه محروماً من استخدام أطرافه ، لفرط التهتك ، وعين « ليوك » خادماً لسيده المقعد في الفراش ، والذي ازدادت عاداته التسلطية بشكل كبير بسبب قصوره ، فاحتفظ بسوط مجدول من جلد البقر ووضعه إلى جانبه ، ومن أجل حادثة طفيفة جداً كان يأمر تابعه بتعرية ظهره والانحناء أمام الأريكة ليجلده بالسوط حتى تتلاشى قواه ، وفي بعض الأحيان لم يكن يسمح له بارتداء أي شيء سوى ثوبه ليكون جاهزاً لاستقبال السياط ، ونادراً ما مر يـــوم دون تلقي ضربات كثيرة أو قليلة ، وإذا ما ظهرت أدنى مقاومة ، كان يرسل في طلب الشرطي في البلدة لتنفيذ العقوبة . وتعلم « ليوك » من التجربة كم كانت ذراع الشرطي القوية تبعث الخشية أكثر من ذراع سيده الضعيفة نسبياً ، وضعفت ذراع سيده ، وأخيراً أصابه الشلل ، وعندئذ غدت خدمات الشرطي مطلوبة ، وفي الحق أنه كان بالكلية مستنداً إلى عناية « ليوك » ومضطراً لأن يعتني به كرضيع ، إلا أنه بدلاً من استلهام الشكر أو

الرحمة تجاه العبد المسكين ، بدا أنه يزيد من ضيق صدره وقسوته ، بينما اضطجع هناك على فراشه ، مجرد حطام مهمل من الرجولة . . . وجالت في رأسه أعجب أنواع الظلم ، وإذا ما حدث وتردد « ليوك » لحظة في الخضوع لأوامره كان الشرطي يستدعى على عجل ، إن بعض هذه العجائب كانت من طبيعة قذرة بحيث لا تتكرر . وعندما هربت من منزل العبودية ، تركت (ليوك) يعاني إلى جانب فراش هذا الشقي القاسي ، الكريه .

وذات يوم ، عندما طلب إلي تنفيذ إحدى المهمات للسيدة « بروس » كنت أهرول في الشوارع الخلفية كالعادة ، عندما وقع بصري على شاب يقترب مني ، وكان وجهه مألوفاً لدي ، وحالما اقترب أكثر ، عرفت أنه « ليوك » وكنت دائماً يسرني أن أرى وأسمع بواحد ممن هربوا من الحفرة السوداء ، ولكن عندما تذكرت المتاعب الكبيرة لهذا الشخص المسكين سررت بشكل كبير لأن أراه على الأرض الشمالية ، ولو أني لم أعد أسميها أرضاً حرة ، لقد تذكرت جيداً أي شعور موحش أن يكون الإنسان وحيداً بين الأغراب ، وتقدمت منه وسلمت عليه بمودة ، لم يعرفني أولاً ، ولكن عندما ذكرت اسمي تذكر كل شيء عني ، أخبرته بقـــانون العبيد الهاربين وسألته ما إذا كان لا يعرف أن نيويورك كانت مدينة الخاطفين .

وأجاب : « ليست المجازفة رديئة جداً بالنسبة لي كما هي بالنسبة لك ، لأنني هربت من مضارب ، وأنت هربت من سيدك ، هؤلاء المضاربون لن يصرفوا نقوداً للبحث عن هارب . إذا لم يكونوا متأكدين تماماً من أنهم سيضعون يدهم عليه ، وأنا أخبرك بوجوب العناية الجيدة

بنفسك حول ذلك » . لقد مرت علي أوقات صعبة جداً هناك خوفاً من الإمساك بهذا الزنجي .

ثم أخبرني بالنصيحة التي تلقاها والخطط التي وضعها . وسألت ما إذا كانت لديه نقود كافية توصله إلى كندا ، فأجاب : « نعم لدي ، أنا أهتم بذلك ، لقد كنت أعمل طيلة أيامي من أجل البيض ولم آخذ أجرة سوى الركل والصفع والجلد ، وهكذا فكرت أن لهذا الزنجي الحق في النقود الكافية ليصل إلى الولايات الحرة ، لقد ظل السيد « هنري » يظلم حتى أبدى كل واحد الرغبة في أن يموت ، وحتى لو مات، عرفت أن الشيطان سوف يأخذه ، ولا يريده أن يحضر نقوده معه . . . وهكذا أخذت بعضاً من أوراقه النقدية ووضعتها في جيب بنطاله القديم ، وحتى عندما دفن ، طلبت منهم البنطال القديم وأعطوني إياه » ثم بضحكة خافتة أضاف : « كما ترين فانني لم أسرق بل هم أعطوني إياه ، وأخبرك لقد أمضيت وقتاً عسيراً جداً من أجل أن أحول دون إيجاده من قبل المضارب وهو لم يجده » .

هذا نموذج حسن للحس المعنوي الذي تثقفه العبودية ، يقر ويفرض اللصوصية ، فكيف يتوقع منه أن يكون له اعتبار للشرف أكثر من الرجل الذي سرقه ؟ لقد أصبحت متنورة شيئاً ما ، ولكنني أعترف أني أوافق الفقراء وغير المتعلمين الذين يتعرضون للشتائم كثيراً ، أن لـ (ليوك) في تفكيره الحق في تلك النقود كجزء من أتعابه غير المدفوعة ، ومن ثم فقد ذهب إلى كندا وبعد ذلك لم أسمع عنه .

عشت طيلة ذلك الشتاء في حالة من القلق ، وعندما أخذت طفلي لتنفس الهواء ، لاحظت عن كثب ملامح كل من رأيت ، وخشيت

اقتراب الصيف . عندما تبرز الأفاعي ومالكو العبيد . كنت في الحقيقة أمة في نيويورك خاضعة لقوانين العبيد . كما كان الحال معي في ولاية العبيد ، تنافر غريب في ولاية تدعى بالحرة .

وعاد الربيع ، وتلقيت إنذاراً من الجنوب يفيد أن الدكتور « فلنت » عرف بعودتي إلى مكاني القديم . وكان يتهيأ لاعتقالي ، وعلمت فيما بعد أن بعض العملاء الذين يستخدمهم الجنوبيون قد وصفوا له ملابسي وملابس أطفال السيدة «بروس» . هؤلاء العملاء الذين يستخدمهم مالكو العبيد لمقاصدهم الدنيئة ينغمسون في السخرية من جشعهم وذلهم .

وأعلمت السيدة « بروس » فوراً بالخطر المحدق بي ، واتخذت اجراءات عاجلة لسلامتي ، لقد كان مكاني مربية لديها ، إن هذه السيدة الكريمة ، المتعاطفة اقترحت أن أحمل طفلتها بعيداً ، وكان ذلك مدعاة لراحتي أن تكون الطفلة معي لأن القلب يتلكأ في أن يبتعد عن كل شيء يحبه . . . ولكن كيف تقبل القليل من الأمهات أن يصبح أحد أطفالهن هارباً من أجل مربية فقيرة مطوقة ؟ والتي من أجلها يطلق مشرعو البلاد كلاب الدم ؟ وعندما تكلمتُ عن التضحية التي كانت تبذلها بحرمان نفسها من طفلتها العزيزة أجابت : « من الأفضل لك أن تكون الطفلة معك باليندا ، لأنهم إذا عثروا على طريقك فانهم مضطرون لإحضار الطفلة لي وعندئذ ، إذا كان هناك إمكانية في خلاصك فانك سوف تنقذين » .

وكان لهذه السيدة قريب غني جداً ، وهو رجل محسن في وجوه عديدة ، ولو أنه « ارستقراطي » ومنحاز إلى العبودية ، وقد اعترض عليها لإيوائها أمة هاربة ، وأخبرها أنها كانت تخرق قوانين بلادها ،

وسألها ما إذا كانت تدرك العقوبة ، فأجابت : « أنا مدركة تماماً لذلك، إنها السجن وغرامة ألف دولار ، ومن العار على بلادي أنها كذلك ، إنني مستعدة أن أتعرض للعقوبة ، سأذهب إلى سجن الولاية ، فذلك أفضل من أن تطرد ضحية فقيرة من بيتي لتعاد إلى عالم العبودية

القلب النبيل ، القلب الشجاع ، إن عيني تطفحان بالدموع وأنا أكتب عنها ، أرجو الله ، إله اليائسين أن يكافأها على تعاطفها مع الناس المضطهدين .

أرسلت إلى (نيوانكلاند) حيث أكون في حماية زوجة سناتور (شيخ) ، سأحمل لها الشكر. هذا الرجل الشهم لم يصوت إلى جانب قانون العبيد الهاربين كما فعل السناتور في « غرفة العم توم » فعلى العكس كان يعارض بشدة . . . ولكنه كان تحت تأثير الخوف من بقائي في منزله ساعات طويلة ، وهكذا أرسلت إلى الريف ، حيث بقيت شهراً مع الطفلة ، وعندما أحسست بأن جواسيس الدكتور « فلنت » قد أضاعوا أثري وتخلى هو عن المطاردة في الوقت الحاضر ، عدت إلى نيويورك. .

* * *

٤١
حرة اخيرا

كان السيد « بروس » وكل فرد في عائلته في غاية اللطف معي ، وكنت مسرورة بنصيبي . ومع ذلك فلم أستطع دائماً أن أبدي مظهراً مرحاً ، لم أكن أفعل ما يضر بأحد ، بل على العكس ، كنت أفعل كل شيء حسن بطريقتي الصغيرة الخاصة ، ومع ذلك لم أكن أستطيع التوجه خارجاً لأتنفس هواء الله الحر دون أن ينخلع قلبي ، وبدا هذا صعباً ، ولم أكن أستطيع أن أتصور أن تلك الأفعال تجرى في بلد متحضر

ومن وقت لآخر ، كنت أتلقى الأنباء من جدتي العجوز الطيبة ، لم تكن تستطيع الكتابة ولكنها كانت تستخدم الآخرين ليكتبوا من أجلها ، وفيما يلي مقطعٌ من أواخر رسائلها

« ابنتي العزيزة ، لا أستطيع أن آمل في رؤيتك مرة ثانيـــة عـــلى الأرض ، على أنني أضرع إلى الله أن يوحدنا فوق ، حيث لا يعود الألم يتلف جسمي الضعيف هذا ، وحيث لا يكون هناك حزن ولا فراق عن أطفالي. لقد وعدنا الله بهذه الأشياء إذا كنا مخلصين حتى النهاية . إن سني وصحتي الضعيفة تحرمانني من الذهاب إلى الكنيسة الآن ، ولكن الله معي هنا في البيت ، أشكري أخاك للطفه ، وامنحيه الكثير من المودة ، وأخبريه أن يتذكر الخالق في شبابه ، وأن يجهد لملاقاتي في مملكة الله ، أبلغي حبي لإيلين وبنيامين ، لا تهمليه أخبريه أن يكون ولداً طيباً ،

كافحي يا طفلتي لتدريبهما على أن يكونا من أحباء الله ، الذي أسأله أن يحميك وينعم عليك ، تلك هي الضراعة من أمك العجوز المحبة » .

هذه الرسائل أبهجتني وأحزنتني ، كنت دائماً مسرورة بتلقي الأنباء من الصديقة المخلصة العجوز والتي وقفت إلى جانبي في أيام الشقاء ، ولكن رسائلها حول الحب ، جعلت قلبي يتوق لرؤيتها قبل أن تموت وحزنت لحقيقة أن ذلك كان مستحيلاً ، وبعد عودتي من الهرب إلى (نيوانكلاند) ببضعة شهور تلقيت رسالة منها تذكر فيها : « لقد مات الدكتور « فلنت » وخلف عائلة حزينة ، مسكين هذا الرجل العجوز ، آمل أن يكون قد توصل إلى سلام مع الله » .

وتذكرت كيف سلب جدتي مما كانت أدخرته بصعوبة ، وذلك عن طريق الاقتراض منها ، وكيف حاول خداعها حول الحرية التي وعدتها سيدتها بها ، وكيف اضطهد أطفالها ، وفكرت أنها كانت مسيحية أفضل مني ، إذ استطاعت أن تسامحه ، لا أستطيع أن أقول صدقاً أن وفاة سيدي القديم قد خففت من مشاعري تجاهه ، هناك أخطاء لا يمكن أن يدفنها حتى القبر ، لقد كان الرجل بغيضاً لي في حياته وحتى الآن مازالت ذكراه بغيضة . . . ورحيله عن هذا العالم لم يقلل من الخطر المحدق بي ، لقد هدد جدتي بأن ورثته سوف يبقونني في العبودية بعد أن يرحل . وأنني لن أكون حرة طالما أن هناك طفلاً من أطفاله على قيد الحياة ، أما السيدة « فلنت » فقد بدت في كرب أعمق مما افترضته خسارة زوجها ، لأنها خسرت بالموت عدة أطفال ، ومع ذلك فلم ألمس علامات الرقة في قلبها ، لقد مات الدكتور في ظروف مربكة . وكان لديه القليل من المال كي يوصي به لورثته خلا بعض الممتلكات

التي لم يكن قادراً على إمساكها ، كنت على علم بما كانت عليه نوايا عائلة « فلنت »، وقد أثبتت مخاوفي رسالة من الجنوب تحذرني بأن أكون متأهبة ، لأن السيدة « فلنت » صرحت علناً أن ابنتها لا يمكن أن تقبل خسارة أمة ذات قيمة كما كنت

ودأبت على مراقبة الصحف بالنسبة للقادمين . ولكن في أحد أيام السبت ، كنت مشغولة جداً ونسيت أن أتفحص صحيفة (الايفننغ اكسبريس) كالعادة ، وذهبت إلى غرفة الاستقبال بحثاً عن الصحيفة في الصباح الباكر ، فوجدت الولد عل وشك أن يضرم النار فيها ، فأخذتها منه وتفحصت قائمة القادمين. أيها القارىء ، إذا لم تكن عبداً أبداً ، فانك لن تستطيع أن تتصور الإثارة الحادة للمعاناة في قلبي عندما قرأت اسمي السيد والسيدة « دودج » في فندق شارع « كورتلاند». لقد كان فندقاً من الدرجة الثالثة ، واقنعتني تلك الظروف بصحة ما سمعت من أنهم كانوا في ضيق مالي وبحاجة إلى قيمتي كما قيموني وكان ذلك بالدولار والسنت ، وهرعت وبيدي الصحيفة إلى السيدة « بروس» لقد كان قلبها ويدها مفتوحتين لكل شخص أصابه الكرب ، وكانت دائماً تتعاطف بحرارة معي ، لقد كان من المستحيل الاخبار كم كان العدو قريباً ربما كان مر أو أعاد المرور بالبيت بينما كنا نائمين ، كان يمكن أن يكون في تلك اللحظة منتظراً لينقض علي إذا ما جازفت بالخروج ، وأنا لم أر زوج سيدتي الشابة ، ولذلك فلا أستطيع تمييزه من أي غريب آخر .

وجهزت عربة على عجل ، وتخفيت تماماً . وتبعت السيدة «بروس» آخذة الطفلة معي مرة ثانية إلى المنفى . وبعد عدة منعطفات وتقاطع ، توقفت العربة أمام بيت إحدى صديقات السيدة « بروس» حيث تم

استقبالي بترحاب كبير ، وعادت السيدة « بروس » فوراً لتصدر التعليمات إلى الخدم حول ما يجب أن يقولوا إذا ما أتى أحدهم مستفسراً عني

لقد كان من حسن حظي أن صحيفة المساء لم تحرق قبل أن تتاح لي فرصة تفحص قائمة القادمين ، وبعد عودة السيدة « بروس » إلى منزلها بقليل ، أتى عدد من الناس للاستفسار عني ، واستعلم أحدهم عني ، وآخر عن ابنتي « إيلين » وقال ثالث إن لديه رسالة من جدتي طلب إليه تسليمها شخصياً

وقيل لهم « كانت تسكن هنا ولكنها ارتحلت » .

— « منذ متى ؟ »

— « لا أعلم يا سيدي »

— « هل تعرفون أين ذهبت ؟ »

— « لا نعرف يا سيدي » وتم إغلاق الباب .

كان هذا السيد (دودج) المطالب بي كملك له ، وهو في الاساس بائع متجول أمريكي ولد في الجنوب ثم غدا تاجراً وأخيراً مالك عبيد ، وجهد لتقديم نفسه إلى ما كان يدعى بالمجتمع الأول ، وتزوج من الآنسة «اميلي فلنت » ونشب شجار بينه وبين أخيها ، فجلده هذا الأخير بالسوط ، وأدى ذلك إلى ثأر عائلي واقترح هو الرحيل إلى فرجينيا ، أما الدكتور «فلنت » فلم يترك له أية ممتلكات ، وأصبحت موارده محدودة بينما اعتمدت زوجته وأطفاله عليه بالإعالة ، وتحت هذه الظروف كان طبيعياً جداً أن يبذل جهداً كبيراً كي يضعني في جيبه .

وكان لي صديق ملون ، رجل من موطني أثق به تمام الثقة . فبعثت في طلبه ، وأخبرته بوصول السيدوالسيدة « دودج » إلى نيويورك . واقترحت أن يزورهما للاستعلام عن أصدقاء له في الجنوب . كانت عائلة « فلنت »تعرفهم تماماً ، وفكر في أنه لابأس من قيامه بذلك . فقبل وذهب إلى الفندق وقرع غرفة السيد « دودج) الذي فتح الباب بنفسه واستفسر بخشونة : « ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ وكيف عرفت أنني في المدينة ؟ »

— « إن خبر قدومك قد نشر في صحف المساء يا سيدي ، وقد أتيت لسؤال السيدة « دودج » عن أصدقاء لي في الوطن ، ولا أعتقد أن ذلك يشكل جرماً »

— « أين تلك الفتاة الزنجية التابعة لزوجتي ؟ »

— « أية فتاة يا سيدي ؟ »

— « إنك تعرف جيداً . أعني ليندا التي هربت من مزرعة الدكتور « فلنت » منذ بضع سنين . أجرؤ على القول أنك رأيتها وتعرف أين هي »

— « نعم يا سيدي لقد رأيتها وأعرف أين هي ، إنها بعيدة عن متناولك يا سيدي »

— « أخبرني أين هي ، أو أحضرها إلي وسوف أعطيها الفرصة لتشتري حريتها » .

— « لا أظن أن في ذلك أي فائدة يا سيدي ، لقد سمعتها تقول أنها سوف تذهب إلى أبعد أطراف الأرض بدلاً من أن تدفع لأي رجل أو امرأة من أجل حريتها ، لأنها تعتقد أنها أنفقت مدخراتها على تعليم طفليها »

لقد جعل هذا الجواب السيد « دودج » يستشيط غضباً ، وتبودلت كلمات قارصة بين الاثنين وخشي صديقي القدوم إلى مكاني ، ولكن في بحر النهار تلقيت رسالة منه، وافترضت أنهما لم يأتيا من الجنوب في الشتاء من أجل نزهة مرحة ، إذ أن طبيعة عملهما الآن أصبحت واضحة تماماً

وأتت السيدة « بروس » إلي متوسلة أن أغادر المدينة في الصباح التالي، وقالت أن بيتها مراقب ، وكان ممكناً التعرف على إشارة تدل علي ، رفضت العمل بنصيحتها ، وتوسلت برقة جدية كان من الممكن أن تزحزحني عن موقفي ، ولكنني كنت في مزاج مرير مثبط ، لقد مللت الفرار من عمود إلى عمود ، قضيت عمري مطاردة ، وبدا وكأن المطاردة لن تنتهي أبداً ، قبعت هناك في تلك المدينة الكبيرة ، وأنا بريئة من أي جرم ، ومع ذلك لم أكن قادرة على عبادة الله في أية كنيسة ، لقد سمعت الأجراس تدق لصلاة بعد الظهر وقلت بسخرية مريرة : «هل الواعظون يتقيدون بنصهم (أعلنوا حرية الأسرى ، افتحوا أبواب السجون لأولئك المحكومين) أم أنهم يعظون من النص (افعلوا بالآخرين كما تشاؤون أن يفعلوا بكم) إن المضطهدين البولنديين والهنغاريين ، استطاعوا أن يجدوا ملجأً أميناً في تلك المدينة ، إن جون ميتشل (*) كان

(*) – جون ميتشل (١٨١٥ – ١٨٧٥) مواطن ايرلندي و محام للمقاومة المسلحة ضد انكلترا ، انتقل من ايرلندا إلى أرض (فانديمان) – تسمانيا ، ولكنه هرب ، وفي نيويورك عام ١٨٥٣ أنشأ صحيفة مكرسة لقضية الحرية الايرلندية ، ومع ذلك جابه أصحاب فكرة إلغاء الرق وناصر العبودية ، ثم انتقل إلى (نوكسفيل) حيث أصدر صحيفة تخدم مصالح العبودية ، وقد حارب أولا ده في الجيش الا تحادي ، وكتب أحد كتب السيرة أن « وطنيته الواسعة منعت شعوره بروح القرابة مع الرجال الآخرين الذين يعملون من أجل قضايا مماثلة ، لأن الحرية في معناها المطلق والإنساني كانت لا تهمه ».

(و.ت)

حراً في أن يصرح في قاعة المدينة برغبته في « مزرعة مملوءة تماماً بالعبيد» ولكنني كنت أجلس هناك وأنا الأمريكية المضطهدة ، بحيث لا أجرؤ على إظهاز وجهي ، ليسامح الله الأفكار السوداء المريرة التي انغمست فيها في ذلك الأحد ، إن الكتاب المقدس يقول : « إن الاضطهاد يجعل من الرجل الحكيم رجلاً مجنوناً » وأنا لم أكن حكيمة .

لقد نبئت أن السيد « دودج » قال إن زوجته لن تتخلى أبداً عن حقها في أطفالي ، وأنه إذا لم يستطع الحصول علي فسوف يأخذهم ، لقد أثار هذا الكلام أكثر من أي شيء آخر ، عاطفة في نفسي ، لقد كان « بنيامين » مع خاله « وليام » في كاليفورينا ولكن ابنتي الصغيرة البريئة جاءت لقضاء عطلتها معي ، وفكرت فيما قاسيت من العبودية في مثل سنها فكان قلبي أشبه بقلب النمرة عندما يحاول صياد اختطاف وليدها .

لقد خاب أمل عزيزتي السيدة « بروس » كما يبدو من تعابير وجهها عندما استدارت بسبب مزاجي العنيد.أما وقد وجدت أن مجادلتها غير مجدية فقد أرسلت « ايلين » لتتوسل إلي ، وعندما دقت الساعة العاشرة ليلاً ولم تعد « ايلين » فان هذه الصديقة اليقظة والتي لا تمل أصبحت قلقة ، وأتت إلينا في عربة ومعها حقيبة طافحة من أجل رحلتي ، واثقة أنه في وقت كهذا يمكن أن أصغي لصوت العقل ، واستسلمت لها كما كان يجب أن أفعل قبل ذلك .

وفي اليوم التالي ، انطلقت مع الطفلة تحت عاصفة ثلجية شديدة نحو « نيوانكلاند » مرة ثانية وتلقيت رسالة من (مدينة الظلم) معنونة باسمي بتوقيع مزيف ، وفي مدى أيام قليلة وفد أحدهم من قبل السيدة « بروس » يخبرني ان سيدتي الجديدة مازالت تبحث عني ، وأنها

تنوي وضع حد لهذا الاضطهاد بشراء حريتي ، شعرت بالشكر لهذا اللطف الذي استدعى العرض ، ولكن الفكرة لم تكن بهيجة تماماً لي كما كان يمكن أن يتوقع ، وكلما ازداد عقلي تنويراً كلما أصبح من الصعب أكثر لي أن أعتبر نفسي شيئاً من الممتلكات ، وأن أدفع مالاً لأولئك الذين اضطهدوني بشكل مأساوي ، وكان هذا يبدو مثل تجريد معاناتي من مجد الظفر . وكتبت للسيدة « بروس » شاكرة إياها ولكني قلت إن كوني أباع من مالك لآخر يبدو تماماً كالعبودية ، وإن التزاماً كبيراً كهذا لا يمكن من السهل إلغاؤه وإنني أفضل الذهاب إلى كاليفورنيا حيث يقيم أخي .

ودون علم مني . كلفت السيدة « بروس » رجلاً في نيويورك أن يفتح مفاوضات مع السيد « دودج » فاقترح دفع ثلاثمائة دولار إذا كان السيد « دودج » يبيعني ويلتزم بالتخلي عن كل إدعاء بي أو بطفلي إلى الابد فيما بعد ، قال من يسمي نفسه سيدي أنه يستنكف عن قبول عرض ضئيل جداً كهذا مقابل خادم ذات قيمة ، وأجابه الرجل : « تستطيع أن تختار ياسيدي ، وإذا رفضت هذا العرض ، فان تحصل على أي شيء لأن المرأة لها أصدقاء ممن سوف يوصلونها وطفليها إلى خارج البلاد » .

واستنتج السيد « دودج » أن نصف رغيف أفضل من عدم وجود الخبز ، ووافق على البنود المعروضة. وبالبريد التالي ، تلقيت الرسالة المختصرة التالية من السيدة « بروس » :

«يسرني إعلامك أن المال من أجل حريتك قد تم دفعه إلى السيد « دودج ».عودي إلى المنزل غداً ، إنني مشتاقة لرؤيتك ورؤية طفلتي الجميلة » .

وترنح عقلي لدى قراءة هذه السطور وقال رجل إلى جانبي : « إنه صحيح لقد رأيت عقد البيع » . . . « عقد البيع » ؟ لقد هوت تلك الكلمة كضربة علي، إذن لقد تم بيعي أخيراً ؛ انسان بيع في مدينة نيويورك (الحرة). إن عقد البيع هو في السجل. وسوف تتعلم الأجيال القادمة منه أن النساء كن أشياء في حركة نيويورك في أواخر القرن التاسع عشر من الدين المسيحي . ويمكن فيما بعد أن تصبح وثيقة نافعة لتجار المتروكات العتيقة الذين يتطلعون إلى قياس تقدم الحضارة في الولايات المتحدة . . . أنا أعرف تماماً تلك القطعة من الورق . ولكن بقدر ما ما أحب الحرية فانني لا أطيق النظر إليها ، وأنا شاكرة جداً للصديقة الكريمة التي اشترتها ، ولكنني أحتقر النذل الذي طالب بقيمة شيء لم يكن أبداً من حقه .

لقد اعترضت على شراء حريتي ، ومع ذلك علي أن أعترف أنه عندما جرى ذلك شعرت وكأن عبئاً ثقيلاً قد أنزل عن كتفي المتعبتين، وعندما ركبت عائدة إلى المنزل في العربات، لم أعد خائفة من الكشف عن وجهي كي أنظر إلى الناس أثناء مرورهم ، كان علي أن أكون مسرورة برؤية « دانيال دودج » نفسه كي يراني ويعرفني ، ويحزن أكثر على الظروف العسيرة التي اضطرته لبيعي مقابل ثلاثمائة دولار .

وعندما وصلت المنزل ، التفت ذراعا محسنتي حولي ، واختلطت دموعنا ، وحالما استطاعت الكلام قالت « آه ياليندا ، أنا مسرورة جداً بأن كل شيء قد انتهى ، لقد كتبت إلي وكأنك تظنين أنك تنتقلين من مالك إلى آخر ، على أنني لم أقدم على شرائك من أجل خدماتك. بل كنت سأفعل نفس الشيء حتى لو كنت ستبحرين إلى كاليفورنيا

غداً ، كان علي على الأقل ان أكون راضية بأنني أعلم أنك قد غادرتني وأنت امرأة حرة » .

وطفح قلبي بالسعادة ، وتذكرت كيف حاول والدي المسكين شرائي عندما كنت طفلة صغيرة ، وكيف أصابته خيبة الأمل ، أملت أن تكون روحه جذلى من أجلي الآن . تذكرت كيف عرضت جدتي الطيبة العجوز مدخراتها لشرائي في السنوات الأخيرة ، وكيف تعرقلت خططها مراراً ، كم سيقفز ذلك القلب المخلص العجوز المحب فرحاً . لقد فشل أقربائي في كافة جهودهم ولكن الله قيض لي صديقة من الغرباء منحتني البهجة الغالية المرجوة . صديقة ؟ إنها كلمة عادية تستخدم بلا مبالاة . ومثل الأشياء الطيبة والجميلة الأخرى يمكن أن تلطخ بالتداول المهمل ، ولكن عندما أتكلم عن السيدة « بروس » كصديقة فان الكلمة تصبح مقدسة .

لقد عاشت جدتي لتفرح بحريتي ، ولكن بعد ذلك بوقت قصير ، وردتني رسالة عليها خاتم أسود لقد ذهبت « حيث يكف الأشرار عن الأزعاج ، ويستريح المتعبون »

ومر الوقت ، ووردتني ورقة من الجنوب تحوي إعلان وفاة خالي فيليب ، وتلك كانت الحالة الوحيدة التي يمنح فيها الرجل الملون شرفاً كهذا لقد كتب الرسالة أحد أصدقائه وحوت الكلمات التالية

« الآن وقد وضعه الموت تحت التراب ، يسمونه رجلاً طيباً ومواطناً نافعاً ، ولكن ما فائدة المديح للرجل الأسود عندما يكون العالم قد تلاشى عن بصره ؟ نوال الراحة في ملكوت الله لا يتطلب مديح

الإنسان » وهكذا أسموا الرجل الملون مواطناً يتفوهون بها في ذلك الإقليم

أيها القارىء: انتهتَ قصة حريتي، ليس بالطريقة المعتادة بالزواج . أنا وطفلاي الآن أحرار من سلطة مالكي العبيد . كما هي حال البيض في الشمال . ومع أن ذلك حسب مفهومي . قول مأثور جداً إلا أنه تحسن كبير في أحوالي . إن حلم حياتي لم يتحقق بعد . أنا لا أقيم مع طفلي في منزل أمتلكه . وأنا لا أزال أتوق إلى حجر موقد أملكه مهما كان متواضعاً . أرغبه من أجل طفليّ أكثر مما أرغبه من أجلي ، ولكن شاء الله أن تكون ظروفنا هكذا ، حتى أظل مع السيدة « بروس » تشدني إليها المحبة والواجب والامتنان. إنه لشرف لي أن أخدم تلك التي عطفت على شعبي المضطهد ، والتي منحتني ومنحت أطفالي فرحاً بالحرية لا يقدر بثمن

لقد كان شيئاً مؤلماً لي من عدة وجوه أن أستذكر السنوات الموحشة التي قضيتها في العبودية ، لو استطعت لنسيتها بسرور ، ومع ذلك فان استعراض الماضي ليس كله بلا عزاء لأنه مع تلك الذكريات القاتمة تأتي ذكريات رقيقة عن جدتي الطيبة العجوز كغيوم خفيفة ناعمة عائمة فوق بحر مضطرب مظلم .

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

الفهرس

المقدمة	٥
طفولة	١١
السيد والسيدة الجديدان	١٧
أول يوم في السنة الجديدة للعبيد	٢٥
العبد الذي تجرأ على الشعور كرجل	٢٨
محاكمة المراهقة	٤٢
السيدة الغيرى	٤٧
المحب	٥٦
كيف يجري تعليم العبيد حول التفكير عن الشمال	٦٥
رسوم تخطيطية لمالكي العبيد المجاورين	٧٠
فترة خطرة في حياة أمة	٨٠
رباط الحياة الجديد	٨٧
عصيان « نات ترنر »	٩٤
الكنيسة والعبودية	١٠١
صلة أخرى بالحياة	١١٣
مضايقات مستمرة	١١٨
مشاهد في المزرعة	١٢٧
الهروب	١٤٠
اشهر الخطر	١٤٥

بيع الاطفال ١٥٥
مخاطر جديدة ١٦٨
فتحة المأوى ١٦٨
مهرجانات الميلاد ١٧٤
لا أزال في السجن ١٧٧
مرشح الكونغرس ١٨٢
منافسة في المكر ١٨٧
فترة هامة في حياة أخي ١٩٤
وجهة سفر جديدة للاطفال ٢٠٠
الخالة نانسي ٢٠٩
التحضير للهرب ٢١٦
المقصد هو الشمال ٢٢٨
احداث في فيلادلفيا ٢٣٣
لقاء أم وابنة ٢٤٠
الحصول على بيت ٢٤٥
العدو القديم مرة أخرى ٢٤٩
الاجحاف ضد الملونين ٢٥٤
الهروب لمسافة قصيرة ٢٥٨
زيارة إلى لندن ٢٦٥
دعوات متجددة من أجل العودة إلى الجنوب ٢٦٩
الاعتراف ٢٧٢
قانون العبيد الهاربين ٢٧٥
حرة أخيراً ٢٨٣